مجلة الأكاديمية العربية بالدنمارك
THE ARAB ACADEMY IN DENMARK
Magazine
THE ARAB ACADEMY IN DENMARK
الأكاديمية العربية بالدنمارك
Issue – 31 – العدد
THE ARAB ACADEMY IN DENMARK
2023
دورية علمية محكمة نصف سنوية
صادرة عن الأكاديمية العربية بالدنمارك
A Semi-annual Evaluated Scientific Journal
Issued By The Arab Academy In Denmark

المجلة العلمية

للأكاديمية العربية في الدنمارك

دورية علمية محكمة نصف سنوية

رئيس التحرير

أ.د. وليد الحيالي

سكرتير التحرير

أ.م.د. مجدي الجعبري

المستشار العلمي للمجلة

أ.د. محمود عبد العاطي

مدير معامل التأثير العربي ـ اتحاد الجامعات العربية

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. يونس عباس حسين

أ.م. د. فاخر جاسم

أ. م. د. محمد فلحي

عنوان المراسلة

Address

The Arab Academy in Denmark

kobbelvænget 72 B, st

2700 brønshøj- Denmark

The journal Website: **www.ao-journal.org**

The journal E-mail: journal@ao-journal.org

The Arab Academy E-mail: info@ao-academy.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للأكاديمية العربية في الدنمارك

المجلة العلمية للأكاديمية العربية في الدنمارك

Det kongellge bibliotek Nationalbibliotek og kobenhavns Universtietsbibliotek Pligtafeverings-afdeling ISSN Danmark
ISSN- 1902-8458

رقم الإيداع بالمكتبة الملكية الدنماركية ومكتبة جامعة كوبنهافن 8458

شهادة معامل التأثير العربي رقم ٨٤٥٨ ـ ١٩٠٢

البحـوث المنشـورة تـم تقـويمها من قبـل أساتذة

متخصصيـن بحـسب التخصصات العلميـة

الهيأة الاستشارية

أ.د. جاسم حلو نعمة الموسوي ـ نائب رئيس جامعة سابقا ـ عالم في علوم الحياة ـ العراق

أ.د. نظير الأنصاري ـجامعة لوليو التكنلوجية ـ السويد

أ.د. محمد الموسى الصالح ـ جامعة الفرات ـ سوريا

أ.د. حسن السوداني ـ أكاديمي واعلامي ـ السويد

أ.د. إدريس الكريني ـ جامعة القاضي عياض ـ المغرب

أ.د. بوحنية قوي ـ جامعة ورقلة ـ الجزائر

أ.د. قاسم حسين صالح ـ أستاذ علم النفس ـ العراق

أ.د. كريم فاخر نعمة ـ جامعة فيلكو تارنوفو ـ بلغاريا

أ.د. عبد الحسين شعبان ـ نائب رئيس جامعة اللاعنف وحقوق الانسان ـ بيروت

أ.د. حياة قطاط القرمازي ـ منظمة التربية والثقافة والعلوم ـ جامعة الدول العربية

ثمن العدد: في الدول العربية ٤ يورو € أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي $ وفي دول الاتحاد الأوروبي ٥ يورو €

الاشتراك السنوي	الأفراد		المؤسسات	
الاشتراك بعملة €	البلدان العربية	البلدان الإسكندنافية	البلدان العربية	البلدان الإسكندنافية
لمده سنة	٤٠	٥٠	٨٠	١٠٠
لمدة سنتين	٧٠	٨٠	١٥٠	١٦٠
لمدة ثلاث سنوات	١٠٠	١١٠	٢٣٠	٢٤٠
لمدة خمس سنوات	١٥٠	١٦٠	٣٥٠	٤٢٠

هيئة تحكيم العدد ٣١

أ.د. وليد ناجي الحيالي
الدرجة العلمية: أستاذ
التخصص: محاسبة وتحليل مالي
البريد الالكتروني: m_gaapary@hotmail.com

أ.د. كريم سعيد
الدرجة العلمية: أستاذ
التخصص: فنون
البريد الالكتروني: skarimimanare@gmail.com

أ.د. عباس الفياض
الدرجة العلمية: أستاذ
التخصص: اقتصاد
البريد الالكتروني: abbasalfaiadh.gmail.com

أ. د. محمد الموسى الصالح
الدرجة العلمية: أستاذ
الاختصاص: علم نفس العمل
البريد الالكتروني: mhdmusa@hotmail.com

د. فاخر جاسم
الدرجة العلمية: أستاذ مساعد
التخصص: علوم سياسية
البريد الالكتروني: fakhir2007@hotmail.com

د. مجدي الجعبري
الدرجة العلمية: أستاذ مساعد
التخصص: محاسبة
البريد الالكتروني: m_gaapary@hotmail.com

د. صالح قزقز
الدرجة العلمية: أستاذ مساعد
التخصص: لغة عربية
البريد الالكتروني: salihgargaz@gmail.com

ضوابط النشر في المجلة

الاخوة والأخوات الاساتذة الكرام.

تحية طيبة

نود اشعاركم بان مجلة الاكاديمية العربية المحكمة والمعتمدة رسميا كمجلة معترف بها من قبل الاكاديمية الملكية الدنماركية والمكتبة الوطنية الدنماركية تؤكد على الضو ابط الأتية عند ارسال البحوث اليها لغرض تحكيمها ونشرها في المجلة العلمية الاكاديمية المحكمة:

- على المؤلف التأكد من أن دراسته كاملة، ومدققة لغوياً، وخالية من الأخطاء الإملائية والنحوية، وعدم مخالفته لأي نظام للحماية الفكرية.
- يجب على الباحث إخفاء شخصيته في الدراسة، وتجنب وضع أي إشارة تكشف هويته من خلال الدراسة، أما المعلومات الشخصية ومكان العمل فتوضع في صفحة منفصلة.
- يضع الباحث باللغتين العربية والإنجليزية صفحة عنوان رئيسة تبين عنوان الدراسة، واسم المؤلف (المؤلفين) وعناوينهم الكاملة وسيرة ذاتية مختصرة عنهم (الاسم، المؤهل، الدرجة العلمية، جهة العمل ومقرها، البريد الإلكتروني)، وخمسة إلى سبع مصطلحات باللغتين العربية والإنجليزية (كلمات مفتاحية يقترحها الباحث) تعبر عن محتوى الدراسة.
- يقدم الباحث ملخصين للدراسة أحدهما باللغة العربية والآخر باللغة الإنجليزية في حدود ٢٠٠ كلمة..
- يفضل كتابة كل المراجع في الصفحة الأخيرة باللغة الإنجليزية - ترجمة المراجع العربية الي الإنجليزية.
- يستخدم عند كتابة الدراسة بنط (Times New Roman) على النحو التالي:

العنوان: مقاس حجم (١٨) متوسط في السطر وثقيل، اسم المؤلف: حجم (١٦) متوسط في السطر، الكلمات المفتاحية: حجم (١٤)، النص: حجم (١٤)، الفاصل بين السطور ١,٥، العناوين الجانبية: يجب أن تكون قصيرة ومحددة بوضوح بالبنط الثقيل وغير مرقمة، والحاشية السفلية (الهوامش) حجم الخط (١٠).

- تكون العناوين الجانبية قصيرة ومحددة بوضوح بالبنط الثقيل وغير مرقمة.
- تكون الأشكال والخرائط والرسوم البيانية على درجة عالية من الجودة باللونين الأبيض والأسود مع تجنب التظليل الثقيل.
- ترقم الجداول والأشكال ترقيماً متسلسلاً مستقلاً لكل منهم، مع إعطاء عنوان قصير لكل منها تتم كتابته (أعلى) الشكل، ويكون المصدر أسفله.
- يتراوح حجم الدراسة بين (٣٠٠٠-٦٠٠٠) كلمة مطبوعة على ورق بحجم (A4) باستخدام برنامج ميكروسوفت وورد، وبمسافة مفردة بين السطور، مع محاذاة الأسطر من اليمين واليسار وترك هوامش متسعة.
- ترقم جميع الصفحات تسلسلياً.
- ترتب البحوث وفق الآتي: (صفحة العنوان، ملخص، مقدمة، أهمية البحث، أهداف البحث، منهج البحث، النتائج والمناقشة، المراجع).

- ترتب بقية الأشكال الأخرى مثل: (المراجعات والتقارير والمقالات ... إلخ)، بأسلوب متسلسل ومترابط حسب ما يراه الباحث.
- توثيق المصادر.

يهدف توحيد توثيق المصادر بشكل علمي في كل ابحاث المجلة العلمية يرجى من الباحثين الكرام اعتماد أسلوب التوثيق التالي:

- أولا –يتم استخدام أسلوب (MLA. Modern Language Association) حيث يتم كتابة الاسم الأخير للمؤلف ثم الاسم الأول فعنوان الكتاب يليه بلد النشر ثم الناشر وسنة النشر ثم رقم الصفحة وذلك حسب التصنيف الآتي.

- الكتب.
- اسم المؤلف، عنوان الكتاب، بلد النشر، دار النشر، رقم الطبعة، تاريخ النشر رقم الصفحة.
- الدوريات والصحف.
- اسم الكاتب، عنوان البحث أو التقرير، اسم الدورية، بلد النشر، جهة النشر، رقم العدد، تاريخ العدد، الصفحة.
- الندوات والمؤتمرات.
- اسم الباحث، عنوان الورقة البحثية، عنوان الندوة أو المؤتمر، مكان انعقاد المؤتمر، تاريخ انعقاد المؤتمر، رقم الصفحة.
- الرسائل الأكاديمية.
- اسم الباحث، عنوان الرسالة، توصيف الرسالة، بلد الجامعة، اسم الجامعة، اسم الكلية، السنة، رقم الصفحة.
- الصحف الإلكترونية.
- اسم الكاتب، عنوان المقال، اسم الصحيفة، مكان صدورها، تاريخ العدد ثم تكتب عبارة ـ نسخة إلكترونية متاحة على الرابط التالي ويضاف عنوان الرابط.
- المواقع الالكترونية.
- اسم الكاتب، عنوان المقال أو التقرير، تاريخ النشر، بعدها تذكر عبارة ـ النص متاح على الرابط التالي ـ ويضاف عنوان الرابط

ثانيا –يتم إثبات التوثيق في الهامش أسفل الصفحة، على أن يتم إثبات كامل البيانات المطلوبة عند ذكر المرجع للمرة الأولي أما في حالة ذكر المرجع مرات لاحقة يتم ذكر اسم المؤلف ورقم الصفحة فقط مع الإشارة إلى انه مرجع سبق ذكره.

- ثالثا –إعداد قائمة المصادر: يتم في نهاية البحث إعداد قائمة للمصادر وبنفس أسلوب التوثيق (MLA) على أن يتم تقسيمها إلى التالي:

- قائمة الكتب.
- الرسائل الأكاديمية.
- المجلات والدوريات العلمية.
- المجلات والمواقع الالكترونية.

ويتم ترتيب المصادر داخل كل قسم أبجديا حسب اسم المؤلف

- تستغرق مدة التحكيم ما بين ٣ الى ستة أشهر يبلغ الباحث خلالها عن نتائج البحث سلبا ام ايجابا.
- تحول كلفة اجراءات التحكيم والنشر البالغة ٣٠٠ دولارا أمريكيا بالنسبة للأساتذة الباحثين و٢٠٠ دولارا امريكيا بالنسبة لطلبة الدراسات العليا من خارج الاكاديمية قبل الشروع في اجراءات التحكيم على حساب الاكاديمية المصرفي المدرج ادناه ولا يعاد المبلغ في حال رفض البحث من قبل المحكمين.

رقم حساب الاكاديمية المصرفي

اولاً –حساب الجامعة بالعملة الدنماركية للمقيمين في الدانمارك هو

Arabisk Universitet

Den Danske Bank / Roskilde

Reg. nr.3409

Konto nr.11784151

ثانياً –حساب الجامعة بالدولار الامريكي للمقيمين خارج الدانمارك هو

Arabisk Universitet

Danske Bank / Roskilde Afdeling

Holmens Kanal 2-12

Dk- 1092 Copenhagen K, Denmark

Telex 27000 – SWIFT – BIC: DABADKKK

Iban nr. DK1530000011784151

Reg. nr. 3409

- يزود الباحث بنسخة من المجلة بعد انجاز طبعتها الورقية مرفقة بكتاب النشر.
- إذا رغب الباحث بتزويده بأكثر من نسخة فانه يتحمل اجور البريد وقيمة النسخة المثبتة في معلومات المجلة
- المجلة غير ملزمة بنشر ما يرد اليها من بحوث ودراسات ومقالات.
- يتم ارسال البحوث الى البريد التالي journal@ao-journal.org

قائمة البحوث المقبولة للنشر

عنوان البحث	المؤلف	تاريخ التقديم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
الخطاب المسرحي وسيمياء الزمن في مسرح سلطان القاسمي ـ مسرحية عودة هولاكو أنموذج	الباحث: نوزاد جعدان	٢٠٢٢/٩/١١	٢٠٢٢/١١/٣	يوليو ٢٠٢٣
جدل مفهوم العلمانية في الظروف المعاصرة	د. أنمار نزار هاشم الدروبي	٢٠٢٢/١٢ /٧	٢٠٢٣ /٢/٦	يوليو ٢٠٢٣
ادارة مشاريع تدوير النفايات في البلدان العربية	الباحث: عادل بدر عبد الحسين كاظم الرياحي	٢٠٢٣/١/٩	٢٠٢٣/٣/١٣	يوليو ٢٠٢٣
متطلبات الاصلاح الاقتصادي في العراق	أ.د. سناء عبد القادر مصطفى الموصلي	٢٠٢٣/١ /٣١	٢٠٢٣ /٣/١٧	يوليو ٢٠٢٣
الحبُّ والحقيقة في شعر الحلَّاج	أ.د. محمَّد حلمي عبدالوهَّاب	٢٠٢٣/٤/٣	٢٠٢٣/٥/٢٠	يوليو ٢٠٢٣
التعليم العالي في ليبيا، الواقع والتحديات، ما هي الطموحات ومتطلبات التطوير	الباحث: اسعد صالح بوبكر العقيلي	٢٠٢٣/٤/١٠	٢٠٢٣/٥/٧	يوليو ٢٠٢٣

المحتويات

ضوابط النشر في المجلة	٥
قائمة البحوث المقبولة للنشر	٨
افتتاحية العدد أ.د. وليد الحيالي	١٠
أولا: بحوث الإدارة والاقتصاد	١٢
متطلبات الاصلاح الاقتصادي في العراق أ.د سناء عبد القادر مصطفي الموصلي	١٣
ثانيا: بحوث السياسية	٤١
جدل مفهوم العلمانية في الظروف المعاصرة د. انمار نزار هاشم الدروبي	٤٢
ثالثا: بحوث الادب	٧١
الحبُّ والحقيقة في شعر الحلَّاج أ.د. محمد حلمي عبد الوهاب	٧٢
رابعا: بحوث البيئة	١٠٤
ادارة مشاريع تدوير النفايات في البلدان العربية الباحث: عادل بدر عبد الحسين كاظم الرياحي	١٠٥
خامسا: بحوث المسرح	١١٧
الخطاب المسرحي وسيمياء الزمن في مسرح سلطان القاسمي .مسرحية عودة هولاكو أنموذج الباحث: نوزاد جعدان	١١٨
سادسا: بحوث التعليم	١٣٨
التعليم العالي في ليبيا، الواقع والتحديات، ما هي الطموحات ومتطلبات التطوير الباحث: اسعد صالح بوبكر العقيلي	١٣٩

افتتاحية العدد

أ.د. وليد الحيالي ـ رئيس التحرير

تتابع الأكاديمية العربية في الدانمارك إصدار مجلتها العلمية وفي عددها الحادي والثلاثين تكون المجلة قد أضافت صفحة جديدة لصفحات البحث العلمي، وتعتبر المجلات العلمية منذ التاريخ المكتوب والمقروء من أهم المصادر والمراجع لكل الباحثين الراغبين بتعزيز بحوثهم وأغنائها بمواد علميةٍ وأبحاثٍ معرفية للنهوض بالمستوى الفكري للمجتمعات، ويصدر هذا العدد بعد رحيل الأستاذ الدكتور لطفي حاتم نائب رئيس الاكاديمية العربية في الدنمارك وعميد كلية القانون والسياسة وسكرتير تحرير المجلة الأسبق وعضو هيئة تحرير المجلة.

وفي العدد ٣١ نطالع تجربة التعليم العالي في ليبيا في ظل الواقع والتحديات الموجودة في المنطقة العربية عموماً وفي ليبيا بصورة خاصة للباحث أسعد صالح بوبكر العقيلي، عبر بحثٍ أجراه تحت عنوان (التعليم العالي في ليبيا، الواقع، التحديات، ماهي الطموحات ومتطلبات التطور).

ولا يعني عنوان المجلة العلمية أن تكون المواضيع المطروحة فيها العلوم البحتة فقط، فالأدب هو نوع آخر من العلوم لابل هو مرآة الشعوب وثقافتهم لذلك تفرد المجلة العلمية في الدانمارك في عددها هذا صفحةً للأدب عبر بحث ادبي للأستاذ الدكتور محمد حلمي عبد الوهاب يخوض فيه في شعر الحلّاج ويستنبط منه صوراً أدبية تحت عنوان (الحب والحقيقة في شعر الحلاج).

ونتابع في قسم الأدب والمسرح ذلك المتحدث الصامت الذي تستطيع خشبته بصمتها أن توصل رسالة ناطقة بكل لغات العالم، الباحث نوزاد جعدان سلط الضوء على الخطاب المسرحي عبر بحث بعنوان (الخطاب المسرحي وسيمياء الزمن في مسرح سلطان القاسمي - مسرحية عودة هولاكو انموذج).

ونقلب صفحات المجلة لنقف عند نقطة كانت محوراً لكثير من النقاشات في المجتمع على مختلف المستويات والثقافات وهي العلمانية وكيف يُنظَر إليها خصوصاً في حياتنا المعاصرة وماهي فكرتها ومفهومها لدى الشعوب، وحول هذه النقطة كتب الدكتور أنمار نزار هاشم الدروبي بحثه الذي عنونه (جدلُ مفهوم العلمانية في الظروف المعاصرة).

وقد حرصت الأكاديمية العربية في الدانمارك وفريقها العلمي في جميع ما يقومون به من جهود حثيثة ان يخرجوا بعدد شامل يغطي كل نواحي الحياة وكل اهتمامات القراء فالمجلة العلمية كما ذكرنا هي مرجع علمي وبحثي يمكن العودة إليه في أي وقت، لذلك كان للبيئة حصة في عدد المجلة الحادي والثلاثين وحول موضوع شائك في بلداننا العربية والذي مازلنا نحتاج لتدوير ثقافته في مؤسساتنا وهو تدوير النفايات في البلدان العربية، فيمكن لعزيزنا القارئ ان يطالع اكثر حول هذا الموضوع عبر ما دونه رئيس فريق الخبراء في وزارة التخطيط العراقية عادل بدر عبد الحسين كاظم الرياحي حول إدارة مشاريع تدوير النفايات في

البلدان العربية، اما عصب الحياة الاقتصاد فقد ناقشت فيه الاستاذ الدكتور سناء عبد القادر مصطفى الموصلي متطلبات الاصلاح في العراق

وبذلك يكون عدد المجلة الحادي والثلاثين قد شمل كل مجالات البحوث العلمية والآداب والسياسة والمسرح والاقتصاد آملين ان نكون قد وفقنا في اختيار مواد عددنا لما فيه الإفادة للجميع.. الى اللقاء في العدد القادم مع مواضيع وبحوث جديدة تثري المكتبة العلمية وتضيف لثقافة قرائنا الاعزاء

أولا: بحوث الادارة والاقتصادية

متطلبات الاصلاح الاقتصادي في العراق

Requirements for economic reform in Iraq

أ.د. سناء عبد القادر مصطفى الموصلي
الاكاديمية العربية في الدنمارك

التخصص العام والدقيق: الاقتصاد الصناعي
البريد الالكتروني: oriemus@online.no

تاريخ التقديم للنشر: ٢٠٢٣/٠١/٣١ تاريخ القبول للنشر:٢٠٢٣/٠٣/١٧

الخلاصة.

يدور الاقتصاد الوطني العراقي منذ العام ٢٠٠٣ في فلك حلقة مفرغة تتسم معالمها في التالي:

١. لم يحدد الدستور العراقي طبيعة النظام الاقتصادي، فقد ورد في المادة ٢٥: «تكفل الدولة اصلاح الاقتصاد العراقي وفق اسس اقتصادية حديثة وبما يضمن استثمار كامل موارده وتنويع مصادره وتشجيع القطاع الخاص وتنميته» (الدستور العراقي).
٢. يقوم النظام الاقتصادي-السياسي العراقي، المشوه في الوقت الحاضر، على اساس المحاصصة الطائفية والإثنية السياسية (المحسوبية والمنسوبية). وانطلاقاً من هذا فقد تحولت المؤسسات الرسمية والدوائر الحكومية الى نظام الطوائف – الإقطاعي الذي ساد أوروبا في القرون الوسطى. وهذا ما أدى الى نخر كافة أجهزة الدولة المدنية والعسكرية والأمنية وإصابتها بالشلل نتيجة للفساد الإداري والمالي.
٣. ضعف دور الهيئات الاقتصادية المستقلة مثل ديوان الرقابة المالية والبنك المركزي العراقي باعتباره بنك البنوك في إدارة الاقتصاد الوطني العراقي بسبب تدخل رئيس الوزراء المباشر في عملهما.
٤. غياب التخطيط الاقتصادي العلمي الذي يستند على الخطط البعيدة والمتوسطة والقصيرة المدى بسبب التخبط والفوضى العارمة في إدارة قطاعات الاقتصاد الوطني، الأمر الذي أدى الى ضعف مساهمة هذه القطاعات في الناتج المحلي الإجمالي.
٥. ظاهرة غسيل الأموال أو غسل الأموال Money laundering واستثمارها في الدول المجاورة أصبحت مسألة طبيعية في الاقتصاد الوطني العراقي، وما يستغرب له المرء إنه توجد بنوك في دول الجوار تستقبل هذه الأموال برحابة صدر كي تستثمرها دون أن تكلف نفسها بالسؤال كيف خرجت هذه الأموال من العراق بشكل غير رسمي وأصولي!

أما استعمال مصطلح غسل أو غسيل الأموال فهو خطأ شائع بين كثير من الاقتصاديين العراقيين والعرب مثل مصطلح الدخل الوطني (National income) والذي ترجم الى الدخل القومي واستعمل من قبل الكثير من الاقتصاديين في مصر والعراق وبقية الدول العربية في ستينيات القرن الماضي. ومن الأفضل استعمال مصطلح تهريب رؤوس الأموال الى الخارج. فحتى مصطلح غسل رؤوس الأموال هو تعبير مجازي.

٦. عدم السيطرة على سعر صرف الدينار العراقي بسبب غياب السياسة المالية والنقدية الواضحة المعالم وذات الأهداف المنطلقة في خدمة الاقتصاد الوطني وليس خدمة بنوك القطاع الخاص التي سادها الفساد والرشوة المالية.

٧. عدم وجود شبكة أنظمة لإدارة المعلومات المالية والإدارية الحكومية والتي بواسطتها يتم متابعة تنفيذ الموازنة السنوية العامة لكافة قطاعات الاقتصاد الوطني في البلد.

٨. تعدد اللجان الاقتصادية التابعة للأحزاب السياسية التي تقوم بأخذ المقاولات من الوزارات التابعة لها لتربح منها ومن ثم تقوم بتمويل مالية الحزب التابعة لها. إن ظاهرة تشكيل اللجان الاقتصادية هذه أصبحت موضة في اقتصادنا الوطني!

٩. وجود مجلس نواب لا يملك من الناحية العملية السلطة التشريعية والرقابية بسبب سيطرة رؤساء الكتل السياسية من خارج وداخل البرلمان، ولأن القانون الانتخابي صمم بحيث ينتج ويعيد إنتاج فئات إدارية حاكمة من قادة وأصدقاء وأزلام الكتل السياسية بالإضافة الى المتملقين لهم.

١٠. إن "الهيئات المستقلة" من الناحية العملية هي هيئات تابعة لأحزاب السلطة، إذ تتكون من ممثلي أحزاب المحاصصة الطائفية والإثنية وينفذ رئيسها بما يأمره رئيس حزبه. وهذا ما لاحظناه في جميع الانتخابات "اللاديمقراطية" في العراق منذ العام ٢٠٠٣. وخير مثال على ذلك هو مفوضية الانتخابات المستقلة وهيئة المساءلة والعدالة وشبكة الإعلام التي غالباً ما تقوم بدور وعاظ السلاطين!

The Absract

Since 2003, the Iraqi national economy has been in a vicious circle, characterized by the following:

1. The Iraqi constitution does not specify the nature of the economic system, as it is stated in Article 25: "The state guarantees the reform of the Iraqi economy according to modern economic foundations and in a way that

ensures the investment of all its resources, diversification of its sources, and the encouragement and development of the private sector" (the Iraqi constitution).

2. Iraq's presently distorted socio-political system is based on sectarian and ethno-political quotas (nepotism and attributionism). Accordingly, official institutions and government departments were transformed into the feudal caste-system that prevailed in medieval Europe. This has led to the erosion of all civil, military and security state agencies and their paralysis as a result of administrative and financial corruption.
3. The role of independent economic bodies such as the Financial Supervision Bureau and the Central Bank of Iraq as a bank of banks in managing the Iraqi national economy has weakened due to the direct intervention of the Prime Minister in their work.
4. The absence of scientific economic planning based on long medium and short-term plans due to confusion and chaos in the management of sectors of the national economy, which led to the weak contribution of these sectors to the GDP.
5. The phenomenon of money laundering and investment in neighboring countries has become a normal issue in the Iraqi national economy, and what surprises one is that there are banks in neighboring countries that receive these funds with openness in order to invest them without bothering to ask how these funds came out of Iraq informally and fundamentally!
6. The lack of control over the exchange rate of the Iraqi dinar due to the absence of a clearly defined fiscal and monetary policy with objectives in the service of the national economy and not the service of private sector banks, which were dominated by corruption and financial bribery.
7. The absence of a network of systems for managing government financial and administrative information, through which the implementation of the

general annual budget for all sectors of the national economy in the country is monitored.

8. There are many economic committees of political parties that take companies from their ministries to profit from them and then finance their party finances. The phenomenon of forming economic committees has become a fashion in our national economy!
9. The existence of a parliament does not have legislative and oversight power in practice because of the control of the heads of political blocs from outside and inside parliament, and because the electoral law was designed to produce and reproduce ruling administrative categories of leaders, friends and cronies of political blocs in addition to their sycophants.
10. In practice, "independent bodies" are subordinate to the parties in power, as they are composed of representatives of sectarian and ethnic quota parties, and their president carries out what the head of his party orders. This is what we have observed in all the "undemocratic" elections in Iraq since 2003. A good example of this is the Independent Electoral Commission, the Accountability and Justice Commission and the media network that often acts as preachers of the sultans!

المقدمة:

حداثة الموضوع.

أنا من الأوائل اللذين كتبوا عن موضوع الاصلاح الاقتصادي في اطروحتي للدكتوراه باللغة الروسية الموسومة " Промышленность Растительных Масел Ирака и Экономичех Проблеми её Развия. (المشاكل الاقتصادية لتطوير صناعة الزيوت النباتية في العراق صفحات ١٤-١٥) (١٩٨١-معهد الاقتصاد التابع لأكاديمية العلوم الأوكرانية - الاتحاد السوفيتي)[١]." وتغيرت استراتيجية التطور الاقتصادي للبلد الذي أصبح فيها رفض طريق التطور الرأسمالي وادخال الاصلاح الاقتصادي الذي هو محور ارتكاز في عملية بناء الاقتصاد الوطني وإعطاء قطاع الدولة دوراً مهماً".

[١] انظر اطروحتنا للدكتوراه باللغة الروسية الموسومة " Промышленность Растительных Масел Ирака и Экономичех Проблеми её Развия. (المشاكل الاقتصادية لتطوير صناعة الزيوت النباتية في العراق صفحات ١٤-١٥) -(معهد الاقتصاد التابع لأكاديمية العلوم الأوكرانية - الاتحاد السوفيتي، ١٩٨١).

وكذلك:" ملخص اطروحة الدكتوراه الذي ترجمته من اللغة الروسية الى اللغة العربية المنشور في شبكة الاقتصاديين العراقيين بتاريخ ٢٠١٩/٠٩/٠٨. " يعار اهتمام خاص من قبل المهتمين بالاقتصاد العراقي لتصفية تراكيب الاقتصاد الوطني المتخلفة. ويبرز برنامج كبير فيه إقامة صناعة ثقيلة وبناء المكائن. وتتخذ اجراءات لتطور سريع في فروع صناعية أخرى وفي مقدمتها الصناعات الغذائية الذي يحتل المكان الرئيس في تركيبها إنتاج الزيوت النباتية، إذ تلعب منتجات هذا الفرع الصناعي دورا مهما في توفير المنتجات الغذائية للسكان. كما أن استمرار تطورها يلبي المصلحة الاقتصادية للبلد" [١].

وبالإضافة الى مقالة عن الاصلاح الاقتصادي في العراق بعنوان: إلى أين يتجه الاقتصاد الوطني العراقي والتي نشرت في شبكة الاقتصاديين العراقيين بتاريخ ٢٠١٦/٣/٧.

يشكل الاصلاح الاقتصادي ركناً اساسياً في تطور وتنمية أية دولة في العالم، ولذلك فإن "الإصلاح الاقتصادي هو مجموع الاجراءات الهادفة إلى معالجة الاختلالات الهيكلية والبنيوية للاقتصاد الوطني. وبنتيجة ذلك يتم الانتقال إلى نظام منفتح يقوم على أساس تحرير السوق وتوسيع قاعدة التنمية. من بين الإجراءات الفعالة في مجال الإصلاح الاقتصادي إعادة هيكلة مؤسسات الدولة بحيث تصبح أكثر كفاءة وأعلى إنتاجية. ومما يعنيه ذلك مواكبة مؤشرات العرض والطلب بشكل فعال وإيجابي على المنتجين والمستهلكين"[٢] .

كما يعني الإصلاح الاقتصادي "تصحيح أسس الاقتصاد الكلي وإعادة رسم الأولويات لكي يتم توفير الظروف الملائمة لتحقيق النمو الاقتصادي القابل للاستمرار وتحسين مستويات المعيشة في بيئة اقتصادية كلية مستقرة يتم فيها السيطرة على ضغوط التضخم من خلال اتباع سياسات مالية ونقدية تهدف إلى سيادة نظام السوق وتحسين وضع ميزان المدفوعات " [٣] .

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في بيان قدرة العراق على تنفيذ كافة **متطلبات الاصلاح الاقتصادي** من أجل تنفيذ تنمية اقتصادية تشمل كافة قطاعات الاقتصاد الوطني العراقي بما فيها الاصلاح النقدي وتغيير سعر الصرف على عملته الوطنية.

أهداف البحث:

ويهدف البحث الى القاء الضوء على أهم التحديات التي تواجه العراق في **الاصلاح الاقتصادي** من حيث:

---

[١] ملخص اطروحة الدكتوراه الذي ترجمته من اللغة الروسية الى اللغة العربية المنشور في شبكة الاقتصاديين العراقيين بتاريخ ٢٠١٩/٠٩/٠٨.

[٢] Made for minds, DW.

[٣] سوسن جبار عودة، الإصلاح الاقتصادي: المفهوم، السياسات، الأهداف، **فرع المنطقة الغربية بالهيئة العامة لتشجيع الاستثمار وشؤون الخصخصة**. ٢٠١٣/١١/٧.

١. بيان وتحديد الأسباب الحقيقية التي تقف حجر عثرة أمام **الاصلاح الاقتصادي** وتطور العراق، اعتمادا على التحليل العلمي الذي تحدده منهجية هذا البحث.

٢. طرح الحلول العملية من خلال الخطط الاقتصادية الطويلة والمتوسطة الأمد لضمان تحقيق تنمية اقتصادية شاملة ومتواصلة حسب التصورات المرسومة لها وتطوير الاستثمار في صندوق السيادة العراقي.

وتهدف هذه الدراسة ايضاً الى:

١. بيان وتحليل نتائج الاصلاح النقدي في برنامج الاصلاح الاقتصادي وتأثيره على سعر صرف الدينار العراقي مع اظهار مدى استقرار السياسة النقدية وتأثيرها على سعر الصرف.

٢. دراسة وتحليل الازمات الاقتصادية وتأثيرها على الاقتصاد الوطني العراقي مع وضع خطوات لعدم تكرارها

٣. دراسة تأثير اتباع سياسة نقدية لتثبيت التضخم عند مستوى معين على سعر الصرف.

٤. تقييم سياسات سعر الصرف التي اتبعتها الدولة ومدى فاعليتها في الاقتصاد الوطني من حيث تحقيق اهداف التنمية والاستقرار الاقتصادي ودعم سعر صرف الدينار العراقي.

مشكلة البحث:

ما هي التحديات التي يمكن أن تواجه **الاصلاح الاقتصادي في العراق؟**

في هذا البحث سوف أشرح مفاهيم معينة للإجابة على الأسئلة أعلاه ومن ثم الإجابة كيف يمكن للمرء أن يحل المشاكل التي ستواجه العراق مستقبليا في **الاصلاح الاقتصادي.**

فرضيات البحث: والفرضية الأساسية للبحث هي وجود مؤسسات اقتصادية ومالية في العراق هدفها عند الضرورة تنفيذ كافة **متطلبات الاصلاح الاقتصادي بما فيها تغيير سعر صرف** الدينار **العراقي** حتى تتحقق رفاهية المواطن العراقي.

الفرضية الأولى: الاعتماد على التخطيط الاستراتيجي الطويل الأمد (خطط لمدة ١٠ سنوات) وخطط اقتصادية خمسية تلائم طبيعة العراق وتناسب بيئته الاجتماعية من أجل تحقيق أهداف التنمية الاقتصادية-الاجتماعية المنشودة.

الفرضية الثانية: إن نظم المعلومات في المؤسسات والمشاريع الإنتاجية التي لها علاقة مباشرة بالاقتصاد الوطني هي من الدعائم الأساسية المساهمة في حل معظم مشاكل النظام الاقتصادي من خلال اتخاذ القرارات الرشيدة والقضاء على البيروقراطية الإدارية وكذلك التداخل في المهام الإدارية بين الوحدات التنظيمية المختلفة حتى يتم تنفيذ كافة **متطلبات الاصلاح الاقتصادي.**

منهج البحث: ومن أجل تحقيق الأهداف المنشودة من هذه الدراسة والوصول الى اثبات فرضية البحث أو نفيها اعتمدت في هذا البحث استخدام المنهج الاستنباطي الوصفي التحليلي الذي يستند على أساليب الاحصاء

الاقتصادي ومحاولة معرفة العلاقة الكمية التي تربط هذه المتغيرات بعضها ببعض. وحتى تساعد **متطلبات الاصلاح الاقتصادي في العراق** في تنفيذ المشاريع الاقتصادية والاجتماعية وتحقق الأهداف المرجوة منها، فإننا نحتاج إلى مؤسسات مالية ودستورية توفر لها كل مقومات النجاح بدءاً من الاستراتيجيات الاقتصادية والاجتماعية التي تعتبر إحدى أولوياتها، وتبنّي السياسات المالية والتمويلية اللازمة لتنفيذها.

الكلمات المفتاحية: اصلاح اقتصادي، سعر الصرف وسعر الفائدة، صندوق النفط السيادي، التضخم. الاختلالات الهيكلية والبنيوية للاقتصاد الوطني

المبحث الأول: توصيف الأزمة الاقتصادية في العراق

ومن تحليل المؤشرات الاقتصادية في الجدول رقم ١ يمكن القول: أن أزمة اقتصادية في ظل هذه المؤشرات توجد في العراق. فمن معدل سلبي لنمو الناتج المحلي الاجمالي (-١٥,٧٪) الى معدل بطالة وصل الى ١٤,٢٪ ومعدل تضخم ٤,٥٠٪ ونسبة الحساب الجاري الى الناتج المحلي الاجمالي قدرها (-١٠,٨٪) ونسبة الميزانيات الحكومية من الناتج المحلي الاجمالي بلغت (-١٢,٨) وهذه البيانات تعكس كارثة حقيقة تطور الاقتصاد الوطني العراقي السلبي كما تعكسه بيانات جدول رقم (١).

جدول رقم ١ : المؤشرات الاقتصادية في العراق %

السنة والشهر	الأخير	السابق	البيان
ديسمبر-٢٢	١٤٥٩	١٤٥٨	العملة
ديسمبر-٢١	٥,٩٠٪	-١٥,٧٠٪	معدل النمو السنوي للناتج المحلي الاجمالي
ديسمبر-٢١	١٤,٢٠٪	١٣,٧٤٪	معدل البطالة
أكتوبر-٢٢	٤,٥٠٪	٥,٣٠٪	معدل التضخم
سبتمبر-٢٢	٤٪	٤٪	سعر الفائدة
يونيو-٢٢	١٨٨٣مليون $	٠١٤٤٣٣ مليون$	الميزان التجاري
يونيو-٢٢	١٥٦١٠ مليون $	٩١٦٤ مليون $	الحساب الجاري
ديسمبر-٢١	٧,٨٠٪	-١٠,٨٠٪	الحساب الجاري الى الناتج المحلي الإجمالي
ديسمبر-٢١	٥٩,٣٠٪	٨٤,٢٠٪	الدين الحكومي الى الناتج المحلي الاجمالي
ديسمبر-٢١	-٠,٨٠٪	-١٢,٨٠٪	الميزانيات الحكومية
ديسمبر-٢١	١٥٪	٣٥٪	معدل ضرائب الشركات
ديسمبر-٢٢	١٥٪	١٥٪	معدل ضريبة الدخل الشخصي

المصدر: العراق ـ المؤشرات الاقتصادية:

National Statistics

World Bank

وكما هو واضح من الجدول رقم ١ أن التضخم بلغ ٤,٥ % وهذا حدث نتيجة الأسباب التالية: الاستيراد وارتفاع سعر صرف الدولار أمام العملة المحلية. وهذا الذي أكدت عليه وزارة التخطيط العراقية وكذلك الجهاز المركزي للإحصاء اللذين قد أعلنا عن ذلك على لسان المتحدث الرسمي باسم وزارة التخطيط العراقية عبد الزهرة الهنداوي بأن ارتفاع التضخم السنوي في العراق يرجع الى أسباب خارجية وداخلية. وأضاف الهنداوي ان "مؤشرات التضخم في العراق كمنظومة اقتصادية جزء من المنظومة الاقتصادية العالمية وخصوصا ان الكثير من المواد سواء أكانت انشائية او استهلاكية مستوردة، وبالنتيجة شهدت ارتفاعا بالأسعار بمعدلاتها العامة وخاصة الغذائية المستوردة". وكذلك "كثرة الطلب الاستهلاكي على مختلف المواد الاستهلاكية والانشائية ووجود كتلة نقدية كبيرة تتحرك داخل السوق العراقية يضاف الى ارتفاع قيمة الدولار وانخفاض قيمة الدينار بالأساس، اسهمت جميعها الى ارتفاع نسب التضخم" [١].

من تحليل بيانات **الرسم التوضيحي رقم ١ التي توضح نسب ايرادات بيع النفط العراقي والاجور والرواتب التقاعدية والميزان المالي والايرادات غير النفطية والنفقات الأخرى وسعر برميل النفط الواحد من الانتاج المحلي الاجمالي**[٢] نجد أن حصة الاسد تعود الى الأجور والرواتب التقاعدية والنفقات الأخرى اللتين يشكلان نصف الموارد من بيع النفط العراقي وهذا هو السبب الرئيس في اختلال نمو وتطور الاقتصاد الوطني العراقي والذي يجب أن يبدأ به الاصلاح الاقتصادي في العراق.

رسم توضيحي رقم ١ يعكس نسب ايرادات بيع النفط العراقي والاجور والرواتب التقاعدية والميزان المالي والايرادات غير النفطية والنفقات الأخرى وسعر برميل النفط الواحد من الانتاج المحلي الاجمالي

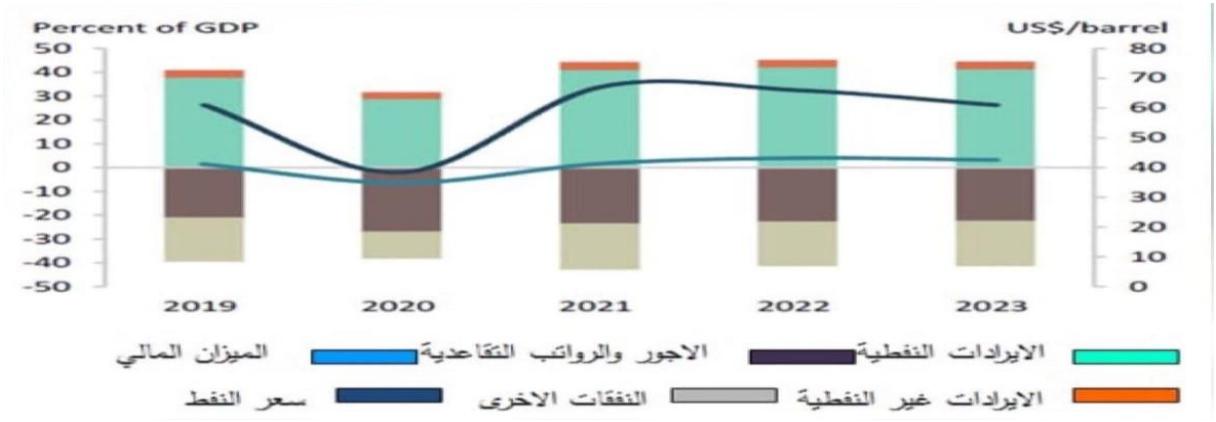

[١] وزارة التخطيط العراقية، "تجربة الصندوق الاجتماعي"، ٢٠٢١

[٢] Attaqa.net

المبحث الثاني: انشاء صندوق سيادي لاستثمار عوائد بيع النفط العراقي

أنشئ اول صندوق سيادي في العالم في دولة الكويت في العام ١٩٥٣. ومن ثم انتشرت هذه الصناديق حتى أصبح عددها أكثر من ١٠٠ صندوق استثمار في العالم. وهناك معهد اسمه معهد الصناديق السيادية Sovereign Wealth Fund Institute - SWFI الذي مقره في الولايات المتحدة الامريكية يتخصص في دراسة كل استثمارات وحركات الصناديق السيادية في العالم. وتوجد لدينا تجربة مملكة النرويج، البلد الذي أقيم فيه منذ العام ١٩٨٧. تجربة غنية من الضروري التطرق اليها ولو بإيجاز.

يشكل النفط والغاز جزءاً مهماً من ثروة النرويج الوطنية. وقد أعطى ذلك عائدات مغرية للنرويج وفرصة فريدة لزيادة رأس المال للأجيال القادمة. ولذلك استثمرت النرويج بكثافة في صندوق نفطي بلغ رأسماله حتى حزيران العام ٢٠١٩ أكثر من ١,٤ تريليون دولار[١]. وبسبب التقلبات الدورية لسعر بيع البرميل الواحد من نفط الشمال يمكن تخفيض قيمة الصندوق أو زيادته بمئات مليارات الدولارات في فترة زمنية قصيرة. تأسس صندوق النفط الحكومي في العام ١٩٩٠ ولكن أعيدت تسميته في العام ٢٠٠٥ إلى صندوق المعاشات التقاعدية الحكومي-العالمي والذي يدار من قبل البنك المركزي النرويجي ويستثمر رأسماله في الأسهم والأوراق المالية في جميع أنحاء العالم.

أن الغرض من صندوق المعاشات التقاعدية الحكومي هو تمويل نفقات التقاعد المستقبلية للتأمين الوطني وذلك لأن مصروفات التقاعد في خطة التأمين الوطنية سوف تزداد بشكل كبير. وبهذه الطريقة، يمكننا أن نضمن للمستقبل أولئك الذين يأتون بعدنا ويتجنبون دفع أعباء كبيرة على الأجيال القادمة كما يقول النرويجيون [٢].

وصندوق الثروة السيادي هو صندوق استثمار مملوك للدولة يتألف من الأموال التي تولدها الحكومة، التي غالبًا ما يتم اشتقاقها من فائض احتياطيات الدولة، حيث توفر الصناديق السيادية منفعة لاقتصاد الدولة ومواطنيها.

قال نائب محافظ البنك المركزي، عمار خلف، في تصريح تابعته "العين الإخبارية"، "ندعو إلى ضرورة إنشاء صندوق سيادي للاستفادة من الوفرة المالية للدولة." وأضاف خلف أن "قرار إنشاء صندوق يبقى تابع للحكومة العراقية ووزارة المالية بالأساس"، مشيرا إلى أنه "بالإمكان أن يساهم البنك المركزي في إدارة هذا الصندوق" [٣].

---

[١] . www. Norges Bank, Investment Managemet.no. Oslo,

[٢] انظر بحثنا: تجربة مملكة النرويج في الاصلاح النقدي وتغيير سعر الصرف وإمكانية استفادة العراق منها. جامعة التنمية البشرية، مديرية ضمان الجودة. السليمانية -العراق. المؤتمر العلمي الدولي الحادي عشر يومي ١١-١٢ حزيران ٢٠٢٢.

[٣] العين الإخبارية -ليث الكاتب. ١٢/٧/٢٠٢٢

وظهرت فكرة تأسيس صندوق السيادة في العراق في أغسطس/آب ٢٠٢١، على وقع انقضاء أزمة مالية عاشتها البلاد دفع بالحكومة إلى الاقتراض ولأكثر من مرة لتأمين النفقات التشغيلية بما فيها رواتب الموظفين، وثارت حالة من الجدل في الأوساط العراقية بسبب الفكرة التي مر على ظهورها ١٠ أشهر.

وأكثر ما يحتاج اليه العراق في الوقت الحاضر هو تأسيس مثل هذه الصندوق الذي سوف يساهم في استثمار مداخيل بيع النفط العراقي في مشاريع اقتصادية تغذي أرباحها صندوق سيادي للأجيال القادمة من الشعب العراقي.

والجدول التالي يحتوي على معلومات عن أكبر عشرة صناديق سيادية في العالم [١].

جدول رقم ٢: معلومات عن أكبر عشرة صناديق سيادية في العالم

[١] المصدر: معهد صندوق الثروة السيادية :SWFI CNNبالعربية

وكما تبين معلومات الجدول فقد حاز الصندوق السيادي لـ"هيئة الاستثمار الكويتية" على المركز الأول بين الصناديق السيادية العربية، والثالث عالميا، تلاه هيئة جهاز أبو ظبي للاستثمار، ثم صندوق الاستثمارات السعودي في المركز الثالث عربيًا، وفقًا لبيانات معهدSWFI ، الذي يرصد تطور قيمة أصول الصناديق السيادية حول العالم. وتصدر الصندوق التقاعدي الحكومي النرويجي المركز الأول عالميًا بقيمة ١,٤ تريليون دولار، وجاءت مؤسسة الاستثمار الصينية في المركز الثاني بقيمة ١,٢ تريليون دولار.

واستنادا الى بيانات الرسم التوضيحي رقم ٢ الذي يبين قيمة صادرات النفط العراقي في العامين ٢٠٢١ و٢٠٢٢ يمكننا أن نؤسس صندوق سيادي للعراق للأجيال القادمة وعدم تبذير وأنفاق هذه الاموال الضخمة في مشاريع استهلاكية غير انتاجية ولا يستفاد منها الشعب العراقي. فقد ارتفعت اجمالي الايرادات في أول تسعة أشهر من العام ٢٠٢١ من ٥٢,٩٨ مليار دولار أمريكي الى ٩٠,٣١ مليار دولار أمريكي، أي بنسبة ٧٠,٥٠ % [١]. وهنا نقترح التالي: فرض **ادخار اجباري بحدود ٢٠٪ على رواتب الموظفين اللذين يستلمون ٢ـ٥ ملايين دينار عراقي وعلى ألا يتجاوز أعلى راتب في الدولة العراقية عن خمسة ملايين دينار عراقي مع الغاء جميع الامتيازات والمخصصات المالية العالية لأعضاء مجلس النواب والوزراء ورئيس الوزراء ورئيس الجمهورية وأصحاب الدرجات الخاصة مع مكاتب رئاسة الوزراء ومكاتب رئاسة الجمهورية مع استثناء فئات الموظفين الصغار والمعلمين والمدرسين والعاملين في قطاع الرعاية والخدمات الصحية.**

رسم توضيحي رقم ٢ ـ ايرادات صادرات النفط العراقي للسنتين ٢٠٢١ و ٢٠٢٢

[١] Attaqa.net

المبحث الثالث: ادخال نظام الحكومة الالكترونية في جميع مجالات ادارة الاقتصاد الوطني

ويعتبر ادخال نظم المعلومات في المؤسسات والمشاريع الإنتاجية التي لها علاقة مباشرة بالاقتصاد الوطني هي من الدعائم الأساسية المساهمة في حل معظم مشاكل النظام الاقتصادي من خلال اتخاذ القرارات الرشيدة والقضاء على البيروقراطية الإدارية وكذلك التداخل في المهام الإدارية بين الوحدات التنظيمية المختلفة. وكذلك بيان تأثير تطور الأعمال الالكترونية في إدارة المشاريع الإنتاجية من وجهة نظر علمية مبنية على استخدام التقنيات والأساليب الحديثة في إدارة الإنتاج المادي التقني. كما تعتبر زيادة إنتاجية العمل خير مؤشر لما يلحق بالمنشآت الاقتصادية من تطوير علمي وتقني وإداري، ينعكس على قدرة العنصر البشري. ومن المتفق عليه أن تحسين الإنتاجية أو زيادتها لا تحدث بشكل عفوي أو تلقائي، وإنما تأتي هذه الزيادة نتيجة لأخذ المنشأة بأسلوب التخطيط العلمي الجيد، وزيادة استخدام الموارد والطاقات البشرية والمادية المتاحة، إضافة إلى الاستفادة الكاملة من منجزات العلوم والتطور الفني والتكنولوجي. وهذا لا يتم إلا باستخدام أعمال تكنولوجية حديثة.

وتتفق الدراسات العلمية الاقتصادية على أن فعالية الأعمال الالكترونية في المشاريع الانتاجية وعلاقتها بالإنسان تبنى على أساس ماهية وضرورة الأعمال الالكترونية لإدارة المشاريع الاقتصادية مهما كان نوعها، صناعي او زراعي او تجاري.. الخ. أن المفاهيم المتعلقة بمكان المشروع الانتاجي ومدى استخدامه للأعمال الإلكترونية في رفع فاعلية ادارة المشاريع الانتاجية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإنتاجية هذه الأعمال ومدى امكانية رفع وتيرتها ونوعيتها من حيث ادخال آخر تطورات علوم الإلكترونيات الحديثة التي باتت تتطور بسرعة فائقة. فنحن نعيش الآن في عصر يتصف بسرعة التطور التكنولوجي والإلكتروني الذي بات احدى سمات المجتمعات المتقدمة. أن العلاقات الاجتماعية-الاقتصادية في المجتمعات المتقدمة صناعياً والنامية بشكل مطرد مرتبطة بالمكان والمفاهيم التكنولوجية الالكترونية المتولدة في هذه المجتمعات. فقد طرأت تحولات كبيرة فيها بسبب تطور قطاع تكنولوجيا المعلومات الذي يعتمد على الحاسوب والأجهزة الالكترونية القادرة على تحقيق الاتصال المباشر والآلي فيما بينها بغض النظر عن تباعد المسافات بينها. وهذا كله بفضل شبكات الانترنيت الدولية Internet. وكما يؤكد أدريان بالمر في كتابه مبادئ تسويق الخدمات (مبادئ تسويق الخدمات، أدريان بالمر، ترجمة بهاء شاهين وآخرين، مجموعة النيل العربية، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٢٤٩) بأن شبكة الانترنيت تعد أهم تطور حدث في العشرة سنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين فيما يتعلق برفع انتاجية الخدمات [١].

[١] مبادئ تسويق الخدمات، أدريان بالمر، ترجمة بهاء شاهين وآخرين، مجموعة النيل العربية، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٢٤٩

أصبحت المعلومات والبيانات الاحصائية موردا هاماً من الموارد الأساسية للنظم الاقتصادية وللمؤسسات بصوره خاصة. فلكي تحافظ المؤسسات على البقاء والاستمرار يلزم لها أن تجمع وتعالج وتخزن كل ما تستطيع الحصول عليه من هذه المعلومات والبيانات التي تخدم أنشطتها، ومن هنا نشأت الحاجة إلى نظم تعمل على جمع ومعالجة وتخزين ونشر هذه المعلومات من خلال نظم معلومات فاعله ورشيدة سواء على مستوى الاقتصاد الوطني ككل بحيث تشمل جميع قطاعات الاقتصاد الوطني وأنظمة المعلومات الديموغرافية والبيئية التي يعتمد عليها في الخطط التنموية للبلدان. وهذا يشمل نظم معلومات المشاريع الانتاجية الصناعية والزراعية والتجارية التسويقية والترويجية منها والخدمية التي تشمل خدمات النقل المادي الذي يتعلق بقطاعات الانتاج المادي، وغير المادي الذي يتعلق بإنتاج قطاعات الانتاج غير المادي ونظم المعلومات الادارية والمحاسبية والتنظيمية وكذلك التعليمية الجامعية والتربوية والقائمة تطول. كل هذا من أجل العمل على توفير المعلومات لصناع القرار في الدولة أو في كافة مؤسسات القطاعين العام والخاص عند الحاجة وبالسرعة الممكنة والكمية والدقة والشكل المطلوب لاتخاذ القرارات المناسبة في ظل مختلف الظروف سوءا المخاطرة أو التأكد لكي تحقق أقصى فاعلية لأهداف المؤسسة الانتاجية والخدمية.

وتعتمد القرارات الصحيحة على الدقة في تحليل المعطيات باستخدام تقنيات متطورة واساليب علمية حديثة في التحليل الجزئي والكمي والبحث عن حلول صائبة. وهذا ما تقدمه أنظمة المعلومات الالكترونية وتقنياتها، وبهذا تكون النتيجة زيادة في قدرة المشاريع الانتاجية على مواجهة التغيرات سواء الداخلية أو الخارجية. وكان لعملية التحول هذه أثارا كبيرة على المستوى التقني والإداري والتنظيمي داخل المشاريع. ومع كل هذا لا يزال هناك رفض للاستفادة من هذه الموارد التقنية، فهدف نظم المعلومات هو المساهمة في إدارة المؤسسات الانتاجية بصورة فاعلة ورشيدة بالإضافة الى ترشيد عملية اتخاذ القرارات داخل هذه المؤسسات وزيادة إمكانياتها وقدراتها في التعامل مع المعلومات ومعالجتها وتخزينها ونشرها وتنظيمها في ملفات قواعد البيانات والمعطيات الانتاجية. وكذلك زيادة فعالية الاتصال والتنسيق بين الوحدات التنظيمية في مؤسسات الدولة المختلفة هذا بالإضافة الى زيادة سرعة ودقة وسرية تبادل المعلومات بين تلك الوحدات.

ويهدف نظام الحكومة الالكترونية إلى:

١. التقليل من كلفة الإجراءات الإدارية وما يمت إليها من أعمال تتعلق بالمنشأة الاقتصادية.
٢. رفع كفاءة الأعمال الإدارية من خلال تعاملها المباشر مع المواطنين والمنشئات الاقتصادية.

٣. استيعاب عدد أكبر من العملاء في وقت واحد إذ أنّ قدرة الإدارة التقليدية بالنسبة إلى تخليص معاملات العملاء تبقى محدودة وتضطرّهم في كثير من الأحيان إلى الانتظار في صفوف طويلة.

٤. إلغاء نظام الأرشيف الورقي واستبداله بنظام الأرشفة الإلكترونية بسبب ما يتوخى من الدقة والسهولة في التعامل مع الوثائق الإدارية والإنتاجية من حيث تصحيح الأخطاء التي تحصل إثناء العمل، هذا علاوة على إرسالها لأكثر من جهة في وقت قصير وسهولة الرجوع إليها عند الحاجة والاستفادة منها في أي زمن.

٥. التقليل من البيروقراطية في العمل الإداري، وهذا سوف يساعد على تقسيم العمل وزيادة التخصص والاقتصاد في الوقت والجهد المبذول على العمليات الانتاجية والخدمية.

٦. الغاء عنصر المكان في العملية الانتاجية، وذلك لأن الادارة الالكترونية تساعد في انجاز معظم الأعمال المتعلقة بتعيين الموظفين والمستخدمين والعمال وارسال الأوامر الادارية والارشادات وتنظيم واقامة الندوات والمؤتمرات بمختلف أنواعها من خلال استخدام آخر التطورات العلمية في مجال شبكة "الفيديو كونفرنس".

٧. لا تؤثر على انجاز الأعمال الادارية الالكترونية فصول السنة المختلفة من صيف وشتاء وربيع وخريف أو التمتع بالإجازات والعطل والأعياد الرسمية وغير الرسمية.

٨. الغاء عامل الزمن الذي تلعب فيه فصول السنة دوراً مهماً وكذلك العطل والاجازات التي تحد من انجاز المعاملات الادارية. ولا يمكننا من إتمام جودة الأعمال الإلكترونية ما لم ننظر إلى البيئة الإلكترونية التي تحيط بنا.

ومن الدول العربية الرائدة في نظام الحكومة الالكترونية هي المملكة العربية السعودية (١٩٧٩) ودولة الامارات العربية المتحدة (٢٠٠٨) والاردن (٢٠٠٨).

المبحث الرابع: واقع الحكومة الالكترونية في العراق

وتأتي أهمية هذا المبحث في أنه إضافة علمية لقطاع الإدارة الحكومية في العراق، لتنمية وعي العاملين في المؤسسات الحكومية بالدور الذي تقوم به نظم المعلومات في هذه المؤسسات من نشاطات تشمل الجمع والتخزين والمعالجة والبث للمعلومات الالكترونية وكذلك الاتصال والتنسيق بين مختلف النشاطات في المؤسسات الانتاجية والخدمية، وكذلك دورها في دعم عملية اتخاذ القرار في هذه المؤسسات كما تأتي أهمية الموضوع من الاعتبارات التالية:

أ. عدم استغلال التقنيات والتجهيزات في المؤسسات الحكومية العراقية الاستغلال الأمثل المطلوب.

ب. جمود الهياكل التنظيمية وعدم مواكبتها للتغيرات والتقدم في مجال أنظمة المعلومات والاتصالات وتقنياتها العالية.

ج. تلاقي أنظمة المعلومات معارضة من قبل القادة الإداريين ذوي الخبرات السابقة لعدم تقبلهم لهذه التغييرات الجذرية نظرا لعدم وجود ثقافة معلوماتية لديهم.

د. تسارع التطورات في مجال أنظمة المعلومات الالكترونية على مستوى الاقتصاد الكلي والجزئي. وتعتبر ادارة المشاريع الانتاجية بواسطة استخدام مختلف الأعمال الالكترونية جوهر أي نشاط انتاجي عبر شبكة الانترنيت. فالتعامل مع المنتوج بصورة الكترونية في إطار ومحتوى إستراتيجية الأعمال الالكترونية يؤدي الى أن تصبح الكثير من القضايا التي تخص المنتج مختلفة. أذ أن التعامل بشراء وبيع التصانيف المختلفة من المنتجات عبر شبكة الانترنيت يؤثر على كثير من الأسس والمفاهيم الكلاسيكية في عالم ادارة المشاريع الانتاجية [١].

أولاً: مؤشر الخدمة عبر الانترنيت

بلغت قيمة هذا المؤشر في العراق ٠,٣١٩٤ وهذا ما يعني ان الخدمة عبر الانترنيت لم ترتقي إلى مستوى الطموح كونها لم تتجاوز مستوى المتوسط.

وتجّدر الإشارة إلى إن ثمانية عشر من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة ليس لديهم حضور عبر الانترنيت في العام ٢٠٠٣ والعراق أحد هذه الدول، حسب تقرير الحكومة الالكترونية لسنة ٢٠٠٣ في ص٤٠، ولذا يمكن اعتبار هذه النتيجة تحسناً جيداً ولكن في نفس الوقت لا تعتبر جيدة عند مقارنتها بالتقدم الكبير في العالم بخصوص تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

ثانياً: مؤشر البنية التحتية للاتصالات

بلغت قيمة هذا المؤشر في العراق ٠,١٨٤٠ وهذه قيمة منخفضة جداً حيث تقع في أدنى مستوى من المستويات المؤشر.

١. اشتراكات الهاتف الثابت لكل ١٠٠ ساكن.

لا يتجاوز اشتراكات الهاتف الثابت لكل ١٠٠ ساكن في العراق ٦ اشتراكات وبالتحديد ٥,٤٦ وهذه نسبة متواضعة جداً. ويعزى هذا الانخفاض إلى دخول الهاتف النقال الى العراق بعد ٢٠٠٣.

---

[١] انظر بحثنا: دور الأعمال الإلكترونية وتأثيرها في رفع فاعلية إدارة المشاريع الإنتاجية (مع التركيز على تجربة الأردن). الحوار المتمدن ٢٠١٣/٨/١١. وكذلك:

"The Influence of e-business development in productive project management, Case study: The Hashemite Kingdom of Jordan" Zarqa University, Faculty of Economics and administrative sciences, The Ninth International Conference, 24-24 April 2013 (17 pp.)

٢. اشتراكات الهاتف النقال – الخلوي لكل ١٠٠ ساكن.

بلغ عدد اشتراكات الهاتف النقال – الخلوي ٨١,١٩ لكل ١٠٠ ساكن، وهذا مؤشر جيد.

٣. النسبة المئوية لاستخدام الأفراد للأنترنيت.

للأسف لا يزال استخدام الانترنيت في العراق متواضعاً حيث لم تتجاوز ٢٢,٥ % وهذا ما يؤثر على مؤشر الحكومة الالكترونية بشكل كبير.

٤. اشتراكات النطاق الثابت(السلكي) لكل ١٠٠ ساكن.

كنتيجة لدخول الهاتف النقال انخفض الطلب على اشتراكات النطاق الثابت (السلكي) بحيث أصبحت لا تشكل سوى ٠,٠١ من كل ١٠٠ ساكن.

٥. اشتراكات النطاق العريض اللاسلكي لكل ١٠٠ ساكن.

بلغ عدد اشتراكات النطاق العريض اللاسلكي ١٦,٢٤ لكل ١٠٠ ساكن، وهذا عدد منخفض، ويمكن أن يعزى هذا الانخفاض لأسباب عديدة من بينها عدم تغذية جميع المناطق بشبكات الاشتراك أو انخفاض مستوى الدخول أو لعدم الرغبة بالاشتراك أو غيرها.

ثالثاً: مؤشر رأس المال البشري

هذا المؤشر أفضل من سابقيه كون قيمته شكلت ٠,٥٠٩٤ والتي تجاوز بها المستوى الأول والمستوى الثاني وهو الآن في بداية المستوى الثالث من مستويات المؤشر [١] .

أطلقت الحكومة العراقية بوابة إلكترونية لتوفير الخدمات للمواطنين عبر شبكة الإنترنت وتسمى رسميا بوابة أور الالكترونية للخدمات الحكومية. وفي بيان لمجلس الوزراء جاء فيه " أن بوابة أور ستتيح وصول المواطنين إلى الخدمات الإلكترونية التي تُقدمها الوزارات والجهات غير المرتبطة بوزارة، عبر النافذة الواحدة. وهي أحد العناصر الأساسية لمشروع الحكومة الإلكترونية**".** كما أن: البوابة تعمل ضمن بيئة مركز البيانات الوطني في الأمانة العامة لمجلس الوزراء، الذي تَشكّل حديثاً، ويُعدُّ التجربة الأولى من نوعها في العراق، الطامحة إلى بلوغ إدارة الكترونية شاملة.

وتوفر بوابة "أور" في الوقت الحالي ٦٣ خدمة متنوعة منها (التعليم، الصحة والبيئة، الكهرباء والماء والخدمات المحلية، المال والضرائب، العدل والقانون والتظلمات، الاعمال والعاملين لحسابهم الخاص، الولادات والوفيات والزواج، خدمات التقاعد، النقل والبنية التحتية، الجنسية والتأشيرات وجوازات السفر، العلوم وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات..) وغيرها. وعنون البوابة الإلكترونية للحكومة العراقية هو: https://ur.gov.iq . كما وخَصّصت دائرة مركز البيانات الوطني، رقم الهاتف (٥٥٩٩) لتقديم

[١] حامد عبد الحسين الجبوري، واقع الحكومة الالكترونية في العراق. ٢٠١٩/٣/١٧.

الخدمات الإرشادية إلى المواطنين، للاستعلام عن الخدمات المتاحة عبر البوابة الإلكترونية للحكومة العراقية على الإنترنت [١].

المبحث الخامس ـ دور البنك المركزي العراقي في تطوير وادارة الاقتصاد الوطني العراقي

يلعب الجهاز المصرفي العراقي دوراً مهماً في الحياة الاقتصادية باعتباره الأداة المنفذة للسياسة النقدية التي يخططها ويشرف على تنفيذها البنك المركزي العراقي والذي يشكل العجلة الأساسية في تمويل وإدارة عملية التنمية الاقتصادية وجذب الاستثمار العراقي والعربي والأجنبي. وبالرغم مما أشارت إليه الدراسات والتقارير الرسمية الصادرة عن المنظمات الدولية والبنك المركزي العراقي بأن القطاع المصرفي العراقي بسبب التحديات التي يواجها لم يساهم المساهمة المطلوبة في التنمية الاقتصادية خلال السنوات الماضية. كما أكدت جميع الدراسات والتقارير الصادرة عن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. أن ارتباك الرؤية وعدم التنسيق بين السياستين المالية والنقدية واختلاف السياسات الاقتصادية وعدم وضوح المنهج الاقتصادي للبناء الجديد للاقتصاد ساهم مساهمة واضحة في تشتت التطبيقات في السياسة النقدية واختلاف الرؤى والاستراتيجيات للوصول إلى الأهداف المركزية المحددة، إضافة إلى قصور في بعض مواد البيئة التشريعية للقوانين الاقتصادية التي تنظم العملية الاقتصادية، مما أدّى إلى اضطراب في التطبيق [٢]. وهذا الذي نلاحظه في العشرة سنوات الأخيرة وبالتحديد منذ العام ٢٠١٢ وخصوصا بعد استقالة الدكتور المرحوم سنان الشبيبي من إدارة البنك المركزي العراقي بسبب رفضه اقراض الحكومة العراقية خمس مليارات دولار أمريكي من احتياطي البنك المركزي ملتزما بقانون البنك المركزي الذي يحظر الإقراض الا في حالة الطوارئ القصوى بأنه في الفترة الزمنية الموضوعة البحث ضعف عمل البنك المركزي العراقي الذي من المفروض أن يكون كما تقول المقولة الاقتصادية بأن البنك المركزي هو بنك البنوك.

ومن مهام البنك المركزي العراقي:

١ـ رقابته على الجهاز النقدي والصيرفي في البلاد وأثره في ذلك.

٢ـ تحقيق الاستقرار والنمو الاقتصاديين.

٣ـ يقوم بعمليات الصيرفة المركزية تحت ظروف اقتصادية ومالية معينة.

٤ـ معالجة التضخم النقدي من خلال: ـ

أ ـ رفع سعر صرف الدينار العراقي.

---

[١] جريدة الأمة بتاريخ ٢٠٢١/٩/٥.

[٢] سمير النصيري. اتحاد المصارف العربية. البنك المركزي العراقي: سياسة نقدية تدعم التنمية الشاملة. الدراسات والأبحاث والتقارير. العدد ٤٣٥.

ب ـ رفع أسعار الفوائد التي يدفعها الى المصارف على ايداعها وكذلك تلك التي يتقاضاها على انكشاف ارصدة تلك المصارف لديه والتسهيلات والقروض التي يقدمها لها.

وكذلك لا توجد الرقابة الكافية من قبل البنك المركزي على:

- عمليات تحويل العملة الصعبة وتهريب الأموال الى خارج العراق التي تقوم بها شركات الاستيراد والتصدير والبنوك التابعة الى القطاع الخاص والأحزاب السياسية
- كبح جماح التضخم من خلال تثبيت نسبة تضخم لا تتجاوز سنويا ٢,٥٪ كما هو الحال في الدول المتقدمة مثل مملكة النرويج والتحكم في سعر الفائدة حتى تتلاءم وتحقق المرجو من الأهداف التي ترسمها وتحددها متطلبات خطط التنمية الاقتصادية والاصلاح الاقتصادي
- نافذة بيع العملات الصعبة في البنك المركزي العراقي.

ومن الضروري القيام بالتالي:

- اتخاذ قرار من قبل البنك المركزي العراقي بأن لا يزيد معدل التضخم في العراق عن ٢,٥ % سنويا
- تثبيت سعر صرف الدينار العراقي مقابل العملات الأجنبية وخصوصا الدولار الأمريكي
- تأسيس مديرية للتحويل الخارجي من أجل السيطرة على تهريب العملة الصعبة الى الخارج.

ومن الضروري أن نلقي نظرة على الخلفية التاريخية لمشكلة مزاد العملة، هذه المشكلة التي باتت تؤرق مضاجع العراقيين إذا صح التعبير والاقتصاد الوطني العراقي على حد سواء.

١. الخلفية التاريخية لمشكلة مزاد العملة

ولازال ملف الفساد في مزاد العملة يلقي بظلاله على المشهد الاقتصادي والسياسي ايضا لارتباط المصارف التي تستحوذ على المزاد، بجهات سياسية تمول من خلاله احزابها وتعود عليها بالربح المالي الوفير على حساب اقتصاد البلد طالما أن قانون البنك المركزي العراقي -الذي صدر اثناء وجود بول بريمر في دفة الحكم- رقم ٥٦ لسنة ٢٠٠٤ يسمح بالبيع للعملة الصعبة لكل من طلبها دون قيود وشروط. ويعد مزاد العملة شكلاً جديداً من أشكال الفساد الاقتصادي المرتبط بعملية غسيل الأموال في البلاد وخروج العملة الصعبة من العراق [١].

في تصريح لعضو اللجنة البرلمانية المعنية بمتابعة تنفيذ الموازنة عبد الهادي السعداوي في الثامن من شهر تموز العام ٢٠١٩ حيث قال بأن مزاد العملة خارج سيطرة البنك المركزي الذي يبيع من ١٥٠ الى ٢٠٠

[١] انظر مقالتنا: سناء عبد القادر مصطفى. مزاد العملة أحد أسباب انتفاضة تشرين. ٢٠١٩/١٢/٢٢. صحيفة الزمان العراقية. وكذلك موقع الحوار المتمدن بتاريخ ٢٠١٩/١١/٢٥ و ٢٠١٩/١٢/١٧.

مليون دولار يومياً. وأضاف السعداوي أن "هناك مشاكل ومخالفات سجلت على بيع العملة من قبل البنك المركزي وكذلك سعر صرف العملة الذي غالبا ما يكون متحركا وغير ثابت في اغلب الأحيان"، لافتا إلى ان "أي مرشح لمنصب المحافظ عليه الجلوس مع المالية النيابية لمناقشة هذين الأمرين"[١].

نشرت في العام ٢٠١٨ وثيقة تشير الى مخالفة صريحة وعملية فساد في مبيعات العملة الاجنبية للبنك المركزي العراقي في مزاد بيع العملة الأجنبية في العام ٢٠١٥ بموجب كتاب صادر من رئيس اللجنة المالية في مجلس النواب آنذاك أحمد الجلبي، يخاطب فيه رئيس المحكمة الاتحادية، داعيا القضاء الى اتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على احتياطات العراق من العملة الصعبة. وجاء في الكتاب ان جدول تحليل مبيعات العملة الاجنبية للبنك المركزي العراقي في مزاد بيع العملة الاجنبية ليوم ٢٠١٥/ ٥ / ٣١ والذي بلغ "٣٩٣,١٠٤,٣٣٢" دولار، يعد مخالفة صريحة للمادة "٥٠" من قانون الموازنة العامة الاتحادية للدولة في العام ٢٠١٥ والتي حددت مبيعات البنك المركزي العراقي بخمسة وسبعين مليون دولار يومياً في حين بلغت المبيعات لهذا اليوم حوالي خمسة اضعاف ونصف المبلغ الذي حدده القانون.

وبذلت اللجنة المالية التابعة لمجلس النواب جهوداً حثيثة في كشف تهريب مليارات الدولارات الى خارج البلاد عبر شركات مالية وهمية وصيارفة جدد استنزفوا هذه المليارات من خزينة الدولة ومن قوت الشعب. وتمكن في حينها أحمد الجلبي من جمع الكثير من الوثائق التي أعتمد عليها في كتابة تقرير قدمه الى رئاسة مجلس النواب ورئاسة الحكومة. وقد حّمل الجلبي في هذا التقرير مسؤولية تداعيات انهيار البنية المالية للبلاد الى المافيات التي تتحكم بسعر السوق وان أحد أسباب الانهيار الاقتصادي هو اهدار نحو ٣١٢ مليار دولار في المدة الزمنية ٢٠٠٦ – ٢٠١٤.

ويقول الخبير الاقتصادي عبد الرحمن المشهداني في تصريح لصحيفة بغداد بوست ان" ١٥٪ من مبيعات البنك المركزي عبر المزاد تذهب كغسيل اموال".. مبينا ان "اللجنة المالية والاقتصادية البرلمانية تحدثت عن ذلك وكل الاجهزة الحكومية لم تتمكن من ايقاف المزاد وظل مستمرا في استنزاف العملة الصعبة لارتباطه بشخصيات سياسية كبيرة". ويضيف المشهداني ان "معدل الاستيرادات الحقيقية للقطاع الخاص هو ٣٥ مليار دولار سنويا الا ان ما يقوم البنك ببيعه خلال السنة الواحدة عبر المزاد هو ٥٠ مليار دولار".. مشيرا الى ان "الفساد أصبح واضحا حتى لدى الاجهزة الرقابية الا ان قوة ونفوذ الاشخاص المتنفذين بمؤسسات المصارف هي أكبر من المحاسبة وهو مستمر في ذلك على الرغم من تقنينه في السنوات السابقة".[٢]

[١] نفس المصدر السابق. ص٨..

[٢] د. عبد الرحمن المشهداني. تصريح لصحيفة بغداد بوست. نفس المصدر السابق. وكذلك تصريح المشهداني لقناة الرشيد الفضائية بتاريخ ٢٠٢٣/١/٢١.

٢. خروج العملة الصعبة مقابل استيراد بضائع وهمية

في حين يقول الخبير الاقتصادي ضرغام محمد علي أن "المزاد الذي تم تأسيسه في العام ٢٠٠٤ انشئ بهدف عدم حصول احتكار للدولار من جهة ولشراء الدينار العراقي لتغطية الموازنة ومنع التضخم من جهة اخرى وكانت اداة لضبط سعر الصرف الا ان فرق القيمة بين البيع النقدي والحوالات شكل هامش ربح للمصارف المشتركة في المزاد وعدد محدود من الشركات ما ادى الى تهريب كميات كبيرة من الدولارات"[١]. واكد ان "المزاد أصبح ممرا للربح بدلا من الصيرفة الحقيقية ولخروج الدولار بأذونات استيراد لا تستورد شيئا ولايجري التدقيق حول السلع المشتراة مقابل هذه التحويلات مما شكل ممرا للفاسدين لاخراج اموالهم خارج البلاد بطريقة قانونية وعدم اعتماد الاعتمادات المستندية المتبعة في العالم لتغطية الصفقات التجارية وحيث لاتزال المصارف لحد الان وشركات الصيرفة تتقاسم مغانم المزاد من خلال تحويل العملة الى الخارج بدون حاجة استيرادية وبعناوين شتى ما ادى الى ضياع عشرات المليارات سنويا من العملة الاجنبية المهربة"[٢].

٣. تأسيس مصارف داخل العراق دون تدقيق في هوية مؤسسيها

ومن جانبه يقول الخبير الاقتصادي محمد الحسناوي ان هناك "مصارف وخاصة الاسلامية منها تم افتتاحها ومنحها رخص بدون اي تدقيق عن امكانياتها وقدرتها المالية".. كاشفا عن "وجود مصارف تم افتتاحها من قبل موظفين يعملون في البنك المركزي او مشاركين فيها". ويضيف الحسناوي ان "هذه المصارف لا تقوم باي عمل ائتماني وانما ينحصر عملها في مزاد العملة وتحويل العملة الصعبة الى خارج البلاد من خلال غسيل الاموال".. داعيا "البنك المركزي والجهات الرقابية الى التدقيق في كيفية حصول هذه المصارف على رخصة التأسيس".

ويقول النائب عن تيار الحكمة علي البديري، ان "الاموال التي هدرت في مزاد العملة طيلة السنوات السابقة تعادل موازنات دول وتكفي لتشغيل عدد كبير من المصانع المتوقفة وتقضي على النسبة الاكبر من البطالة في البلد"، مشيرا الى ان "هنالك بعض الاطراف مهيمنة على القرار وتملك سيطرة على بعض وسائل الاعلام تمنع تسليط الضوء على هذا الملف الخطير". ويضيف البديري أن "بعض المستفيدين من مزاد العملة هم موجودين في مصدر القرار، سواء كان القرار تشريعي ام تنفيذي"، مبينا ان "اي طرف او نائب يفتح موضوع مزاد العملة فانه يتم غلقه وبسرعة عجيبة غريبة". ويشير البديري إلى أن "العملة الصعبة تخرج الى خارج العراق في عمليات غسيل اموال وتهريب للعملة تحت عناوين مختلفة ووصولات وسندات

[١] ضرغام محمد علي، تصريح لقناة السومرية نيوز بتاريخ ٢٠١٩/١/٢٦.
[٢] نفس المصدر السابق.

غير صحيحة".. لافتا الى ان "هنالك تخطيط اقليمي وداخلي وتكتيم على ملفات الفساد في مزاد العملة والمافيات المسيطرة عليه". ويؤكد البديري، اننا "إذا تركنا جميع ملفات الفساد وركزنا على ملفي المنافذ الحدودية ومزاد العملة فإننا سنعيد مبالغ ضخمة جدا لخزينة البلد ونوفر وارد مهم جدا للموازنات المقبلة"[١].

٤. مزاد العملة ملف كبير للفساد

من جانبها تقول عضو لجنة الاقتصاد والاستثمار البرلمانية ندى شاكر جودت، ان "لجنة الاقتصاد والاستثمار البرلمانية ماضية في التحقيق بقضية مزاد العملة".. مبينة ان "لدينا تواصلاً مستمراً مع عدد من الجهات الخاصة في هذا المجال". وتضيف جودت ان "عملية هدر العملة وما يجري في مزاد العملة هو امر لم نسمع به او نراه في جميع بلدان العالم التي تتخذ كافة الاجراءات للحفاظ على عملتها الصعبة من الهدر وتعمل على تقنين الانفاق منها حتى في مجال الاستيراد الى مستويات معقولة".. لافتة الى ان "ما يجري بالعراق هو عبارة عن حالات استيراد وهمية وغيرها من الطرق التي تؤدي يوميا الى هدر ارقام كبيرة من العملة الصعبة دون سبب". وتشير شاكر الى ان "ملف مزاد العملة هو ملف كبير للفساد وقد عملنا على فتح تحقيق فيه، لكن التظاهرات والتركيز على القوانين التي تدعم مطالب الجماهير ومن بينها قانون الشراكة بين القطاعين العام والخاص جعلت اجراءات التحقيق تجري بروية".. موضحة ان "من بين المقترحات التي لدينا للحد من الهدر بمزاد العملة هو فرض ضريبة على الاموال الخارجة بنسب معينة بما يخلق ايرادات للدولة وتجعل الامور تجري بشكل صحيح". وتؤكد جودت، ان "هذا المقترح لاقى ترحيبا واسعا من قبل الهيئة العامة للضرائب وقد توصلنا الى صيغة شبه نهائية وهي بحاجة الى تنضيج بغية طرحها بشكل رسمي".. مشددة على المضي "في الاجراءات للحفاظ على العملة الصعبة من الهدر والفساد ولدينا تنسيق وتعاون مع الجانب الصيرفي والبنك المركزي وهيئة الضرائب بهذا الشأن" [٢].

اما الباحثة شذى خليل فتقول "ان مزاد بيع الدولار قانون شرعه وامر به الحاكم المدني للعراق سابقا بول برايمر في العام ٢٠٠٤ وهو المزاد الوحيد في منطقة الشرق الأوسط ويعد من أكبر التحديات التي تواجه الدولة العراقية اذ يشوّه السياسة العامة ويهدم الاقتصاد وقد استمر هذا المزاد بعمله حتى الآن واستغل من قبل أصحاب النفوذ والمسؤولين البارزين في العملية السياسية المرتبطين بإيران في تهريب أموال العراق وغسيل الأموال وتدويرها لصالح الاقتصاد الإيراني في تمويل الارهاب ومواجهة العقوبات الاميركية ولمصالحهم الخاصة. وتضيف انه بحسب تحقيق لجان مجلس النواب العراقي والتقارير الدولية فقد تم هدر ونهب مبلغ بحدود ٣١٢ مليار دولار على مر السنوات الماضية وهي عائدات للنفط ضخها البنك المركزي

---

[١] علي البديري، تصريح لقناة السومرية نيوز بتاريخ ٢٠,١٩/١/٢٦.

[٢] سناء عبد القادر مصطفى، الاقتصاد السياسي لمزاد العملة في العراق أحد أسباب انتفاضة تشرين السلمية، موقع الحوار المتمدن ، ١٧/١٢/٢٠١٩

العراقي إلى الاسواق وتم تحويل معظمها إلى الخارج.. موضحة ان هذا رقم يعد كبيرا جدا في دولة تعاني أزمة اقتصادية خانقة وصل الحال في دولة "الثروات" الاستدانة من صندوق النقد الدولي لتغطية نفقاتها!" [١].

يشار الى ان البنك المركزي العراقي يقوم ببيع الدولار الى المصارف الاهلية وشركات التحويل المالي عبر المزاد الذي يجريه يوميا وبمقدار ١٥٠ مليون دولار والتي ترتفع هذه الارقام او تنخفض حسب الطلب من قبل هذه المصارف مما يؤثر بشكل او بآخر على احتياطي البنك المركزي العراقي والذي تاثر بشكل ملحوظ بالآونة الاخيرة نتيجة عدم التكافؤ بين ما يحصل عليه من الدولار وما بين عملية البيع عبر المزاد.

ويذكر أن وتيرة الاتهامات تصاعدت بشأن عمليات تهريب العملة التي ألقت بظلالها على أسعار بيع الدولار في الأسواق المحلية وأدت إلى زيادة سعر صرفه قبل أشهر في حين طالب نواب بضرورة أن تبادر الحكومة إلى إيقاف عمليات بيع العملة في مزادات البنك المركزي، أكد آخرون أن العراق يخسر أموالاً طائلة جراء تهريبها يومياً إلى خارج الحدود.

المبحث السادس – الفساد في المنافذ الحدودية العراقية

يمتلك العراق ثلاثة أنواع من المنافذ الحدودية، وهي البرية والبحرية والجوية، إذ يؤكد الخبير في الشأن الاقتصادي "هيثم محمد" في حديثه لوكالة "يقين" على أن للعراق ٢٤ منفذا حدوديا بريا وبحريا مع الدول الست المجاورة له، وهي كل من السعودية والكويت والأردن وسوريا وتركيا وإيران، مشيرا إلى أن معظم هذه المنافذ مسيطر عليها من قبل الميليشيات المسلحة والمتنفذين من قادة الأحزاب السياسية في واحد من أخطر ملفات الفساد في البلاد، بحسبه.

ويعدد محمد المنافذ الحدودية العراقية، وهي كل من منفذ مطار بغداد الدولي ومطار النجف ومطار الناصرية والبصرة ومنفذ الشالجية والشيب وسفوان والزبير والخور، إضافة إلى منفذ ميناء المعقل وأم قصر الشمالي وأم قصر الجنوبي والشلامجة وزرباطية والمنذرية ومندلي وميناء أم فلوس وطريبيل وربيعة والقائم والوليد ومنفذ المنطقة الحرة (عويريج) [٢] . ويشير محمد إلى أن هذه المنافذ هي تلك التي تخضع لسلطة الحكومة الاتحادية يضاف لها منفذ مطار الموصل الدولي المتوقف عن العمل فضلا عن منافذ كردستان العراق. هذا وتخضع جميع المنافذ البرية والبحرية والجوية قانونا لهيئة المنافذ الحدودية وتتولى مسؤولية استحصال الجمارك فيها كل من هيئتي الضرائب والجمارك التابعتين للحكومة.

[١] نفس المصدر السابق.
[٢] هيثم محمد. وكالة يقين للأنباء. كيف تسيطر الميليشيات على المنافذ الحدودية. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

يقول أستاذ الاقتصاد في جامعة بغداد "وائل عبد الحسين" في حديثه لوكالة "يقين" إن المنافذ الحدودية في جميع بلدان العالم تعد منافذ سيادية تتحكم فيها الدولة بالكامل، ولا مجال لتدخل أي شركات استثمارية أو أحزاب في السيطرة عليها، إلا أن العراق ومنذ العام ٢٠٠٣ شهد انقلابا في الوضع الطبيعي الذي ينبغي أن تكون عليه المنافذ الحدودية بأنواعها من مسؤولية الحكومة حصرا. ويخسر العراق يخسر ما يقرب من ٨ مليارات دولار جراء الانفلات في السيطرة على المنافذ الحدودية، لافتا إلى أنه ومن خلال دراسة أعدها عبد الحسين مع مجموعة من طلابه، فإنها كشفت أنه وفي حال سيطرة العراق على منافذه الحدودية وإغلاق المنافذ غير الرسمية فيه، فإن واردات هذه المنافذ يمكن أن ترفد العراق بنحو ١٥ مليار دولار سنويا – كحد أدنى –، باستثناء واردات منافذ شمال البلاد- كردستان-، خاصة أن العراق يعتمد على الاستيراد في جميع مفاصله الاقتصادية [١] . ويختتم عبد الحسين حديثه بالتأكيد على أن عملية السيطرة على المنافذ تحتاج لإرادة حكومية قوية وقوات أمنية غير ملوثة بالفساد، وبغير ذلك فإن الوضع القائم سيستمر. ولا يكاد يوجد منفذ حدودي في العراق إلا وهناك توغل لميليشيات مسلحة أو حزب سياسي فيه، بهذه الكلمات يصف مصدر أمني رفيع المستوى في وزارة الداخلية الوضع في المنافذ الحدودية العراقية.

ويكشف المصدر لـ "وكالة يقين" أن المنافذ الحدودية التي تنشط فيها الميليشيات والأحزاب تقع غالبيتها في الجانب الشرقي من العراق كحدود مع الجمهورية الإيرانية، إضافة إلى المنافذ البحرية بأكملها ومنفذ حدودي آخر بمحافظة الأنبار. ويؤكد المصدر على أن الأحزاب تسيطر على المنافذ منذ أكثر من ١٦ سنة، إلا أن السيطرة الفعلية على المنافذ من قبل الميليشيات بدأت بالتسارع منذ العام ٢٠١٤. ولهذا فإن ملف المنافذ الحدودية العراقية يعد من أكبر أبواب الفساد في البلاد وأوسعها، وأن هناك سيطرة واضحة للمسلحين على المنافذ الحدودية من شمال العراق إلى جنوبه. وهناك منافذ تدخل البضائع منها دون تأشيرة جمركية ومن دون فحص لسيارات النقل فضلا عن عدم معرفة مسؤولي المنافذ بنوع المواد أو البضائع الداخلة للبلاد والتي تتخللها كميات كبيرة من المخدرات في كثير من الأحيان. وهذه كلها تسيطر على المنافذ البحرية والبرية الممتدة من خانقين في ديالى وحتى جنوب الحدود الإدارية لمحافظة البصرة جنوبا.

وتسيطر الميليشيات كذلك بشكل كبير على منفذ القائم الحدودي، ولديها منفذان آخران غير رسميان مع سوريا يتمثلان بما بات يعرف عراقيا بمنفذ (السكك البرية) مع سوريا، إضافة إلى منفذ (السنجك) الذي يمتد عبر المهر ويصل إلى منطقة الباغوز السورية. وبطرق ملتوية وشركات وهمية وأخرى مسجلة تستخدمها الفصائل المسلحة والأحزاب من أجل تيسير سيطرتها على الموانئ العراقية جنوب البلاد، يسيطرون على المنافذ البحرية وأرصفتها.

[١] وائل عبد الحسين. وكالة يقين للأنباء. كيف تسيطر الميليشيات على المنافذ الحدودية. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

ويضيف منتظر البدري في حديثه لوكالة "يقين" أن هذه السيطرة تتم من خلال تأسيسهم لشركات تجارية وأخرى مختصة بالاستيراد والتصدير كواجهة لها، إذ تحكم كل ميليشيا أو حزب سيطرتها على مجموعة من الأرصفة، كما أن لكل فصيل أو حزب تخصص معين في التهريب وإدخال الممنوعات أو البضائع غير المرخصة كالمنتجات الزراعية والسيارات وقطع غيارها فضلا عن التهرب الجمركي من خلال التلاعب بكميات البضائع المستوردة وأنواعها. ويضيف البدري بأن هيئتا الجمارك والضرائب وجهاز السيطرة والتقييس النوعي يشوبها الكثير من الفساد، إذ أن هذه الميليشيات والأحزاب أخضعت غالبية العاملين في هذه المؤسسات لسلطتها من خلال إغرائهم بالمال أو تهديدهم بالتصفية في حال لم يمتثلوا لطلباتها، بحسب قوله، وأن الذي يدخل خزينة الدولة من واردات المنافذ الحدودية هو ٢٠٪ أما ال ٨٠٪ من الواردات تسيطر عليها الأحزاب والفصائل التابعة لها في المعابر الحدودية. ولم تتمكن الحكومات المتعاقبة من منع عمليات تهريب السلاح والنفط والمخدرات وكذلك الاعتداء على موظفي منفذ زرباطية يشي بأن هذه الفصائل المسلحة لن تتوانى عن فعل أي شيء في سبيل الحفاظ على مصالحها في تلك المنافذ [١].

كما أشار حسن العبيدي إلى مشكلة أخرى تتعلق بالمنافذ الحدودية وتعد أكثر خطورة من السيطرة على المنافذ الرسمية، إذ يكشف العبيدي في حديثه لوكالة "يقين" عن أن هناك ما يقرب من ١٠ منافذ حدودية غير رسمية على طول الحدود العراقية الإيرانية، وأن ٤ منها تقع في المناطق الخاضعة لسيطرة حكومة كردستان، مشيرا إلى أن الخط الحيوي البري للفصائل المسلحة يمتد من محافظة ديالى وحتى محافظة ميسان جنوبا، فضلا عن منفذين غير رسميين خاضعين لسيطرة ميليشيا حزب الله على الحدود العراقية. ويرى العبيدي أن لا سبيل للسيطرة على المنافذ الحدودية العراقية إلا بتحجيم الفصائل المسلحة والحد من قدراتها في الداخل قبل الحدود، إذ ليس من المعقول أن تستمر هذه الفصائل في سيطرتها وفتحها لمنافذ حدودية جديدة في الوقت الذي تسعى فيه الحكومة لإحكام سيطرتها على الحدود [٢].

تشير الأرقام التي تصدر عن المسؤولين وبعض النواب إلى أن الفساد في المنافذ الحدودية يكلف العراق مليارات الدولارات سنويا، ويكشف الخبير الاقتصادي والأستاذ في الجامعة العراقية "عبد الرحمن المشهداني" في حديثه لوكالة "يقين" أن للعراق أكثر من ٢٢ منفذا حدوديا بريا وبحريا وجويا، إلا أن هذه المنافذ لا ترفد الدولة بإيرادات مالية كبيرة يمكن لها أن تغطي جزء لا بأس به من موازنة البلاد.

وبحسب المشهداني الذي تحدث لوكالة "يقين" فإنه وطيلة السنوات السابقة لم تتجاوز قيمة الإيرادات المالية من المنافذ الحدودية ربع الواردات المفترضة، كاشفا عن أنه وبعملية حسابية بسيطة، فإن الأموال المسروقة

---

[١] منتظر البدري. وكالة يقين للأنباء. كيف تسيطر الميليشيات على المنافذ الحدودية. ٢٠٢٠/٨/٢٥.
[٢] حسن العبيدي. وكالة يقين للأنباء. كيف تسيطر الميليشيات على المنافذ الحدودية. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

والمهدورة جراء انفلات أوضاع المنافذ الحدودية تقدر قيمتها بنحو ١٠٠ مليار دولار منذ العام ٢٠٠٣ [١].

أما النائب عن اللجنة المالية البرلمانية "أحمد الصفار" فأشار صراحة في حديثه لوكالة "يقين" إلى أن ما يدخل لخزينة الدولة من واردات المنافذ الحدودية لا يتعدى الـ ٢٠٪ في الوقت الذي تنتفع به الأحزاب والفصائل المسلحة المتنفذة في المعابر من تلك الأموال [٢].

كما أكد الصفار على أن المنافذ الحدودية تعد واحدة من أهم روافد الموازنة في حال سيطرة الدولة عليها، وأن أولى خطوات الإصلاح المالي في البلاد تكمن في السيطرة على هذه المنافذ وإغلاق غير الرسمية منها حسب قوله.

ونخلص من خلال ما تقدم آنفا اننا لم نستوفي جميع فرضيات البحث من حيث:

١. أن المؤسسات المالية والاقتصادية في العراق لم تحقق كافة **متطلبات الاصلاح الاقتصادي بما فيها ثبات سعر صرف** الدينار **العراقي** حتى تتحقق رفاهية المواطن العراقي وأنماء تغير سعر صرف الدينار العراقي مقابل الدولار الأمريكي من ١١٣٠ الى ١٥٠٠. ولا زالت مشكلة مزاد العملة تؤرق نوم العراقيين بشكل عام والاقتصاديين والسياسيين بشكل خاص.

٢. أن الخطط والبرامج الاقتصادية التي وضعت من قبل وزارة التخطيط العراقية لم تنفذ بالشكل المطلوب حتى تتحقق الاهداف التي وضعت هذه الخطط والبرامج الاقتصادية التنموية من أجلها ألا وهي رفع المستوى المعاشي للشعب العراقي. ولم نعرف نتائج الخطة الاقتصادية للسنوات ٢٠١٨-٢٠٢٢. وأنما حلت محلها الورقة البيضاء للإصلاح الاقتصادي ومشروع قانون الدعم الطارئ للأمن الغذائي والتنمية.

٣. لازال نظم المعلومات في المؤسسات والمشاريع الإنتاجية التي لها علاقة مباشرة بالاقتصاد الوطني ليست على مستوى جيد بحيث يخدم متطلبات الاصلاح الاقتصادي وكذلك لازالت البيروقراطية الإدارية والتداخل في المهام الإدارية بين الوحدات التنظيمية المختلفة تقف حجر عثرة أمام تقدم الاقتصاد العراقي.

الخاتمة.

النتائج والتوصيات.

نوصي باتخاذ الخطوات التالية من أجل انقاذ الاقتصاد الوطني العراقي حتى لا يقع في الهاوية:

[١] عبد الرحمن المشهداني. نفس المصدر السابق. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

[٢] أحمد الصفار. نفس المصدر السابق. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

١. انشاء صندوق سيادي لاستثمار عوائد ومداخيل بيع النفط العراقي مع تنمية وتطوير قطاعات الاقتصاد العراقي وخصوصا الصناعة والزراعة والبني التحتية بمساهمة القطاع العام والخاص والمختلط.
٢. اتخاذ قرار من قبل البنك المركزي العراقي بأن لا يزيد معدل التضخم في العراق عن ٢,٥ % سنويا
٣. تثبيت سعر صرف الدينار العراقي مقابل العملات الأجنبية وخصوصا الدولار الأمريكي
٤. سيطرة الدولة عما لا يقل عن ٥١٪ من أسهم المشاريع الاقتصادية التي يعتمد عليها تطور الاقتصاد الوطني العراقي.
٥. ادخال نظام الحكومة الالكترونية في جميع مجالات ادارة الاقتصاد الوطني.
٦. ادخال نظم المعلومات في المؤسسات والمشاريع الإنتاجية التي لها علاقة مباشرة بالاقتصاد الوطني والتي هي من الدعائم الأساسية المساهمة في حل معظم مشاكل النظام الاقتصادي من خلال اتخاذ القرارات الرشيدة والقضاء على البيروقراطية الإدارية وكذلك التداخل في المهام الإدارية بين الوحدات التنظيمية المختلفة.
٧. محاربة الفساد بجميع أنواعه المستشري في جميع دوائر الدولة وفي كافة المستويات وفي جميع قطاعات الاقتصاد الوطني العراقي والقضاء عليه، لأنه يشكل حجر عثرة أمام تقدم هذه القطاعات.
٨. السيطرة على جميع المنافذ الحدودية في العراق من قبل الهيئات المختصة سيطرة تامة وبدون ذلك لا يتمكن العراق من التقدم خطوة واحدة في طريق الاصلاح الاقتصادي والاداري.
٩. القضاء على ظاهرة تهريب رؤوس الاموال العراقية الى خارج العراق والتي تستثمر في البنوك العربية والاجنبية، إذ تعتبر هذه الخطوة من الخطوات المهمة في الاصلاح النقدي وثبات سعر صرف الدينار العراقي.
١٠. تفعيل عمل البنك المركزي العراقي ليكون بحق بنك البنوك وكذلك تفعيل عمل ديوان الرقابة المالية.
١١. تفعيل عمل الجهاز المركزي للأسعار التابع لوزارة التخطيط العراقية، حتى يأخذ دوره في مراقبة الأسعار في جميع قطاعات الاقتصاد العراقي
١٢. تفعيل عمل الجهاز المركزي للتقييس والسيطرة النوعية (COSQC) حتى يأخذ دوره في مراقبة نوعية وصلاحية المنتجات في القطاعين العام والخاص ، وهو وكالة تابعة للحكومة العراقية تعمل على تعزيز التقييس ومراقبة الجودة وينتمي إلى المنظمة الدولية للتوحيد القياسي .

مراجع كتابة البحث:

١. انظر اطروحتنا للدكتوراه باللغة الروسية الموسومة " Промышленность Растительных Масел Ирака и Экономичех Проблеми её Развия. (المشاكل الاقتصادية لتطوير صناعة الزيوت النباتية في العراق صفحات ١٤-١٥) -(معهد الاقتصاد التابع لأكاديمية العلوم الأوكرانية - الاتحاد السوفيتي، ١٩٨١).

٢. ملخص اطروحة الدكتوراه الذي ترجمته من اللغة الروسية الى اللغة العربية المنشور في شبكة الاقتصاديين العراقيين بتاريخ ٢٠١٩/٠٩/٠٨.

٣. Made for mind

٤. سوسن جبار عودة، الإصلاح الاقتصادي: المفهوم، السياسات، الأهداف، **فرع المنطقة الغربية بالهيئة العامة لتشجيع الاستثمار وشؤون الخصخصة**. ٢٠١٣/١١/٧

٥. العراق - المؤشرات الاقتصادية. National Statistics .World Bank .٢٠٢٢

٦. وزارة التخطيط العراقية، "تجربة الصندوق الاجتماعي"، ٢٠٢١

٧. attaqa.net

٨. www. Norges Bank. Investment Management.no. Oslo. 2022

٩. انظر بحثنا: تجربة مملكة النرويج في الاصلاح النقدي وتغيير سعر الصرف وإمكانية استفادة العراق منها. جامعة التنمية البشرية، مديرية ضمان الجودة. السليمانية -العراق. المؤتمر العلمي الدولي الحادي عشر يومي ١١-١٢ حزيران ٢٠٢٢.

١٠. attaqa.net

١١. المصدر: معهد صندوق الثروة السيادية :SWFI CNNبالعربية

١٢. مبادئ تسويق الخدمات، أدريان بالمر، ترجمة بهاء شاهين وآخرين، مجموعة النيل العربية، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٢٤٩

١٣. انظر بحثنا: دور الأعمال الإلكترونية وتأثيرها في رفع فاعلية إدارة المشاريع الإنتاجية (مع التركيز على تجربة الأردن). الحوار المتمدن ٢٠١٣/٨/١١. وكذلك:

١٤. "The Influence of e-business development in productive project management, Case study: The Hashemite Kingdom of Jordan" Zarqa University, Faculty of Economics and administrative sciences, The Ninth International Conference, 24-24 April 2013 (17 pp.)

١٥. حامد عبد الحسين الجبوري، واقع الحكومة الالكترونية في العراق. ٢٠١٩/٣/١٧.

١٦. جريدة الأمة بتاريخ ٢٠٢١/٩/٥.

١٧. سمير النصيري. اتحاد المصارف العربية. البنك المركزي العراقي: سياسة نقدية تدعم التنمية الشاملة. الدراسات والأبحاث والتقارير. العدد ٤٣٥.

١٨. هيثم محمد. وكالة يقين للأنباء. كيف تسيطر الميليشيات على المنافذ الحدودية. ٢٠٢٠/٨/٢٥

١٩. . وائل عبد الحسين. وكالة يقين للأنباء. كيف تسيطر الميليشيات على المنافذ الحدودية. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

٢٠. منتظر البدري. وكالة يقين للأنباء. كيف تسيطر الميليشيات على المنافذ الحدودية. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

٢١. حسن العبيدي. وكالة يقين للأنباء. كيف تسيطر الميليشيات على المنافذ الحدودية. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

٢٢. عبد الرحمن المشهداني. نفس المصدر السابق. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

٢٣. أحمد الصفار. نفس المصدر السابق. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

٢٤. المؤشرات الاقتصادية للعراق (Trading Economics 2022).

٢٥. منظمة اليونيسف العراق، البنك الدولي، مبادرة أكسفورد للفقر والتنمية البشرية ووزارة التخطيط في العراق، تموز/يوليو ٢٠٢٠.

٢٦. وزارة التخطيط العراقية، "تجربة الصندوق الاجتماعي"، ٢٠٢١.

٢٧. إحصائيات الجهاز المركزي للإحصاء في العراق في الفترة بين العامين ٢٠١٨ و٢٠١٩.

٢٨. سناء عبد القادر مصطفى، الاقتصاد السياسي لمزاد العملة في العراق أحد أسباب انتفاضة تشرين السلمية، موقع الحوار المتمدن، ٢٠١٩/١٢/١٧

٢٩. وائل عبد الحسين. وكالة يقين للأنباء. كيف تسيطر الميليشيات على المنافذ الحدودية. ٢٠٢٠/٨/٢٥.

٣٠. ضرغام محمد علي، تصريح لقناة السومرية نيوز بتاريخ ٢٠١٩/١/٢٦.

ثانيا: بحوث السياسية

جدل مفهوم العلمانية في الظروف المعاصرة

الدكتور أنمار نزار هاشم الدروبي
كلية القانون والسياسية ـ الاكاديمية العربية في الدنمارك
البريد الالكتروني: anmar.aldruby@hotmail.com

تاريخ التقديم للنشر: ٢٠٢٢/١٢/٠٧ تاريخ القبول للنشر:٢٠٢٣/٠٢/٠٦

الخلاصة.

بلاشك أن العلمانية كمذهب سياسي، قضية شغلت الفكر السياسي المعاصر وأثارت جدلا كبيرا بين الباحثين والمفكرين، حيث يرى بعض المفكرون أن العلمانية في حالة تراجع كبير في الوقت الراهن وتحديدا في العالم العربي. لقد تعرضت العلمانية ومازالت للعديد من الاتهامات على مستوى الفكر الإسلامي، هذه الاتهامات نابعة من العلاقة المعقدة أو الصراع التقليدي بين الدين والسياسة. الأمر من وجهة نظر التيار الإسلامي المتشدد تشكل العلمانية تحديات جسيمة أمام المنطقة العربية والدول الإسلامية، وهذه التحديات والمخاطر كما تراها الإسلاموية تتفاوت بين مخاطر سياسية وعقائدية وأخرى ثقافية واقتصادية، فهي ترتبط بمحاولات الغرب لعلمنة العالم بما يتناسب ومصالحها وغاياتها بحسب مفهوم الراديكالية الإسلامية. في السياق ذاته هناك اتجاه سياسي اجتماعي فكري في الغرب رفض هو الآخر العلمانية والتحديث، هذا الاتجاه تحديدا مقطوع من سياقات الراديكالية المسيحية المتطرفة في الغرب، أو قد يكون بسبب أخفاق النموذج الغربي في تقديم نموذج شامل ومتكامل للعلمانية. بالمقابل يرى آخرون أن أسهم العلمانية تشهد ارتفاعاً في حياة البشر، بالرغم من انحسار المذاهب السياسية الأخرى كالشيوعية والاشتراكية.

Secularism:

There is no doubt that secularism as a political doctrine is a historical movement with its objective motives. It emerged as a reaction to the Christian ideology that Europe passed out throughout the Middle Ages, and its emergence is mainly linked to the Christian religion and medieval and modern European history. Religious reform emerged through rebel movements (Protestants) against the Church, the Pope, and Catholic Christian ideology, which resulted in a religious division in Europe. Consequently, Europe entered into an armed clash between Protestant and Catholic monarchs in Switzerland, France, Germany, Austria, and

England. Although secularism emerged from the major conflicts, it produced political and legal mechanisms through which the modern state, the state of citizenship. Especially, the relative difference in secular experiences from one country to another confirms the flexibility with which secularism is characterized by the fact that it is not an accomplished idea or a ready-made characteristic as much as it is an institutional concept, and when interpreting it into a tangible reality, the historical circumstances of each country are taken into account.

In the same context, secularism has been promoted as implying a blasphemous concept against religion, specifically by extremist Islamic movements, as those movements dealt with secularism as an ideological trend. However, secularism does not discuss whether an individual is a believer or not, but it allows the faith and ideological horizons for people, and sets up for each person the space through which he can freely practice beliefs and rituals freely, so that the state, bodies or institutions do not interfere in the private belief of any person. Likewise, the state does not grant the citizen any privilege and does not deduct any right due to the beliefs, or because he belongs to any religion or not. Accordingly, the color, ideological and religious affiliation of a person must be independent of the rights as a citizen and his social status, and not result in any advantage or deficiency. Therefore, the state must protect the religious horizon of people. Although there is a big difference between the state as a broad concept and authority as a narrow concept, we notice in many experiments that the authority transcends the state's concept of religious horizon and obliges people to follow a certain pattern of religiosity. From this point of view, honest and correct secularism is what offers the religious horizon to the religious and does not offer the citizen any advantage and does not deduct due to the beliefs, as we mentioned previously. Perhaps there are those who believe that secularism is the unification of the standards based on rules that everyone fulfils, in which the politics, the economy, the banking system and the transportation system in the world are unified.

مقدمة.

لفهم العلمانية والوقوف على ما تعرضت له من اتهامات وتشويه، وإخراج مفهومها من سياقه الصحيح، يرى كاتب الدراسة أن تفكيك الخطاب العلماني ومآلاته وفهم العلمانية ومضامينها لابد من الرجوع إلى كتابات الفيلسوف الألماني (فريدرك نيتشه)، حيث كانت لفلسفة نيتشه وكتاباته تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث وصولا إلى أفكار وطروحات الفكر السياسي المعاصر. من هنا فإنه لا يمكن فهم إشكالات الفلسفة الغربية المعاصرة إلا بفهم محورية فلسفة نيتشة، تلك الفلسفة التي تحققت فيها اللحظة العلمانية تماما.

وبناء على ما تقدم فإن دراستنا عن العلمانية لا تهدف إلى تحليل الآراء المطروحة بصدد العلمانية كمذهب سياسي فحسب، وأنما وضع هذا المذهب في سياقه التاريخي والسعي لمعرفة ما تمثله العلمانية للواقع الاجتماعي والاقتصادي والديني والفكري وكيفية توظيف مفهومها عبر الواقع المعاصر، إذا ما اخذنا بنظر الاعتبار كم من الجرائم البشعة وعمليات الإبادة الجماعية ارتكبت عبر التاريخ الحديث والمعاصر بحق المدنيين في العالم بذريعة العلمانية والتحديث، والعلمانية براء منها. بيد أن هذا الالتباس المشار إليه أدى إلى أن تتجه كثير من الكتابات السياسية الصادرة من الغرب والشرق إلى الخلط بين ما ارتكب من تلك الجرائم وعمليات الإبادة بحق المدنيين في العالم وبين العلمانية.

أولا: أهمية البحث:

تحاول الدراسة اضافة عمقا معرفيا لمفهوم العلمانية وتطورها في الفكر السياسي من خلال البحث في الجدل الذي تثيره بعض الكتابات الإسلامية والغربية، سيما أن هذا الجدل الكبير في دراسة ظاهرة العلمانية ينطلق من التصور الاختزالي في قضية (فصل الدين عن الدولة). وبلا شك أن التنظير والفلسفة تعكس الظروف والأوضاع التي عاشها أصحاب الرأي والفكر والحياة السياسية التي عاصروها، ونحن بدورنا سنحاول أن نكون على درجة كبيرة من الحيادية في هذا الجدل.

ثانيا: أهداف البحث:

يسعى البحث إلى توضيح حقيقة مفهوم العلمانية والرد على آراء عدد من المفكرين الإسلاميين من منظري (الصحوة الإسلامية) وبعض الكتابات الغربية التي تناولت مفهوم العلمانية بشكل بعيد جدا عن محتواها الحقيقي، ويمكن أن نجمل الأهداف الرئيسية للبحث بما يلي:

١. إيضاح مفهوم العلمانية وكيف نشأ وتطور وكيف انتقل إلى عالمنا العربي، وتناولوا أسباب ظهور العلمانية، ولماذا يرى البعض أن العلمانية لا تتماشي مع الحضارة العربية.

٢.توضيح حقيقة مهمة مفادها: هل قامت العلمانية على الفصل القطعي بين الدين والحياة العامة للناس: لادين في السياسة ولا سياسة في الدين؟

٣. فرز وتصنيف الاتجاه الرافض للعلمانية أو تحول الدول العربية الإسلامية إلى دول علمانية، حيث تصور العلمانية على إنها الخطر الأكبر علي الإسلام والعالم الإسلامي وكأن العلمانية دعوة للتبشير، لاسيما أن جميع الدراسات الرافضة للتيار العلماني ترى أن العلمانية كفكر وكتيار جاء نتيجة المشكلات التي حدثت في الغرب وكنتيجة لممارسات الكنيسة في الدول الأوروبية، بالتالي فهي لا تتماشي مع مشكلات المجتمع الإسلامي أو تتماشي مع قيمه وتراثه بحسب رأيهم.

ثالثا: مشكلة البحث:

إن الإشكالية في مفهوم العلمانية جاءت نتيجة لتعريف العلمانية باعتبارها فصل الدين عن الدولة وهو أكثر التعريفات شيوعا للعلمانية في العالم، سواء في الغرب أو في الشرق، وهي تحصر عمليات العلمنة في المجال السياسي وربما الاقتصادي أيضا وفي بعض المجالات في رقعة الحياة العامة، ولهذا السبب يثير مفهوم العلمانية جدلا واسعا وتحديدا حول قضايا العلمانية والدولة المدنية والدين. في السياق ذاته فإن موقف الفكر السياسي العربي من العلمانية متضمن أساساً في الموقف من الغرب والتوجهات الفلسفية والسياسية الكبرى لعصر الأنوار الأوروبي، نظراً لارتباط مفهوم العلمانية بهذه الفلسفات التي فتحت السجال التاريخي الطويل بين الديني والدنيوي، وقوضت سلطة الاستبداد الديني، وأرست قيم الحداثة والتنوير وأسس الحرية الفردية ومركزية الإنسان في المجتمعات.

رابعا: منهج البحث:

نتيجةً لما ذكر في المقدمة وهو (ما تعرضت له العلمانية من اتهامات وتشويه) وكذلك فقرة إشكالية الدراسة وهو (مشكلة وجود علمانيتان، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة) في معالجة موضوع جدل مفهوم العلمانية في الفكر السياسي المعاصر بصفة حيادية، فقد ارتأينا استخدام مناهج علمية متداخلة بين المنهج التاريخي والمنهج التحليلي مع الاستعانة بالمنهج المقارن، بالإضافة إلى المنهج الوصفي، وذلك بهدف فهم العلمانية بصورة علمية منهجية وتصحيح بعض الأفكار الشائعة في المجتمع، تلك الظواهر التي تتهم العلمانية بالكفر والإلحاد، سيما أن هذه الاتهامات للعلمانية تسعى إلى تحقيق غايات وأفكار أيديولوجية لإثارة نوعاً من الخلط بين المفاهيم، وبالتالي كان لا بد من التمييز بين هذه المفاهيم والاتهامات.

خامسا: تقسيم البحث

تم تناول الموضوع من خلال مبحثين، **المبحث الأول**، يتناول الأسس الفكرية والاجتماعية للعلمانية، ويتكون من مطلبين، **الاول**، الجذور التاريخية للعلمانية، **والمطلب الثاني**، الأسس الفكرية والاجتماعية، **المبحث الثاني**، العلمانية والواقع، ويتكون من مطلبين، **الاول**، اشكاليات تطبيق العلمانية، فرع أول، مستلزمات تطبيق، فرع ثاني، نماذج تطبيق العلمانية، **المطلب الثاني**، نقد المفهوم.

الدراسات السابقة: من أهم الدراسات التي تناولت موضوع البحث هي:

١. كتابات الفيلسوف فريدريك نيتشة موضوع العلمانية ومن أهم دراستين بالرصد والتحليل هما:

أولا: نقيض المسيحية (١).

ثانيا: ما وراء المستقبل (٢).

انتقد نيتشة من خلال هاتين الدراستين المسيحية لأنها خاضت حروبا بلا هوادة ضد البشر، وأن المسيحية قد انحازت للفاشلين والوضيعيين، وادخلت الفساد في عقول الناس على حد تعبيره، وكان انتقاده هذا تحديدا لرجل الدين المسيحي (القس) الذي يراه الناس أنه يملك بيده كل المفاهيم الكبرى، لكن من وجهة نظر نيتشة أن القس يستغل هذه المفاهيم ويسخرها باحتقار لمحاربة العقل والعلم والرفاه، وطالما ظل القس، ذلك الذي يتخذ من نفي الحياة والافتراء على الحياة مهنة، يعتبر نوعا أرقى من البشرية، بالتالي فإن القس ساعد على تسميم الحياة وبحسب رأي نيتشة.

٢. دراسة الدكتور عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة (٣). وهي دراسة تحليلية جاءت لنقد العلمانية وتشويه صورتها.

٣. دراسة عادل ظاهر: الأسس الفلسفية للعلمانية (٤).

وهي دراسة تحليلية لتصحيح الفهم السائد للعلمانية في أوساطنا المثقفة وغير المثقفة، المؤمنين بالعلمانية والمناهضين لها، واعتبر الكاتب أن فهم العلمانية هو فهم سطحي جدا يقوم على تعريف العلمانية بالأغراض التي استهدفت تحقيقها الحركات العلمانية في الغرب.

---

(١) نيتشة، فريدرك، نقيض المسيحية، ترجمة، مصباح، علي، دار الجمل، بيروت، ٢٠١١

(٢) نيتشة، فريدرك، ما وراء المستقبل: تباشير فلسفة للمستقبل، ترجمة، حجار، جيزيلا فالور، مراجعة، وهبة، موسى، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٣

(٣) المسيري، عبد الوهاب، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الأول، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢

(٤) ضاهر، عادل، الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٨

٤. دراسة محمد علي البار: العلمانية جذورها وأصولها ([1]).

جاءت الدراسة لتؤكد أن العلمانية إنما ظهرت في أوروبا نتيجة لتعنت الكنيسة، وإن جوهر الإسلام علماني لأنه ضد الكهنوت.

٥. دراسة الدكتور محمد عمارة: العلمانية بين الغرب والإسلام ([2]).

جاءت دراسة الدكتور عمارة عن العلمانية الأوروبية، فهي بحسب رأيه غير التيار المادي الملحد، تيارا مؤمنا بالله، استطاع فلاسفته من أمثال (هوبز، جون لوك، روسو) التوفيق بين الإيمان بوجود الله خالق العالم وبين العلمانية التي ترى العالم مكتفيا بذاته.

تعقيب على الدراسات السابقة

بعد الاطلاع على بعض الدراسات والمراجع في موضوع العلمانية، يرى الباحث إن كثير منها تعاني من مشكلة عدم الحيادية، فقد كانت إما بمثابة مرافعات دفاعية عن العلمانية وتجميل وتبرير وتقديس لرموزها، وإما تهجم وتعرية للعلمانية ولكل ورموزها ومواقفها. وعليه سنحاول أن يكون هذا البحث إضافة جديدة في موضوع العلمانية وتفكيك هذا الجدل في الظروف المعاصرة، في الوقت نفسه الالتزام بأكبر قدر من الحيادية في ظل التقدم المتسارع الخطى لمنظمات التيارالسياسي الإسلامي في عدد من البلدان العربية والإقبال الشعبي لطرحها حول دور الدين في شؤون الحكم والمجتمع، في السياق ذاته سيحاول الباحث مناقشة الأطروحة التي تزعم إن مفهوم المذهب العلماني ينطوي على جوهر إلحادي، وتحديدا في المرحلة الأولى من تطبيق العلمانية في المجتمعات الأوروبية المعاصرة، تلك المرحلة التي اقتصرت على فصل الدين عن الحكم والشؤون السياسية.

المبحث الأول: الأسس الفكرية والاجتماعية للعلمانية.

قامت العلمانية في الغرب على قاعدة الصراع بين البابا والامبراطور، وبين الملك وروما، وبين الجمهورية والكنيسة، أي الصراع بين مؤسستين، بمعنى الفصل بين الكنيسة والدولة. في السياق ذاته فإن العلمانية في العالم الغربي ليست هي نفسها مسألة العلاقة بين المقدس والمدنس، لأن كلا من المجالين يدعي في الواقع الانتساب إلى المقدس ذاته. ثم أن إقامة الدولة الغربية واختفاء طابع القداسة عليها هما عنصران لا ينفصلان عن استعادة الدولة قالبا دينيا ترتكز عليه، ذلك لأن القانون قائم على الإرادة وهي، إرادة الله، والحاكم،

([1]) البار، محمد علي، العلمانية جذورها وأصولها، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٨
([2]) عمارة محمد، العلمانية بين الغرب والإسلام، دار الدعوة، الكويت، ١٩٩٦

والهيئة السياسية، وسواء كانت الإرادة خاصة أو عامة فهي مقدسة. ثم أن المعركة بين الدولة والكنيسة تشتد عندما يتقاسم الطرفان الإيمان ذاته، ولاسيما أنهما يستندان إلى الشرعية نفسها، وينتميان إلى البناء الاجتماعي ذاته. عليه" فإن العلمانية لا تنتمي إلى قيم مشتركة، ولكنها تندرج في قبول قواعد اللعبة، ما يعني أن الكنيسة ترفض أشكال الاعتراض العنيفة أو غير المشروعة على تشريع تعتبره غير مقبول، من جهة ثانية حتى إذا كانت العلمانية مقبولة سياسيا فإن عدد كبير من رجال الدين المسيحيين والاسرائيليين يلمحون إلى حدودها"(١).

الجدير بالذكر لا يوجد دين علماني بين الأديان التوحيدية المنزلة، ومن حيث المبدأ أن كل دين توحيدي يدعي أنه ينطق بالحقيقة، وفي اعتقاد كل مؤمن أن قانون الله يعلو على قانون البشر وليس أي أكثرية برلمانية أن تقرر ما هو الحق (٢).

وفقا لما تقدم، إن العلمانية هي الإطار النظري الذي سارت فيه جميع الحركات الفكرية التنويرية بعد القرون الوسطى، فلابد إذن من معرفة العلمانية التي انبثقت منها المراحل الحضارية الغربية، والتي تعبر عن رؤية شاملة للوقائع بعيدة عن الغيبيات والقيم المطلقة. وعندما قامت الحضارة الغربية بعزل الدين عن السياسة جعلت الدولة ومؤسساتها هي المسؤولة عن الحياة اليومية للفرد، وأصبحت الدولة هي التي تقوم بتشكيل رؤية شاملة لحياة الإنسان بعيدة عن الغيبيات. عليه فإن الجانب الفكري والفلسفي في الغرب يرتبط بالجانب السياسي ارتباطا وثيقا، الأمر الذي نجد أن الحضارة الغربية بعد عصر النهضة، قد ارتبط تطورها بأثر الدولة على الحياة الإنسانية، لاسيما هناك علاقة بين الدولة والعلمانية في جميع مراحل الحضارة الغربية (٣).

سيتضمن هذا المبحث مطلبين، **الاول**، الجذور التاريخية للعلمانية، **والمطلب الثاني**، الأسس الفكرية والاجتماعية

المطلب الأول: الجذور التاريخية للعلمانية.

إن البحث في تاريخ ظهور العلمانية يستدعي الخوض في مجالات قد تبدو مختلفة إلى حد ما، إذ يتداخل الحديث عن الجذر الاشتقاقي للكلمة وأصلها اللغوي مع تاريخ المفهوم ومن ثم الدلالات التي استخدم بداية للتعبير عنها، قبل الانتقال إلى الاستخدام الحالي للمصطلح ودلالاته النظرية التي تُحيل إلى ما استقر الفكر المعاصر على تسميته العلمانية. لاسيما أن كلمة علمانية هي ترجمة لكلمة (سكيوالريزم) التي لها نظائرها

(١) روا، أوليفيه، الإسلام والعلمانية، ترجمة، الأشمر، صالح، دار الساقي، لبنان، ٢٠١٦، ص٧٠
(٢) نفس المصدر السابق ص٦٩-٧٠ ولاحقا

(٣) الصريصري، كمال بن سالم، الأسس الفلسفية للعلمانية المعاصرة، مجلة مركز الخدمات للاستشارات البحثية واللغات، العدد٤٧، ٢٠١٣، ص٥

في اللغات الأوروبية، وهي مشتقة من اللغة اللاتينية، وتعني (العصر، أو الجيل، أو القرن) وإن الكلمة نفسها كانت تعني في لاتينية العصور الوسطى (العالم أو الدنيا) في مقابل الكنيسة. وهناك اتجاه يرى إن كلمة العلمانية تؤكد على البعد الزماني، في حين يرى آخرون أن كلمة العلمانية تؤكد على البعد المكاني (١).

وقد ورد في قاموس أكسفورد بعض التعريفات لمصطلح علماني أبرزها، أن العلماني ينتمي للحياة الدنيا وأمورها ويتميز بذلك عن حياة الكنيسة والدين. مدني وعادي وزمني. حيث ترادف كلمات مثل مدني وزمني وعلماني، أن الكلمة هنا تعني، غير كهنوتي وغير ديني وغير مقدس، والعلماني هو ما ينتمي إلى هذا العالم، الآني المرئي، تمييزا له عن العالم الأزلي والروحي. تجدر الإشارة إلى أن كلمة (العلمانية) قد شاعت في الإنكليزية منذ أواسط القرن التاسع عشر، وانتشرت على ُ أيدي من عرفوا وقتئذ بالمفكرين الأحرار، في محاولة النأي بكلمة العلماني عن شبهة الإلحاد والكفر التي حامت حوله، والسعي ليصبح مصطلح العلمانية ذو طابع مدني زمني لإبعاد هذه الشبهة. ثم اتسع استخدام اللفظ عندما استقل الإمبراطور عن بابا روما، وتجسد الانفصال بين ما هو روحي وما هو علماني في مؤسسات، فانتقلت بعض المسؤوليات من سلطة الكنيسة إلى السلطة السياسية. ويسمى هذا الانتقال بـالعلمانية (٢).

وفي فرنسا كان مفهوم العلمانية يدل على عملية إصلاح التعليم التي قادها الجمهوريون في سعيهم لتحويله من سلطة الكنائس إلى سلطة الدولة الجمهورية، وشاع أكثر مع بداية علمنة التعليم ونظام المدارس أواخر القرن التاسع عشر، ثم ازداد شيوعه بشكل أوسع مع بداية القرن العشرين، وتحديدا في أجواء الفصل بين الدولة والكنيسة الذي تم إعلانه رسميا عام ١٩٠٥(٣).

لقد ظلت الكنيسة منذ نشأتها وعبر قرون طويلة من حياتها في المجتمعات الأوروبية، دينا لا دولة. وعبر هذه القرون حكمت العلاقة بين الكنيسة والدولة، أي الدين والمجتمع (نظرية السيفين)، بمعنى السيف الروحي أو السلطة الدينية للكنيسة، والسيف الزمني أو السلطة المدنية للدولة. وعندما تجاوزت الكنيسة حدود رسالة الروح ومملكة السماء فاغتصبت السلطة الزمنية أيضا، وأضافت على الدنيا قداسة الدين، من هنا دخلت المجتمعات الأوروبية مرحلة الجمود وعصورها المظلمة، وسادت في تلك الحقبة نظرية (السيف الواحد) أي السلطة الجامعة بين الديني والمدني سواء تولاها البابوات، الأباطرة، أو الملوك الذين يباركهم البابوات، وقد عرف هذا النظام في التاريخ الأوروبي بنظرية الحق الإلهي للملوك. وفي مواجهة هذا النظام وواقع

(١) للمزيد راجع، المسيري، عبد الوهاب، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الأول، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٥٢ـ٥٣

(٢) للمزيد راجع، عزيزة، طارق، العلمانية، دار بيت المواطن، دمشق، ٢٠١٤، ص١٩ـ٢٠

(٣) للمزيد راجع، عبد السلام، رفيق، آراء جديدة في العلمانية والدين والديمقراطية، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، ٢٠١١، ص٢٢

الجمود والانحدار الحضاري الذي أدى إلى تراجع الدولة ومجتمعاتها وعلومها، جاءت (الثورة العلمانية) التي فجرتها فلسفة التنوير الأوروبي، تلك الثورة التي أقامت قطيعة معرفية مع فلسفة الحكم الكهنوتي، وأسست النزعة العلمانية الحديثة على التراث الأوروبي القديم وعلى عقلانية التنوير الأوروبي الحديث التي أحلت العقل والتجربة محل الدين واللاهوت.

بالتالي فقد أعادت الثورة العلمانية الأوروبية الكنيسة إلى حدودها الأولى، حيث عرفت العلمانية الأوروبية غير التيار المادي الملحد تيارا مؤمنا بالله، أستطاع فلاسفته من أمثال (هوبز، لوك، روسو، ليستنج) التوفيق بين الإيمان بوجود الله خالق العالم وبين العلمانية التي ترى العالم مكتفيا بذاته، حيث حصرت تدبير الاجتماع البشري في سلطة البشر المتحررة من شريعة الله، وكانت هذه الفلسفة مؤسسة على التصور الأرسطي في نطاق عمل الذات الإلهية، فالله في التصور الأرسطي واحد، مفارق للعالم وخالق له، لكن أودع في العالم والطبيعة الاسباب التي تدبرهما تدبيرا ذاتيا، دونما حاجة إلى تدخل إلهي، أو رعاية إلهية فيما بعد الخلق" فالحركة توجه في الشيء بذاته ولذاته، لا من حيث أن شيئا خارجيا هو الذي يحدث في هذه الحركة وعناية الله موقوفة على ذاته ولا تدخل له في الأحداث الجزئية في العالم والطبيعة"(١).

مع تحول الامبراطورية الرومانية الوثنية إلى الامبراطورية البيزنطية المسيحية، تمسك الاباطرة بإدماج الدين في القانون العام للدولة، وأجروا ذلك على مختلف وجوه الحياة. وأصبحت للعبادة متعلقات عقيدية حصرية تفضي بمن لا يأخذ بها (انتمائه إلى جماعة دينية مغايرة) إلى خارج الإطار القانوني العام وتقتضي عزله في خصوصية دينية مدنية مغلقة اجتماعيا وسياسيا، تطبق عليها أحكام خاصة. عليه غدا التسامح الديني شأنا مرهونا بالعلاقات الدولية وبالولاء للأكثرية في جو مشحون بالعداء والازدراء الديني، تعضده تمايزات اجتماعية وثقافية لفئة على أخرى بموجب تضحية الاباطرة بالقانون لحساب العقيدة والانتماء إليها، الأمر الذي عاد بالضرر على الاستقرار والسلم الأهليين (٢).

تجدر الإشارة إلى نقطة أساسية في تاريخ الفكر والفقه المسيحي، أن القانون الكنسي أخذ بالتطبيق المتجانس مع انتشار الربانيات الكبرى في الأرياف الأوروبية. أما المدن الأوروبية فقد بقيت محتفظة بحد كبير من الاستقلالية القانونية سمح لها فيما بعد بإنتاج الرأسمالية وفئة جديدة من القانونين صاغوا القوانين المدنية وأنتجوا الفكر العلماني بالتعاون مع قساوسة المدن الإيطالية الذين ارتبطوا بعلاقات أسرية مع أرستقراطية المدن. وفي عام ١٥١٦ هاجم الراهب (مارتن لوثر) الكنيسة على أنها تبيع صكوك الغفران للشعب، ثم فجر لوثر حركة الإصلاح البروتستانتية في ألمانيا بالتحالف مع بعض الأمراء الألمان عام ١٥١٧، تلك الحركة

(١) بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة: مادة أرسطو، دار الساقي، بيروت، ١٩٨٤، ص٦

(٢) لمزيد راجع، جورج، قرم، تعدد الأديان وأنظمة حكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة، دار الفارابي، ٢٠١١، ص١٣٩

التي كانت فاتحة عهد من الحروب الأوروبية غيرت نظامها الدولي، وثبتت دولا مركزية تخلصت من الاستبداد الملكي وسلطة الكنيسة التابعة لهذه النظم الاستبدادية. لقد حاربت البروتستانتية البدع بدون هوادة وعملت على قسر التجانس الايديولوجي والروحي والعبادي. من ثم كرست الإصلاحات البروتستانتية والكاثوليكية مبدأ التجانس المذهبي وتبعية الكنيسة للدولة (١).

إذن هكذا نشأت العلمانية في سياق التنوير الوضعي، والتي حصرت الدين في الكنيسة وفي الضمير الفردي، وهي ثورة تصحيح ديني، وليس عدوانا على الدين، وساعدها على ذلك أيضا التراث الروماني، ذلك التراث الذي جعل المنفعة غير المضبوطة بالدين وأخلاقياته وشريعته السماوية، هي المعيار، فكان الطريق إلى القانون الوضعي مفتوحا أمام العلمانية يزكيه هذا التراث (٢).

إن البحث في تاريخ ظهور العلمانية يستدعي الخوض في مجالات قد تبدو مختلفة إلى حد ما، إذ يتداخل الحديث عن الجذر الاشتقاقي للكلمة وأصلها اللغوي مع تاريخ المفهوم ومن ثم الدلالات التي استخدم بداية للتعبير عنها، قبل الانتقال إلى الاستخدام الحالي للمصطلح ودلالاته النظرية التي تُحيل إلى ما استقر الفكر المعاصر على تسميته العلمانية.

وعليه يمكن أن نجمل أهم العوامل والظروف التي مهدت إلى العلمانية وهي:

١. يعتمد كثير من المؤرخين معاهدة ويستفاليا، سنة ١٦٤٨، بوصفها بداية لمولد الظاهرة العلمانية في الغرب. ذلك ّ أن مصطلحات مثل (علماني أو علمانية) استخدمت لأول مرة في هذه المعاهدة. حيث أنهت معاهدة ويستفاليا ما عرف بحرب الثلاثين عاما في أوروبا، وقد أعلنت تلك المعاهدة عن بداية ظهور الدولة القومية الحديثة أي الدولة العلمانية إذ تمت الإشارة إلى علمنة ممتلكات الكنيسة، بمعنى نقلها إلى سلطات سياسية غير دينية أي إلى سلطة الدولة أو الدول التي لا تخضع لسلطة الكنيسة. ذلك لأن حرب الثلاثين عاما كانت حربا دينية بامتياز أتت في سياق الصراع الديني الطائفي بين الكنيسة الكاثوليكية وأتباعها، وبين معتنقي العقيدة الجديدة، البروتستانتية، التي ظهرت كنتيجة منطقية لحركة الإصلاح الديني على أيدي مارتن لوثر، الذي كان رائد العمل على إعادة تقييم النصوص الدينية، أو بالأدق تأويل النصوص الدينية، حاله حال كالفن، وغيرهما من القساوسة الإصلاحيين (٣).

---

(١) العظمة، عزيز، العلمانية من منظور مختلف: الدين والدنيا في منظار التاريخ، مجلة كتاب في جريدة، العدد ١٢١، ٢٠٨٨، ص٦ـ٧

(٢) للمزيد راجع، عمارة، محمد، العلمانية بين الغرب والإسلام، دار الدعوة، الكويت، ١٩٩٦، ص٦ـ٧ولاحقا

(٣) رسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة، الشنيطي، محمد فتحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، ص٥٤

٢. الثورة البروتستانتية، كانت ثورة سياسية إذ تضّمنت الامتناع عن دفع الأموال التي كانت الكنيسة تتقاضاها، والتحرر تدريجيا من تسلطها على الحكومات في مختلف البلدان الأوروبية. وقد ذهب لاحقا الفيلسوف الألماني هيغل إلى اعتبار الإصلاح اللوثري وظهور البروتستانتية أحد مفاتيح العصور الحديثة. إذن كان الخروج على سلطة روما والبابا هو المظهر الأهم في البروتستانتية، وتبلور فكرة (الكنائس القومية) أدى إلى تعزيز دور الكنائس المحلية، التي لم يكن لديها من القوة ما يكفي للتحكم بالسلطة (الزمنية العلمانية) على نحو ما كانت تقوم به البابوية. حيث انعكس ذلك انعكاسا كبيرا على التطور العلمي، على الرغم من محاولة رجال الدين في كبح جماح العلم، لكنهم كانوا عاجزين عن السيطرة على الدولة (١).

المطلب الثاني: الأسس الفكرية والاجتماعية للعلمانية.

نشأ مفهوم المواطنة وتبلور في أوروبا، وكان للثورة الفرنسية ولانتشار الحركات القومية الفضل الأكبر في تعزيزه والتأكيد عليه وخاصة مع صدور بيان حقوق الإنسان والمواطن عام ١٩٤٨. بادئ الأمر ثار جدل حول نشوء المفهوم، وتحديدا فيما يخص المشاعر القومية ومدى اقتران المواطنة بالانتماء القومي. من ثم تبلورت فكرة المواطنة باستقلالية وعناصر خاصة بها لتزيح باقي الانتماءات خلفها وتجعل الولاء للوطن والدولة بالدرجة الأولى. لاسيما أن صفة المواطنة التي تحققها الجنسية، الموروثة أو المكتسبة، تنتج رابطة حقوقية، قانونية وسياسية بين الفرد، المواطن والدولة التي ينتمي إليها، دون أن تلغي بالضرورة علاقته الشعورية أو روابطه الاجتماعية مع الإثنية أو الأمة أو الجماعة الدينية أو سواها من الانتماءات ما قبل الوطنية. من هنا فإن الدولة الحديثة، دولة المواطنة المتساوية وسيادة القانون، لا تتعامل مع الناس كجماعات أو مذاهب أو عشائر، بل كأفراد ومواطنين. وجوهر العلمانية عندما ظهرت في أوروبا بوصفها تأكيدا لفكرة تحييد الدين عن الدولة، أو تحييد دور الدولة الديني، بمعنى ألا يكون للدولة دور ديني وألا تدعم السلطة السياسية جماعة دينية على حساب أخرى، وهو ما يُعبر عنه اليوم (بالحيادية الدينية للدولة) وهذا ما يضمن تعاملها مع مواطنيها بالتساوي كأفراد من دون النظر إلى أصولهم الدينية أو القومية أو الاجتماعية (٢).

وفقا لما تقدم، أن الاختلاف الجوهري بين المجتمع الحداثي والمجتمع الديني يظهر جليا في آلية تنظيم المجتمع وفي علة تنظيمه، بالنسبة إلى المجتمع الديني تتدخل المبادئ العليا ومنطق التكليف والجبر الإلهيين، ولا بد من العودة دائما إلى مرجعية وسيطة تمثل سيادة عليا. ولا يمكن بأية حال رد المرجعية ونفيها أو تجاوزها كما لا يمكن تقويض تلك السيادة العليا. بخلاف ذلك في المجتمع الحداثي يتم الانتظام وفق قانون

(١) للمزيد راجع، وهبة، مراد، الأصولية والعلمانية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥، ص٤٩،٤٨
(٢) للمزيد راجع، غليون، برهان، الاختيار الديمقراطي في سوريا، دار بترا والفرات، ٢٠٠٣، ص١٢٦-١٢٧

وضعي يراعي الحياة الشخصية والمصلحة الخاصة والعامة ويستهدف التحرر من الضغوط العليا وكل مرجعية فيه، مهما كانت تظل بشرية قابلة للتجاوز والنقد والطعن (١).

في السياق ذاته، أن العلمانية تعني مبدأ الفصل بين المجتمع المدني والمجتمع الديني في الدولة. إذ الدولة لا تتدخل في الشؤون الدينية وهي تقف موقف الحياد تجاه الأديان ومؤسساتها، كما أنه ليس لرجال الدين أية سلطة سياسية ولا يرعون شؤون الدولة السياسية الاجتماعية والاقتصادية والإدارية (٢).

إذن العلمانية" هي وسيلة لتنظيم شؤون المجتمع، دنيوية وبراغماتية وعقلانية، تعرف الدولة بحيادها تجاه العقائد الدينية وغير الدينية، فتشكل أسس دولة المواطنة الحديثة أي الديمقراطية. وهي تعني تحرير الدولة من ارتباطاتها ومرجعياتها الدينية، وتحرير الدين من تدخل الدولة في شؤونه، دولة مواطنين متساوين بصرف النظر عن انتماءاتهم الثقافية والدينية، وبحيث يتحرر الدين من طموح الحاكمية من جهة، ومن تدخل الدولة في شؤونه من جهة أخرى" (٣).

إن الأسس الفكرية للعلمانية، مفهومة على أنها استقلال مجال الدين عن مجال السياسة، فهي منجز إنساني من منجزات الحداثة. أنها أفكار جاءت للمساواة بين البشر في الكرامة الإنسانية، حيث لا يمكن فصل هذه الأسس عن المعرفة العلمية، ولاعن اندماج العلم بالعمل، ولا عن الثقة بالعقل وقدرته على التوصل إلى الحقيقة أو على إنتاجها، ولا عن تفتح الفردية، بما هي حرية الفرد الإنساني واستقلاله، ولا عن أي من أسس وأساليب الحداثة الأخرى. عليه فإن الأسس الفكرية والاجتماعية للعلمانية قد شكلت أساس المجتمعات المدنية الحديثة والأمم والدول الحديثة. لكن في الوقت نفسه يجب التأكيد على ألا تفهم تلك الأفكار في تحييد الدور السياسي للدين بمعنى قصر العلمنة على المجال السياسي، فهذا خطأ شائع في مفهوم العلمنة، فالأسس الفكرية والاجتماعية للعلمنة هي في سيرورة عقلنة المجتمع على صعيد الثقافة والفكر والايديولوجيا. أي أن العلمنة تبدأ بالمؤسسات الثقافية والاجتماعية صعودا إلى المؤسسات السياسية. لذا فالعلمنة على صعيد السياسة فقط هي إما مناورة أو طائفية مضادة، إذ إن العلمنة الحقة الكلية هي إحدى تظاهرات مجتمع يتقدم وحديث بعد أن عانى من سلبيات الأيديولوجيات المختلفة على مر العقود (٤).

في المقابل هناك اتجاه يرى أن العلمانية لم تكن حصيلة سجالات نظرية وفكرية، ولا هي جاءت بقرار ناشئ عن رغبة أفراد أو مجموعات فكرية أو سياسية، بل إنها ظهرت بادئ الأمر كحل عملي فرضته أجواء

(١) للمزيد راجع، العبدولي، تهامي، أزمة المعرفة الدينية، الأكاديمية الثقافية العربية الآسيوية، دمشق، ٢٠٠٥، ص٤٢ـ٤٣ ولاحقا
(٢) للمزيد راجع، سيعفان، أحمد، قاموس المصطلحات السياسية والدستورية والدولية، مكتبة لبنان، ٢٠٠٤، ص٢٤٣
(٣) صدقي، بكر، علمانية وعلمانيون، مجلة المشكاة، العدد ١١، ٢٠١٠، ص٦٣
(٤) الحافظ، ياسين، الأعمال الكاملة لياسين الحافظ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥، ص١٠٧

الحروب الدينية التي تخللت القرنين السادس عشر والسابع عشر، ومزقت المجتمعات الأوروبية، فكانت العلمانية بذلك نوعا من تسويات تاريخية كبرى، سياسية واجتماعية، حيث اكتسب الحل العلماني صفة خاصة إجرائية وعملية قبل أن يكون رؤية فكرية أو نظرية سياسية محددة المعالم (١).

وهناك رأي آخر يعتقد أن العلمانية هي نزع الطابع السحري عن العالم، وهي انتصار عقلانية النجاعة والضبط العلمي على عقلانية الغايات الموجهة بالأهداف الدينية. أي أن العلمانية معنية بدور الإنسان في العالم، وبتأكيد استقلالية العقل الإنساني في سيرورة توظيف الإنسان للعقل في أي من المجالات التي يوظفه فيها. والأهم من كل هذا أنها معنية بجعل دور الإنسان في العالم مشتملا على اكتشافه باستقلال عن الدين، والغايات التي يجدر به تحقيقها، والوسائل الكفيلة بتحقيقها. كذلك العلمانية موقف من طبيعة المعرفة العلمية، أي المعرفة المطلوبة لتنظيم شؤوننا الدنيوية، وإبعاد الدين عن ميدان التنظيم السياسي للمجتمع والإبقاء على هذا الميدان بشريا بحتا، تتصارع فيه جماعات لا يمكن لواحدة منها أن تزعم أنها الناطقة بلسان السماء. فأساس المفاضلة بين المواقف المختلفة يجب أن يكون العقل والمنطق والمقدرة على الإتيان بالحلول الواقعية الناجحة، فأية دعوة إلى الارتكاز على سند سماوي في هذا الصراع إنما هو تضليل يخفي وراءه رغبة دفينة في إلغاء شروط هذا الصراع أصلا (٢).

من هنا فإن للعلمانية مفهومان وهما" مفهوم واسع جدا والآخر ضيق جدا، واسع لأنه يعني في تحليل أولي الأنظمة التي تحترم حرية الضمير، بمعنى أن تلك الأنظمة تفترض أن الدولة ليست ملكا لفئة من السكان، وإنما هي للجميع، للشعب من دون أدنى تمييز بين الأفراد تبعا لتوجهاتهم في الحياة. وهو ضيق، إذا كان التعبير نفسه يحيل إلى المعركة ضد الكهنوتية الدينية، أي سلطة رجال الدين (٣).

لقد شكل تطور العلوم الطبيعية والاقتصادية والفلسفية، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أحد الأسس الفكرية الهامة لتطور العلمانية حيث أدى تطور العلوم إلى ان تقوم العلمانية على أسس نظرية رصينة تدعم الأسس السياسية للعلمانية التي جرت الإشارة لها فيما سبق.

وفيما يخص الأسس الاجتماعية للعلمانية، نشير إلى ان تطور الدولة القومية شهد صراعا بين القوى الاجتماعية الجديدة التي ظهرت مع الثورة الصناعية وحركة التنوير الاوربي، المتمثلة بالطبقتين البرجوازية والطبقة العاملة والفئات الوسطى التي ازداد عددها وتوسع دورها الاجتماعي بفعل توسع الانتاج الصناعي وتطور التعليم ونمو مؤسسات الدولة الإدارية، والقوى الاجتماعية القديمة المتمثلة بطبقة الاقطاع وكبار

(١) للمزيد راجع، وهبة، مراد، الأصولية والعلمانية، مصدر سابق، ص٥٩
(٢) للمزيد راجع، عزيزة، طارق، العلمانية، مصدر سابق، ص٣٠ـ٣١
(٣) للمزيد راجع، هارشير، غي، العلمانية، ترجمة، الصباغ، رشى، دار المدى والمؤسسة العربية للتحديث الفكري، ٢٠٠٥، ص٦٧

التجار والعقاريين من ملاك الأرض والنخب المحافظة المدعومة من رجال الدين الذين أرادوا اضافة مهمة دينية للدولة بحيث" تعتبر السلطات الدينية للدولة وسيلة مقدسة لتحقيق رسالة الدين على الأرض" (١).

المبحث الثاني: العلمانية والواقع.

إن لاستقلالية الإنسان بعدين أساسيين يجب التمييز بينهما، من جهة، فهي استقلالية العقل الإنساني، ومن جهة ثانية، فهي استقلالية الإنسان باعتباره كائنا اخلاقيا. بيد أن علاقة الاستقلالية بالعلمانية هي، استقلالية العقل والمعايير العقلية في ضوء الاعتبارات المعرفية لها أولوية مطلقة في الشؤون المعرفية، حيث أن للعقل استقلالية كاملة عن كل ما يقع خارجه، فلا يمكن إخضاعه لرقابة دينية أو غير دينية، ولا يمكن لأي معايير مهما كان نوعها ومضمونها، أن تكون ذات أسبقية على معايير العقل (٢).

في الواقع أن العلمانية ليست بالشأن المرتبط ضرورة بالفاعلية العلمية، بل أن هذه الفاعلية قد تبقى منحصرة في الأمور التفصيلية للبحث دون أن تؤدي بالضرورة إلى نظرة عدائية تجاه الدين، بحيث لا يصار إلى تعميم الحقائق العلمية ومناهجها على مختلف مجالات عمل العقل في العقيدة، وأن يعتبر الدين مجالا منفصلا عن العلم. لا سيما هذا كان واضحا في تدين بعض علماء الطبيعة الأوروبيين على سبيل المثال لا الحصر (روبرت بويل) الذي كان معاديا بشدة للإلحاد والشك في أمور الدين، وكذلك (نيوتن) الذي اعتبر مدارات الكواكب وسرعاتها أمورا على انتظامها موضوعة من قبل الله ولا تخضع لمساءلة بشرية (٣).

في السياق ذاته، أن العلمانية في الواقع ليست مبارزة بين العلم والدين، فالعلم جملة معارف مضبوطة، والدين جملة تصورات قيمية لا تخضع للعمل، ولا يمكن إيجاد وضع من التناقض بينهما، ولو حاول الدين بادعائه امتلاك حقائق الكون تعطيل الفاعلية العلمية في وضع كانت فيه التصورات المبنية على الفاعلية العلمية آخذة في التوسع في مجالات تخرج عن نطاق العلم، وتنافس الدين في المرجعية التفسيرية، في الوقت نفسه كانت قادرة على الارتباط بمرجعية اجتماعية وسياسية، وفي النهاية أيديولوجية ثقافية، وعلى تهميش العقلية الدينية والدفع بها إلى مجال خاص من مجالات الحياة وهو العبادة. وما حصل ذلك إلا باجتماع الحداثة العلمية، واكتشاف العالم التاريخي بما هو مجال للتحول، واقتران ذلك مع اكتشاف أماكن التحول المجتمعي المنعكس في الديمقراطية السياسية (٤).

(١) بيتهام، ديفيد، وبولي، كيفن، مدخل إلى الديمقراطية، ترجمة، رمو، أحمد، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٧، ص١٤٥

(٢) للمزيد راجع، ضاهر، عادل، الأخلاق والعقل، دار الشروق، عمان، ١٩٩٠، ص٢٥٦ـ٢٥٧

(٣) للمزيد راجع، جبران، جبران خليل، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، الجزء٣ ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤، ص٤٣١ـ٤٣٢

(٤) العظمة، عزيز، الأصالة أو سياسة الهروب من الواقع، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٢، ص٤٧ـ٤٨ ولاحقا

على ما تقدم، فإن كل ما يشاع عن العلمانية من قبل غالبية رجال الدين في الهجوم عليها، غير صحيح، لأن الحقائق والواقع يثبت، أن المؤسسات الدينية تزدهر في الأنظمة العلمانية، وتُحمى المراكز الدينية من كل انواع الاعتداء بما فيه ازدراء الأديان او ازدراء مقدساته وطقوسه. وتعمل مؤسسات النظام العلماني على انشاء وتطوير المقدسات والمراقد الدينية، مساجد، كنائس وغيرها. كذلك تحمي وتحفظ الدولة حق المواطن في اختياراته لمعتقداته الدينية. بحيث تدافع الدولة عن حق المواطن في ممارسة شعائره الدينية وتضمن له الحرية في ذلك. ويبقى هذا مشروطا بعدم الاعتداء على الآخرين أو الإساءة إليهم وإلى اختياراتهم الدينية ([1]).

يتضمن هذا المبحث مطلبين، **الاول**، اشكاليات تطبيق العلمانية، فرع أول، مستلزمات تطبيق العلمانية، فرع ثاني، نماذج تطبيق العلمانية، **المطلب الثاني**، نقد المفهوم.

المطلب الأول: اشكاليات تطبيق العلمانية.

بلا شك أن مصطلح العلمانية مصطلح خلافي جدا، شأنه شأن مصطلحات أخرى مثل (التحديث، التنوير، العولمة) ولعل مصطلح العلمانية بالذات من أكثر المصطلحات إثارة للتفرقة، لكن الأمر أبعد من هذا الفهم المختزل للعلمانية، أي أن شيوع تعريف العلمانية باعتبارها (فصل الدين عن الدولة) كان ومازال السبب في الصراع المستمر بين المؤيدين والمناهضين للعلمانية، وهو ما سطح القضية تماما وقلص نطاقها، من هذا المنطلق" فإن الفهم السائد للعلمانية في أوساطنا المثقفة وغير المثقفة، المؤمنين بالعلمانية والمناهضين لها، هو فهم سطحي جدا يقوم على تعريف العلمانية بالأغراض التي استهدفت تحقيقها الحركات العلمانية في الغرب، حيث لا ينظر إلى العلمانية كونها موقفا من الإنسان والقيم والدين، ولا من منظور كونها موقفا ابستمولوجيا، أي موقفا من طبيعة المعرفة العلمية ومن طبيعة علاقتها بالمعرفة الدينية"([2]).

بالتالي فقد غدت ثنائية العلماني والإسلامي أكثر الثنائيات تداولا، بعد أن تشبث كل فريق بمسلماته، والتزم بنظرياته، مدعيا احتكار الحقيقة وحيازة المعرفة، حتى تكلست الرؤى وتحجرت المفاهيم لكل اتجاه. ولكن على الرغم من كل هذا فإن العلمانية تتحدث عن الإصلاح من خلال الطرق المادية، بيد أنه لا يعني هذا رفضا كاملا للإيمان، لاسيما أن بعض المفكرين أصبح لديهم المعنى الاساسي لفهم العلمانية يعني (فصل

([1]) للمزيد راجع، خفيف، علي عباس، نحن والدين: الشيوعية وحرية الأديان، وراقون للنشر والتوزيع، العراق، ٢٠١٥، ص٢٠
([2]) ضاهر، عادل، الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٨، ص٩

الدين عن الدولة). وهذه من أكثر الاسس الفكرية شيوعا للعلمانية في العالم سواء في الغرب أو في الشرق وهي عبارة تعني فصل المؤسسات الدينية (الكنيسة) عن المؤسسات السياسية (الدولة) (١).

من هنا فإن ما يميز العلمانية عن غيرها من المفردات هو" أن مدلولها أخذ بعدين فكريين، البعد الأول، مدلولها في المفهوم الغربي، أما البعد الثاني، فهو مدلولها في الفكر العربي المعاصر"(٢).

إن إحدى أكبر الاشكاليات في تطبيق العلمانية، هو ما تطرحه بعض الآراء التي اتهمت العلمانية على أنها خلقت حالة من ازدواجية المعايير نتيجة للمساحة الكبيرة التي احتلتها الحداثة في حياة الشعوب. لاسيما أن هذه المسألة قد شغلت الفكر السياسي المسيحي وتحديدا في مبدأ ازدواج السلطتين، وقضية ولاء الأفراد لهاتين السلطتين، سلطة الكنيسة، وسلطة الدولة المتمثلة بالإمبراطور، لكن المشكلة في الحقيقة ليست في ازدواج الولاء التي افترضته المسيحية كأحد المسلمات آنذاك، والذي نتج عنه الطبيعة المزدوجة للفرد، وأنما المشكلة في جوهرها تكمن في قضية تعارض الولاء، للكنسية أم للدولة؟ وبمعنى آخر أي من السلطتين يجب على الفرد ولمن يعطي ولاءه في حالة التعارض بينهما. الواقع أن على الفرد أن يتوجه بولائه لكل من السلطتين كل حسب مجالها واختصاصها. وعندما اكتسبت الكنيسة سلطة ضخمة وثراء ووصل بها الأمر إلى أن أصبحت دولة داخل دولة، أصبح للبابا رأس الكنيسة اليد الطولى في مواجهة الحكام (٣).

أما فيما يتعلق بالفكر السياسي العربي، فإن تطبيق العلمانية يتطلب قبلها نقد المنظومات المرجعية المهيمنة، بمعنى ينبغي التفكير في علاقات السياسي بالديني، علاقة المقدس بالتاريخ في أبعاده المختلفة، علاقة الإنسان بالطبيعة والمجتمع. من هنا تصبح العلمانية بمختلف انجازاتها والإشكالات والتحولات المتواصلة تعكس معناها الفكري التاريخي المناسب، حيث يمكن أن تتشكل التطورات، وتُبنى المعاني والدلالات القادرة على استيعاب ما جرى ويجري، والدفع في السياق المساعد على تطوير الفكر السياسي العربي.

وبناء على ما تقدم، لا يمكن التفكير في مفهوم العلمانية في الفكر السياسي العربي، خارج إطار التفكير في الإشكاليات النظرية والتاريخية المرتبطة بموضوع كيفية انغراس الحداثة السياسية في واقعنا وفي فكرنا العربي، ودمج الثقافات وبناء المرجعيات والأصول الجديدة من أجل بناء مجال سياسي، وإعادة بناء الفكر بالصورة التي تنشئ تصورات جديدة لكيفية استمرار تقاطع المقدس بالتاريخ. وفي هذا المستوى بالذات من

(١) للمزيد راجع، المسيري، عبد الوهاب، والعظمة، عزيز، العلمانية تحت المجهر، دار الفكر المعاصر، لبنان، ٢٠٠٠، ص٧ص٨ولاحقا
(٢) قدوح، إنعام أحمد، العلمانية في الإسلام، دار السيرة، لبنان، ١٩٩٥، ص٩
(٣) للمزيد راجع، سباين، جورج، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني، ترجمة، العروسي، حسن جلال، تقديم، الخطيب، محمد فتح الله، دار المعارف، القاهرة، ص٢٨٣

التفكير يجب استحضار مبدأ العقلانية، من ثم سنتخلص من المفاهيم الخاطئة والخطيرة، حتى يُبنى المفهوم السياسي التاريخي من خلال لغة يفهما الجميع ([1]).

ويعكس هذا الانسجام الفريد في الموقف الرافض للعلمانية، بين أتباع ديانات ومذاهب تتخاصم فيما بينها، آراء متطرفي التوحيديات الثلاث، الذين يعطون الانطباع بأنهم في حالة حرب فيما بينهم، إلا أنهم يتشاطرون القيم نفسها. فاليهودية والمسيحية والإسلام، تتقاسم المرجعيات النصية نفسها، والمرجعيات النبوية نفسها، وتصدر الثلاثة عن إرادة واحدة في التمايز عن الشرك وتعدد الآلهة بالانتماء إلى التوحيد. وأولئك الذين يتمنون تطبيق هذا الإرث من دون إعادة وضعه في سياقه الصحيح، لهم جميعا هدف واحد يعطونه الأولوية، هو إجبار الديمقراطي والعلماني على الانكفاء باسم قانون إلهي أسمى من قانون البشر ([2]).

تعقيب:

لعل مزاعم عدد من المفكرين المسلمين من منظري (الصحوة الإسلامية) أكدوا على أن الإسلام هو دين ودولة بعكس الأديان السماوية الأخرى، وقد أخذت هذه الفكرة تتكرر حتى على ألسنة من هم ليسوا ذو ارتباط بالحركات الإسلامية المعاصرة، أي أن فكرة الإسلام دين ودولة ترددت عند هؤلاء ليس بالمعنى الأيديولوجي ولا بالمعنى الفلسفي. وقد تبنى أصحاب هذا الاتجاه رفضا واضحا للعلمانية أو تحول الدول العربية الإسلامية إلى دول علمانية وكانوا يصورون العلمانية على إنها الخطر الأكبر علي الإسلام والعالم الإسلامي، وكأن العلمانية دعوة للتبشير، وأن أغلب الدراسات الإسلامية الرافضة للتيار العلماني أكدت على أن العلمانية كفكر وكتيار جاء نتيجة المشكلات التي حدثت في الغرب وكنتيجة لممارسات الكنيسة في الدول الأوروبية، بالتالي هي لا تتماشي مع مشكلات المجتمع الإسلامي أو تتماشي مع قيمه وتراثه. لاسيما أن حجتهم بذلك هو أن العلمانية قامت على الفصل القطعي بين الدين والحياة العامة للناس، لادين في السياسة ولا سياسة في الدين وبحسب رأيهم.

فرع أول: مستلزمات تطبيق العلمانية.

بلا شك أن مستلزمات تطبيق العلمانية في أي دولة، بما تنطوي عليه من خصائص العمومية، أي دولة عموم مواطنيها دون استثناء، لا دولة فئة بعينها منهم، دولة سيادة القانون والمساواة في تعاملها مع المواطنين، بصرف النظر عن معتقداتهم أو انتماءاتهم، وحيادتها تجاه عقائد الأفراد والجماعات، كل ذلك يجعل من

([1]) للمزيد راجع، عبد اللطيف، كمال، التفكير في العلمانية: إعادة بناء المجال السياسي في الفكر العربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦، ص١٤-١٥ ولاحقا

([2]) للمزيد راجع، فوريست، كالورين، وفياميتا فينر، العلمانية على محك الأصوليات، ترجمة، أبو عقل، غازي، دار بترا، ٢٠٠٦، ص٣٧٩

العلمانية أساسا لا تقوم الدولة الحديثة من دونه، لا مجرد صفة توصف بها لتمييزها عن دولة أخرى لا علمانية. وبالنظر إلى الدولة الحديثة بوصفها مجالا عاما، ودولة لجميع مواطنيها بالتساوي، عليه لا يستقيم أن تقوم على أساس خاص(كالدين) بل على العكس من ذلك، تتأسس على المبدأ العلماني المتمثل في حياد الدولة الإيجابي تجاه أديان سائر مواطنيها ومذاهبهم وعقائدهم.

من هنا " فإن شعار الدولة المدنية والدولة الدينية متناقض في ذاته. التناقض هو تناقض بين الموصوف، أي الدولة، وبين الصفة، دينية أو مدنية. إذ الدولة مجال عام، والدين، الإسلامي أو المسيحي أو اليهودي وما شئت، مجال خاص لجماعة بعينها. العام هو ما يحدد الخاص، لا العكس، وإن كل وصف هو تحديد وتعيين، الدين لا يحدد الدولة أو يعينها لأنه ليس من صفاتها ولا من طبيعتها"(١).

ولعل مستلزمات تطبيق العلمانية وأسباب ظهورها في السياق العربي يرتبط على سبيل المثال لا الحصر بمشكلة حقوق الأقليات الدينية المسيحية بصفة خاصة، ذلك أن هذه الأقليات عانت من الوضع الذي كان قائما خلال الحكم العثماني، حيث كانت تشعر بأن الدولة العربية الواحدة التي تنادي بها القومية العربية ستكون الأغلبية الساحقة فيها من المسلمين. ولهذا " فإن الدلالة الحقيقية لشعار العلمانية مرتبط عضويا بمشكلة الأقليات وحقها ألا تكون محكومة بدين الأغلبية، وبالتالي فالعلمانية على هذا الاعتبار كانت تعني بناء الدولة على أساس ديمقراطي عقلاني وليس على أساس الهيمنة الدينية"(٢).

في السياق ذاته، أن العلمانية إذ تعمل على تحرير الدولة والمجال السياسي من سلطة رجال الدين أو تدخلهم، فإنها في الوقت عينه تحرر الدين من هيمنة السلطة السياسية عليه وعبثها به، فلا تعود هناك إمكانية أن يستخدم الدين أداة بيد الدولة (السلطة السياسية) كما يحصل في غالبية نظم الحكم الاستبدادية، التي تجد في الدين إحدى وسائل الضبط الاجتماعي وهو ما يتعذر في ظل العلمنة، بما تقتضيه في جانب من مستلزمات تطبيقها، من فصل بين المجال السياسي والمجال الديني (٣).

وعليه وما دامت الدولة تقوم على الحياد العقائدي، دينيا ودنيويا، لا يجدر بها أن تتخذ أية أيديولوجية بصفتها هوية أيديولوجية للدولة. فالدولة في النظام العلماني تبقى قطاعا حياديا مستقلا فكريا وسياسيا عن الحزب الموجود في السلطة، فتبقى دولة كل المجتمع، لا أداة بيد حزب السلطة، بما يرتبه ذلك من نتائج خطيرة

(١) الجباعي، جاد الكريم، العلمانية من منظور الدولة الوطنية، مركز آفاق، https://aafaqcenter.com ١٨_١_٢٠١٢
(٢) الجابري، محمد عابد، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٦، ص١٢٣

(٣) للمزيد راجع، تورين، آلان، ما الديمقراطية، ترجمة، كاسوحة، عبود، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٠، ص٢٩٤ـ٢٩٥

ومدمرة، إذ ستسوغ الدولة لنفسها أيديولوجيا الحزب الممسك بالسلطة، من ثم تتدخل في حياة المواطنين وخياراتهم الفردية ([1]).

فرع ثاني: نماذج تطبيق العلمانية.

فرنسا:

نص الدستور الفرنسي في عام ١٩٤٦، كما في عام ١٩٥٨ أن فرنسا (جمهورية علمانية). لاسيما أن هذا الاستخدام المتعمد للفظ العلمانية في نص دستوري صريح، ليؤكد على علمانية الدولة في فرنسا، ويعكس بشكل ملحوظ الظروف التاريخية للتجربة الفرنسية، منذ ثورة ١٧٨٩ وما بعدها، ذلك لأن الصراع كان على أشده بين الجمهوريين بما يحملونه من قيم الحداثة وحقوق الإنسان، وبين الكنيسة الكاثوليكية القوية، المتحالفة مع الملكية، وارتباط سلطة الدين، الكنيسة بالملكية وطبقة النبلاء التي أسقطتها الثورة. عليه فقد بُنيت الجمهورية الفرنسية على العلاقة بين المواطن والدولة. فالدولة وفق النموذج الفرنسي تشغل المجال العام بالكامل، ويرتبط بها المواطنون بوصفهم أعضاء فيها، حيث عملت العلمانية الفرنسية على إخلاء المجال العام من سيطرة الدين، غير أنها سعت إلى ملئه بالقيم الثقافية (الزمنية) وقد استخدمت الدولة الفرنسية المؤسسات التعليمية على وجه العموم كأهم أذرعها في إشاعة ما تريد تطبيقه من تصورات علمانية. في الوقت نفسه حرصت على إصلاح التعليم أواخر القرن التاسع عشر من خلال إحلال ما أسمته بالتكوين الأخلاقي المدني وبناء نظام تعليمي بعيدا عن الدين ([2]).

تركيا:

توصف العلمانية في تركيا بأنها تحاكي النموذج الفرنسي، ولعلها تزيد عليه، إذ تكاد العلمانية أن تتحول إلى عقيدة للدولة. وقد جاء هذا في سياق الظروف التاريخية لنشأة الدولة التركية المعاصرة، نتيجة تصفية (كمال أتاتورك) للإرث العثماني، وسعيه لبناء تركيا على أسس أوروبية حديثة تقطع مع الإرث الإسلامي للسلطنة العثمانية ودولة الخلافة. وقد طالت القطيعة حتى أمورا مظهرية، على سبيل المثال لا الحصر منع ارتداء (الطربوش). عليه فقد اختلف الإصلاحيون المسلمون من رجالات النهضة العرب في موقفهم من أتاتورك ومشروع العلمنة. لكن في النهاية لم تمنع العلمانية في تركيا من وصول حزب (العدالة والتنمية)

([1]) للمزيد راجع، عزيزة، طارق، العلمانية، مصدر سابق، ص٦٤

([2]) للمزيد راجع، عبد السلام، رفيق، آراء جديدة في العلمانية والدين والديمقراطية، مصدر سابق، ص٢٢٨ص٢٢٩

ذي التوجهات الإسلامية، إلى السلطة، في انتخابات ديمقراطية، في الوقت نفسه لم تستطيع أفكار الحزب الإسلامية من إلغاء الطابع العلماني للدولة.

الهند:

تعد الهند نموذجا فريدا في تجربتها الديمقراطية والعلمانية. إذ يوجد في الهند تنوع كبير من المعتقدات والممارسات الدينية، وفي اللغات أيضا، إذ تنتشر إلى جانب اللغة الهندية، الأكثر استخداما، ما لا يقل من عشر لغات متداولة على نطاق واسع، لنحو ثلاثة عشر مليون مواطن. وتضم الهند مجتمعات كبيرة تكاد تشمل كل الديانات في العالم، من ضمنها الهندوسية والبوذية والسيخ والمسيحية والإسلام .وفي وقت تتناقض فيه الشريعة الإسلامية وحركات الإسلام السياسي مع القيم الديمقراطية، العلمانية، فإن أحد أكبر المجتمعات الإسلامية في العالم يعيش التجربة الديمقراطية في الهند. فقد بلغ عدد الأقلية المسلمة في الهند حوالي ١٦١ مليون نسمة، عام ٢٠٠٩، وهو يمثل ثالث أكبر مجتمع إسلامي في العالم بعد إندونيسيا والباكستان، بيد لا تزيد نسبة المسلمين في الهند عن ١٥ % من السكان، وهذا لم يمنع وصول المسلم (أبو بكر زين الدين عابدين) إلى رئاسة الهند عام ٢٠٠٢. كما أن نسبة السيخ لا تتجاوز ٣ %من سكان الهند، إلا أن ذلك لم يمنع من تولي سيخي منصب رئاسة الحكومة وهو (مانموهان سينغ) تولى رئاسة وزراء الهند عام ٢٠٠٤. لقد اعترفت الدولة في الهند منذ استقلالها عام ١٩٤٧، بكل المجتمعات الدينية واحترمتها. وبإمكان كل المجتمعات الدينية أن تفتح مدارس ومنظمات ومؤسسات خيرية وتحصل على الدعم المالي والحكومي، وحتى عندما ترأس حزب (بهارتيا جاناتا) الهندوسي الحكومة، وبوصفه بأنه حزب متشدد حيال باقي المكونات الهندية ومنها المسلمون، لم تتوقف الحكومة عن دفع إعانات مالية كبيرة لمساعدة المواطنين المسلمين الراغبين بأداء فريضة الحج إلى مكة. كما أن في الهند خمس عطل للدين الهندوسي وهو دين غالبية السكان، في مقابل عشر عطل لأديان الأقليات، منها خمسة للإسلام، وهي أيام عطلة عامة إلزامية مدفوعة الأجر (١).

المطلب الثاني، نقد المفهوم.

كانت السياسة البريطانية الاستعمارية في الهند تستخدم العلمانية كمنهج استعماري لا كنتاج لمنطق مدني، وبالرغم من أن السياسة البريطانية كانت رسميا تقوم على الحياد الديني، كان هناك أنواع من التدخلات في الشؤون الدينية التي أسفرت عن تفسير ملتبس لهذه السياسة، على سبيل المثال لا الحصر، وضعت السلطة الاستعمارية قوانين أحوال شخصية منفصلة لكل الطوائف الهندية التي تم تعريفها بصورة رئيسية على

(١) للمزيد راجع، عزيزة، طارق، العلمانية، مصدر سابق، ص٦٧ص٦٨ ولاحقا

أساس الدين، مما أدى إلى تفكيك القيم الاجتماعية وإعاقة تطورها، في السياق ذاته، كانت العلمانية البريطانية في استعمارها للهند قد جمدت بعض عناصر مكانة المرأة وتحديدا في سياق العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وهو ما كان أثره الحد من حقوق المرأة أو تقييدها. بالتالي كانت العلمانية البريطانية الاستعمارية في الهند أن تؤسس لنظم اخلاقية ودينية اجتماعية شاملة لكي تناسب تصوراتهم وتتفق وأفكارهم الأوروبية المسبقة حول ما يجب أن يكون عليه القانون الإسلامي أو الهندوسي. بيد أن علمانية الدولة كما شكلتها الإدارة الاستعمارية البريطانية، فشلت في الاستناد إلى تقاليد هندوسية أو إسلامية بعينها في مجال الحكم، كما فشلت في التقدير الصحيح للتقاليد الهندوسية التوفيقية التي تقوم على الممارسات الثقافية المشتركة بين طوائف الهندوس والمسلمين، والتي كان لها أن تقدم تصورات وأفكار محلية تدعم مبدأ علمانية الدولة.

وبناء على ما تقدم، فإن السياسة البريطانية التي أدخلت بمقتضاها مبدأ علمانية الدولة الاستعمارية لم تنضوي على قيم ديمقراطية أو قيم المشاركة ولم تحترم أهمية العقل العام الهندي (١).

هناك اتجاه آخر نقد مفهوم العلمانية وتحديدا علمانية القرن الثامن عشر، والتي أطلق عليها بالعلمانية (الملحدة) لاسيما كان الانتقاد للعلمانية في ضوء معطيات الصراع السياسي العالمي، وتطور الفلسفة السياسية داخل الفكر السياسي الغربي، والنظر في توسيع دلالات المفهوم، في ضوء الاستفادة من دروس وتجارب الحاضر النظرية والتاريخية، وذلك بناء تصورات تتجه للتخلص من (صنمية المفهوم) بحسب وصفهم لتحوله إلى اداة للفهم النظري التاريخي، القابل للتوظيف في دائرة الصراع السياسي والأيديولوجي. فإذا كان مفهوم العلمانية في أصوله الأولى، قد ظهر في سياق نظري وتاريخي مخالف لتاريخ الإسلام مثلا، وإذا كان بين الإسلام ومصدر المفهوم، تاريخ الغرب الحديث والمعاصر، صراع تاريخي بحكم جملة من الأسباب والعوامل الموضوعية والتاريخية، فإن الأمر يقتضي التمييز بين المواقف. كذلك هناك رأي ثالث يعتقد في إمكانية التخلي عن المفهوم دون التخلي عن محتواه، وذلك لا يمكن تصور ديمقراطية بدون الاعتراف بالاختلاف والتعدد، ولا يمكن تصورها دون تسامح وحرية، بالتالي يمكن استيعاب روح العلمانية بحسب رأيهم (٢).

ثم يرى نقاد العلمانية وتحديدا الاتجاه الإسلامي، إن الخطاب العلماني الرائج جوهره مسيحي أو مسيحي أوروبي، ناشئ عن عقيدة مآلها إعطاء قيصر ما لقيصر، وما لله لله. لاسيما أن العلمانية بهذا المعنى مرفوضة عند معارضيها لأنها مسيحية. ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه، إن العلمانية غطاء لدعوة مستترة تستهدف أبعاد الإسلام عن الحياة، أو أن أصحاب الدعوة العلمانية كانوا مسيحيين لا ينتسبون إلى الإسلام دينا ولا حضارة،

(١) للمزيد راجع، النعيم، عبد الله أحمد، الإسلام وعلمانية الدولة، دار ميريت، القاهرة، ٢٠١٠، ص٢٠٥ـ٢٠٦

(٢) للمزيد راجع، عبد اللطيف، كمال، التفكير في العلمانية: إعادة بناء المجال السياسي في الفكر العربي، مصدر سابق، ص١١٤ـ١١٥ ولاحقا

وإنما تربوا في المدارس الأجنبية، وأن هؤلاء أطلقوا دعوتهم في القرن التاسع عشر على القومية العربية الراغبة في الانفصال عن الرابطة العثمانية التي قامت على الإسلام ([١]).

ثم هناك مسألة أخرى طرحها بعض المفكرين الإسلاميين في نقد العلمانية وللعناصر المكونة لمفهومها وهي، انعدام الإيمان الديني للعلمانية، وإن الإسلام وحده دين ودولة بحسب رأيهم، وهذا التوصيف للعلمانية كان مشتركا بين كبار مفكري الحركات الإسلامية حيث يقول يوسف القرضاوي" إن العلمانية مروق من الدين"([٢]). وفي السياق ذاته عرفت العلمانية على" أنها نهج حياتي مادي تكون نتيجة لنمو الفلسفات المادية اللادينية"([٣]).

لكن هذه النظرة إلى العلمانية، هي نظرة خاطئة تتعارض منطقيا مع افتراضهم (أن الإسلام دين ودولة) وإذا كانت العلمانية في نظر هؤلاء المنظرون الإسلاميون هي انعدام الإيمان الديني، إذن فالعلمانية لا مكان لها أيضا لا في المسيحية ولا في اليهودية ولا في أي دين آخر من أديان الموحدين ([٤]).

الأخطر من كل ما تقدم، هناك من تجاوز مسألة النقد وربط مفهوم العلمانية بالإرهاب، حيث يرى هذا الاتجاه أن استعمال مصطلح الإرهاب للدلالة على أعمال العنف لم يبدأ إلا في أواخر القرن الثامنَ عشرَ الميلادي مع قيام الثورة الفرنسية. من هذا المنطلق، يعود تاريخ الإرهاب كاصطلاح أو تنظيم إلى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م بسقوط الملك لويس السادسَ عشرَ والقضاء على النظام الإقطاعي، فقد عرفت فرنسا مرحلة الإرهاب في أثناء الجمهورية اليعقوبية، إذ تأثر رجال الثورة اليعقوبية في أفعالهم بتيارات فكرية عقائديّة كانت سائدة في فرنسا حينذاك، وكانت الدعوة صريحة لممارسة الإرهاب كما هو واضح في الأيديولوجية اليعقوبية المتمثلة في كتابات أهم رموز الثورة اليعقوبية وقادتها، وهما: روسبيير، وسان جاست. بعد أن قام كل من روسبيير وسان جاست بإبادة جماعية في قرية جنوب فرنسا تدعى (فنديه) تكبدت خسائر بشرية فادحة، بتقديرات تراوحت أكثر من نصف مليون قتيل من المتمردين على الثورة، ويعزى قتلهم بأنهم رفضوا الخضوع لسيادة العقل ([٥]).

العلمانية والإلحاد.

في الأدبيات الإسلامية المعاصرة، سواء منها ما أنتجته مؤسسة الإسلام الرسمية، بمعنى طبقة رجال الدين المرتبطة بالدولة، أو تلك الأدبيات المعبرة عن خطاب الإسلام السياسي، أي الحركات التي اتخذت من

([١]) للمزيد راجع، قرم، جورج، تعدد الأديان وأنظمة حكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة، مصدر سابق، ص١٣٧ص١٣٨

([٢]) القرضاوي، يوسف، الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١، ص١١٢

([٣]) شمس الدين، محمد مهدي، العلمانية، مؤسسة الجامعة، بيروت، ١٩٨٣، ص٧

([٤]) للمزيد راجع، ضاهر، عادل، الأسس الفلسفية للعلمانية، مصدر سابق، ص٣٥٤

([٥]) للمزيد راجع، الشيخ، ممدوح، العلمانية أصل الإرهاب والاستبداد، المركز الدولي للدراسات والاستشارات والتوثيق، القاهرة، ٢٠١٦، ص٢٣٥ص٢٣٦

الإسلام أيديولوجية تخدم مشروعها السياسي، على سبيل المثال لا الحصر (جماعة الإخوان المسلمون)، ثمة إجماع عند هؤلاء على المساواة والمماهاة ما بين مفاهيم كـ (العلمانية، واللادينية، والإلحاد) وبالتالي الرفض المطلق للعلمانية .وإلى جانب إصرار الإسلاميين على القول بأن العلمانية شأن مسيحي وغربي، فهم يؤكدون أنها شأن إستعماري أيضا، لاسيما أن هذه السمة الأخيرة تأتي ضمن محاولاتهم الرامية إلى تكريس العداء لفكرة العلمانية في وعي مريديهم ووعي عامة جمهور المسلمين، مع اعتبار ذلك نوعا من تحدي الغرب الاستعماري، ويجب مواجهته في سياق الصراع الحضاري. من هنا يجب رفض ما أنتجته حضارته بحسب رأيهم. ليس ذلك فحسب، فقد أدى هجوم الإسلاميين المستمر على العلمانية، وربطها بالمادة والقيم المادية كمقابل ونقيض للروح والقيم الروحية إلى تكريس ذلك المنطق الذي يسمى الشرق بالروحانية والغرب بالمادية، في نوع من إعادة إنتاج المقولات الاستشراقية، التي أخذت هذا الاتجاه في ربط الشرق بالروح والغرب بالمادية (١).

وكما ذكرنا آنفا، لقد اتُهمت العلمانية من قبل مفكري ومنظري حركات الإسلام السياسي بأنها دعوة للإلحاد، وأن العلمانية بضاعة غربية لم تنبت في أرضنا، ولا تستقيم مع عقائدنا ومسلماتنا الفكرية بحسب رأيهم. فهم يؤكدون على أن العلمانية مفهوم مستورد من الغرب، وأن الإسلام يرفض التقسيم المستورد للناس والمؤسسات إلى ما هو ديني، وما هو غير ديني، لاسيما أن العلمانية أدت إلى تقسيم الناس والتعليم والقوانين والمؤسسات، وهذا مرفوض في الإسلام، فكلها يجب أن تكون في خدمة الإسلام، لأن تقسيم شؤون الحياة إلى ما هو ديني، وما هو غير ديني، تقسيم غير إسلامي، بل هو تقسيم مستورد، مأخوذ من الغرب النصراني. وما نراه اليوم في مجتمعاتنا العربية والإسلامية من تقسيمات للحياة، وللناس، وللمؤسسات، إلى ديني، وغير ديني ليس من الإسلام في شيء بحسب رأيهم. وعليه فإن العلمانية تناصب العداء للدين الإسلامي، الذي أنزله الله نظاما شاملا للحياة، كما أن الإسلام يناصبها العداء أيضا، لأنها تنازعه سلطانه الشرعي في قيادة سفينة المجتمع، وتوجيه دفتها، وفقا لأمر الله ونهيه، والحكم بما أنزله، وإذا لم يحكم المجتمع بما أنزل الله، سقط لا محالة في حكم الجاهلية، بحسب رأيهم، إذن" لا تعايش بين الإسلام الحقيقي والعلمانية الحقيقية، فهما كالضرتين إحداهما أسخطت الأخرى، أو ككفتي الميزان لا ترجح إحداهما إلا بمقدار ما تخف الأخر"(٢).

ووفقا لما تقدم، فقد تم تكفير أي مسلم يقبل بالعلمانية أو يدعو إليها، ويعتبر وفق رأيهم أنه مرتدا عن الإسلام، وإن لم يكن ملحدا، يجحد وجود الله، وينكر الوحي، والدار الآخرة، وسوف تنتهي به علمانيته إلى الكفر البواح، إذا أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة. بل إن العلماني الذي يرفض مبدأ تحكيم الشريعة من

(١) للمزيد راجع، عزيزة، طارق، العلمانية، مصدر سابق، ص٤٤ص٤٥

(٢) القرضاوي، يوسف، التوجه العلماني في مواجهة الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١، ص٥٤

الأساس، ليس له من الإسلام إلا أسمه، وهو مرتد عن الإسلام بيقين، ويجب أن يستتاب، وتزاح عنه الشبهة، وتقام عليه الحجة، وإلا حكم القضاء عليه بالردة، وجُرد انتمائه إلى الإسلام، أو سحبت منه الجنسية الإسلامية بحسب رأيهم (١).

في السياق ذاته، لا يختلف الإسلام السياسي الشيعي عن نظيره الإسلام السياسي السُني في اتهام العلمانية بالإلحاد، والرفض القاطع لفصل الدين عن السياسة، ويستوي في رفض العلمانية واتهماها بالإلحاد لدى دعاة (ولاية الفقيه) على نحو ما طبقها الخميني في إيران، وأولئك المعارضون لفكرة الولاية العامة للفقيه، إذ يؤكد هذا التيار على أن وجود الإمام، الفقيه الذي ينوب عن الإمام الغائب (المهدي المنتظر) ضرورة ملحة، وهذه مسألة عقيدية لا خلاف فيها عند الشيعة. غير أن هناك خلافا جوهريا بينهم على الفقيه أو نائب الإمام فالتفسير الخميني، على نحو ما هو مطبق اليوم في إيران، يوسع دائرة ولاية الفقيه فيعطيه الولاية الشرعية العامة في شؤون المسلمين السياسية والاجتماعية، في حين يعارض تيار شيعي آخر التوسع في ولاية الفقيه، ويرى حصرها في مجالات محددة. فالإسلام كما يطرحه مذهب أهل البيت يطالب بأن تكون زمام أمور الدولة بيد الإمام المعصوم خلافة عن النبي. وبالنظر إلى الطرح الشيعي لفكرة السياسة وارتباطها الوثيق بعقيدة الإمامة، لوجدنا بأن الإمام قد اكتسب الحق الشرعي في حكم الناس من الله، والله تعالى أعلم بصالح الناس من أنفسهم (٢).

وبهذا الصدد يقول الخميني" علينا أن نذكر الناس بما كانت به الحكومة الإسلامية في صدر الإسلام، علينا أن نقول لهم إن دكة القضاء كانت في إحدى زوايا المسجد، في حين ترامت أطراف البلاد الإسلامية وشملت إيران والحجاز واليمن وغيرها"(٣).

وفي محاولة لاستقراء العقائد التشريعية أو التاريخية، أو الاجتماعية، لا يرى أصحاب اتهام العلمانية بالألحاد، ثمة مسوغا لدعاة العلمانية في الواقع الإسلامي، وذلك لأن الإسلام بحسب رأيهم، نظام عقائدي يفسر ويحدد المنهاج السلوكي للدنيا وللدولة وللآخرة، ويحتوي على ثوابت التشريع وضوابطه لكل ميدان من ميادين الصلة بين الإنسان وربه، ولكل جانب من جوانب حياة الإنسان اقتصاديا وسياسيا وتربويا وأخلاقيا (٤).

(١) للمزيد راجع، القرضاوي، يوسف، الإسلام والعلمانية وجهل لوجه، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٧، ص٤٦-٤٧ ولاحقا

(٢) مجموعة مؤلفين، حوار على أرض محايدة، دار الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٧، ص٧٥
(٣) الخميني، الحكومة الإسلامية، شبكة الفكر، ص٩
(٤) للمزيد راجع، السحمراني، أسعد، الإسلام بين المذاهب والأديان، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٦، ص٥٣

لقد اتهم هذا الاتجاه العلمانية بالإلحاد، لأنها من وجهة نظرهم تخلق مشكلة كبيرة جدا لمن يؤمنون بالدين، فكيف يمكن أن تحل مشكلة الإنسان الذي يؤمن بالدين على أسس علمانية وهو يعتبر أن أحكام الله الشرعية ملزمة له في زواجه وطلاقه وفي معاملاته، في الوقت نفسه يرفض أصحاب هذا الرأي، قياس واقع الحالة العلمية في أوروبا على مجريات الوقائع الإسلامية، لأنه قياس بدون عله، كون أن العلمانية تستند على أساس وهمي وخرافة بحسب رأيهم (١).

الخاتمة:

بلا شك أن العلمانية كمذهب سياسي، هي حركة تاريخية لها بواعثها الموضوعية، فهي نشأت كردة فعل على الفكر المسيحي الذي عاشته أوربا طوال العصور الوسطى، ونشأتها مرتبطة أساسا بالدين المسيحي والتاريخ الأوربي الوسيط والحديث. لقد ظهر الإصلاح الديني من خلال حركات المتمردين (البروتستانت) ضد الكنيسة والبابا والفكر المسيحي الكاثوليكي مما نتج عنه انقسام أوربا دينيا، بالتالي دخلت أوربا في صدام مسلح بين الملوك البروتستانت والكاثوليك في سويسرا، فرنسا، ألمانيا، النمسا، إنكلترا. إن العلمانية وإن خرجت من رحم الصراعات الكبرى، فقد أنتجت آليات سياسية وقانونية تشكلت من خلالها الدولة الحديثة، دولة المواطنة. لاسيما أن الاختلاف النسبي في التجارب العلمانية بين بلد وآخر يؤكد المرونة التي تتصف بها العلمانية لكونها ليست فكرة ناجزة أو صفة جاهزة بقدر ما هي مفاهيم مؤسسية، وعند ترجمتها إلى واقع ملموس تؤخذ بالاعتبار الظروف التاريخية لكل بلد.

في السياق ذاته لقد تم الترويج للعلمانية على أنها تنطوي على مفهوم كفري ضد الدين، وتحديدا من قبل الحركات الإسلامية المتشددة، حيث تعاملت تلك الحركات مع العلمانية معاملة أيديولوجية. بيد أن العلمانية لا تناقش فيما إذا كان الفرد مؤمنا أو كافرا، وأنما تتيح المجال الإيماني والعقائدي للناس، وتضع لكل إنسان المساحة التي يمكن من خلالها أن يمارس عقائده وطقوسه وشعائره بكل حرية، بحيث لا تتدخل الدولة أو الهيئات أو المؤسسات في المعتقد الخاص لأي شخص، كذلك لا تمنح الدولة للمواطن أي ميزة ولا تخصم منه أي حق بسبب معتقداته أو بسبب انتمائه لأي دين أو عدم انتمائه. عليه فإن لون الإنسان وانتمائه العقائدي والديني يجب أن يكون بمنأى عن حقوقه كمواطن ومركزه الاجتماعي وألا يترتب عليه أي ميزة أو نقص، من ثم فإن الدولة يجب أن تحمي الفضاء الديني للناس. بالرغم من أن هناك فرق كبير بين الدولة كمفهوم واسع وبين السلطة كمفهوم ضيق، إلا أننا نلحظ في كثير من التجارب أن السلطة تتغول على مفهوم الدولة حيال الفضاء الديني وتلزم الناس باتباع نسق تدين معين. من هذا المنطلق فإن العلمانية الحقة والصحيحة

(١) للمزيد راجع، فضل الله، محمد حسين، آفاق إسلامية، دار الزهراء، بيروت، ٢٠١٩، ص٢٨٨

هي التي تمنح الفضاء الديني للمتدينين ولا تمنح المواطن أي ميزة ولا تخصم منه بسبب عقائده كما ذكرنا آنفا. وربما هناك من يرى أن العلمانية هي توحيد المقامات أو البودقة التي تقوم على أسس يخضع أليها الجميع، فيه توحيد السياسة والاقتصاد والنظام المصرفي ونظام النقل في العالم.

النتائج:

١. إن العلمانية الأوربية ظهرت نتيجة تفاعلات دينية وتاريخية عبر قرون طويلة حددت سماتها وما وصلت اليه، فهي نتيجة الظروف التي ظهرت فيها وتفاعلت معها.

٢. إن دراسة العلمانية المعاصرة تقتضي دراسة هوية المجتمع الغربي الثقافية والدينية.

٣. صورت العلمانية من قبل الاتجاهات الراديكالية على إنها الصراع بين العلم والدين، وهذا سببه أخفاق العلمانيون العرب في تقديم رؤيا للعلمانية نابعة من ضرورة التفكر بواقع العلاقة المعقدة بين الدين والسياسة في مجتمعات مفعمة بالروحانيات والمقدس، وبالتالي بدا وكأن دفاعهم عن علمنة الحياة يصب في مواجهة الدين، رغم قولهم إن ذلك ينطبق على المجال العام ولا يمس الشأن الخاص للإنسان ومعتقداته .فكان رد الخطاب الديني على دعاة العلمانية متطرفاً إذ بدوره اتهمهم بالكفر والخروج عن الدين، بل اعتبرهم البعض وكلاء للغرب.

٤. علاوة على حرية العبادة والتعبير، فإن الدولة العلمانية، بصفتها ضامنة لحرية المعتقد، تحمي الفرد وتسمح بحرية الخيار للجميع، بأن يكون لهم اتجاها روحانيا أو دينيا، أو لا يكون، وبأن يغيروا من هذا الاتجاه أو أن يعدلوا عنه. إنها تحرص على ألا يكون بإمكان أي مجموعة أو أي طائفة، فرض انتماء أو هوية طائفية على شخص ما. إنها تحمي كل مواطنة ومواطن ضد أي ضغوط جسدية أو معنوية تمارس بذريعة الخضوع لأوامر روحية أو دينية ما.

٥. على ما تقدم، إذن نحن بصدد خلاف تاريخي بين العلم والدين، لكنه ليس صراع أو منافسة بين الدين والعلم، وأنما هناك صراع تاريخي بين ما يسمى رجال الدين أو علماء الدين وبين ما يسمى رجال العلم وهم علماء العلوم الطبيعية والإنسانية، وليس بالضرورة منافسة بين رجال العلم ورجال الدين. ربما الصراع كان ومازال بين الطرفين على السلطة، ذلك الصراع الذي يمثل الإشكالية التاريخية الكبرى في جزء كبير من المجتمعات الشرقية بصورة خاصة، التي تسعى فيها التنظيمات الإسلامية المتشددة الوصول إلى السلطة.

المصادر والمراجع:

أولا: الكتب:

١. البار، محمد علي، العلمانية جذورها وأصولها، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٨

٢. الجابري، محمد عابد، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٦

٣. الحافظ، ياسين، الأعمال الكاملة لياسين الحافظ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥

٤. الخميني، الحكومة الإسلامية، شبكة الفكر، ١٩٧٠

٥. السحمراني، أسعد، الإسلام بين المذاهب والأديان، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٦

٦. الشيخ، ممدوح، العلمانية أصل الإرهاب والاستبداد، المركز الدولي للدراسات والاستشارات والتوثيق، القاهرة، ٢٠١٦

٧. العبدولي، تهامي، أزمة المعرفة الدينية، الأكاديمية الثقافية العربية الآسيوية، دمشق، ٢٠٠٥

٨. العظمة، عزيز، الأصالة أو سياسة الهروب من الواقع، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٢

٩. القرضاوي، يوسف، التوجه العلماني في مواجهة الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١

١٠. القرضاوي، يوسف، الإسلام والعلمانية وجهل لوجه، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٧

١١. القرضاوي، يوسف، الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١

١٢. المسيري، عبد الوهاب، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الأول، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢

١٣. المسيري، عبد الوهاب، والعظمة، عزيز، العلمانية تحت المجهر، دار الفكر المعاصر، لبنان، ٢٠٠٠

١٤. النعيم، عبد الله أحمد، الإسلام وعلمانية الدولة، دار ميريت، القاهرة، ٢٠١٠

١٥. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة: مادة أرسطو، دار الساقي، بيروت، ١٩٨٤

١٦. بيتهام، ديفيد، وبولي، كيفن، مدخل إلى الديمقراطية، ترجمة، رمو، أحمد، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٧

١٧. تورين، آلان، ما الديمقراطية، ترجمة، كاسوحة، عبود، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٠

١٨. جبران، جبران خليل، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، الجزء٣، دار صادر، بيروت

١٩. جورج، قرم، تعدد الأديان وأنظمة حكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة، دار الفارابي، ٢٠١١

٢٠. خفيف، علي عباس، نحن والدين: الشيوعية وحرية الأديان، وراقون للنشر والتوزيع، العراق، ٢٠١٥

٢١. رسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة، الشنيطي، محمد فتحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧

٢٢. روا، أوليفيه، الإسلام والعلمانية، ترجمة، الأشمر، صالح، دار الساقي، لبنان، ٢٠١٦

٢٣. سباين، جورج، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني، ترجمة، العروسي، حسن جلال، تقديم، الخطيب، محمد فتح الله، دار المعارف، القاهرة

٢٤. سيعفان، أحمد، قاموس المصطلحات السياسية والدستورية والدولية، مكتبة لبنان، ٢٠٠٤

٢٥. شمس الدين، محمد مهدي، العلمانية، مؤسسة الجامعة، بيروت، ١٩٨٣

٢٦. صدقي، بكر، علمانية وعلمانيون، مجلة المشكاة، العدد ١١، ٢٠١٠

٢٧. ضاهر، عادل، الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٨

٢٨. ضاهر، عادل، الأخلاق والعقل، دار الشروق، عمان، ١٩٩٠

٢٩. للمزيد راجع، عبد السلام، رفيق، آراء جديدة في العلمانية والدين والديمقراطية، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، ٢٠١١

٣٠.عبد اللطيف، كمال، التفكير في العلمانية: إعادة بناء المجال السياسي في الفكر العربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦

٣١. عزيزة، طارق، العلمانية، دار بيت المواطن، دمشق، ٢٠١٤

٣٢. عمارة محمد، العلمانية بين الغرب والإسلام، دار الدعوة، الكويت، ١٩٩٦

٣٣. غليون، برهان، الاختيار الديمقراطي في سوريا، دار بترا والفرات، ٢٠٠٣

٣٤. فضل الله، محمد حسين، آفاق إسلامية، دار الزهراء، بيروت، ٢٠١٩

٣٥. فوريست، كالورين، وفياميتا فينر، العلمانية على محك الأصوليات، ترجمة، أبو عقل، غازي، دار بترا، ٢٠٠٦

٣٦. قدوح، إنعام أحمد، العلمانية في الإسلام، دار السيرة، لبنان، ١٩٩٥

٣٧. قرم، جورج، تعدد الأديان وأنظمة حكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة، دار الفارابي، ٢٠١١

٣٨. مجموعة مؤلفين، حوار على أرض محايدة، دار الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٧

٣٩. نيتشة، فريدرك، نقيض المسيحية، ترجمة، مصباح، علي، دار الجمل، بيروت، ٢٠١١

٤٠. نيتشة، فريدرك، ما وراء المستقبل: تباشير فلسفة للمستقبل، ترجمة، حجار، جيزيلا فالور، مراجعة، وهبة، موسى، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٣

٤١. هارشير، غي، العلمانية، ترجمة، الصباغ، رشى، دار المدى والمؤسسة العربية للتحديث الفكري، ٢٠٠٥

٤٢. وهبة، مراد، الأصولية والعلمانية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥

المجلات:

١. الصريصري، كمال بن سالم، الأسس الفلسفية للعلمانية المعاصرة، مجلة مركز الخدمات للاستشارات البحثية واللغات، العدد٤٧، ٢٠١٣

٢. العظمة، عزيز، العلمانية من منظور مختلف: الدين والدنيا في منظار التاريخ، مجلة كتاب في جريدة، العدد ١٢١، ٢٠١٨

الانترنيت:

١. (١) الجباعي، جاد الكريم، العلمانية من منظور الدولة الوطنية، مركز آفاق، https://aafaqcenter.com ١٨_١_٢٠١٢

ثالثا: بحوث الادب

الحبُّ والحقيقة في شعر الحلَّاج

أ.د. محمّدحلمي عبدالوهّاب
أكاديمي وباحث مصري

البريد الالكتروني: bhadawa@mail.com

تاريخ التقديم للنشر ٢٠٢٣/٠٤/٠٣ تاريخ القبول للنشر ٢٠٢٣/٠٥/٢٠

ملخص الدراسة:

تتغيَّا هذه الدراسة الإبانةَ عن مفهومي: "الحبّ الإلهيّ" و"الحقيقة" في شعر الحلَّاج؛ بوصفهما تجليًّا أسمى للتَّعبير عن تجربته الصُّوفية الفريدة. وتتضمَّن الدراسة العناصر التَّالية:

المبحث الأول: غواية السَّرد الصُّوفيّ: خمرة الحبّ الإلهيّ بين القُدسيّ والمُتخيَّل.

المبحث الثاني: ما وراء الوراء: تمثُّلات الحقيقة في شعر الحلَّاج.

المبحث الثالث: السّمات الفنية في شعر الحلَّاج: الرّمز والمعنى

Abstract:

Love and truth in Hallaj's poetry

Prof. Muhammad Helmi Abdul Wahab

This study explores the concepts of "divine love" and "divine truth" in Al-Hallaj's poetry as a supreme manifestation to express his unique mystical experience.

The study includes the following elements:

First: The Temptation of The Mystical Narrative: The wine of divine love between the sacred and the imaginary.

Second: Beyond Backwards: Representations of Truth in Al-Hallaj's Poetry.

Third: Artistic features in Al-Hallaj's poetry: symbol and meaning

كلمات مفتاحية: الحلَّاج، الشّعر الصُّوفيّ، الحبّ الإلهيّ، الحقيقة الصُّوفية، الفناء، الرَّمزز

Keywords: Al-Hallaj, Sufi poetry, Divine love, Sufi truth, Annihilation, Symbol.

مقدّمة.

«أسرارُنا بِكْرٌ، لا يَفْتَضُّها وَهْمُ واهِمٍ» [١].

الحلّاج

طالما شدَّد المتصوّفة على خصوصية الخطاب الصُّوفيّ بأنماطه المختلفة: شعرًا ونثرًا؛ خاصَّة ما يتعلَّق بالمنطوق الصُّوفيّ في حال «الشَّطح» [٢]، إذ لا يمكن فصله عن الحالة الوجدانية للمتصوّف إبَّان سُكْره، وإلَّا خرج عن معناه، وأصبح التمسُّك بظاهره ذريعة للاتهام الدّينيّ والسّياسيّ. والحال أنَّ الخطاب الصوفيّ وجد في الشّعر ـ بالذَّات ـ إطارًا تبليغيًّا، فلم يكن الشّعر هدفًا بحدّ ذاته، بقدر ما كان أدبًا «رساليًّا»، ينطوي على سرّ لا يدركه إلَّا العارفون. ولذلك «اعتبر الصُّوفية الشَّاعر مصنوعًا على عين الله (...) جسمُه في الأرض، وقلبُه في السَّماء يتسقَّط أخبار العالم العلويّ الذي عبرَه بومضات إلهية بها يكون شعره نارًا تهجم على الأفئدة بغير حجاب» [٣].

ضمن هذا السّياق؛ انطلق الحسين بن منصور الحلَّاج (٢٤٤ـ٣٠٩ه/ ٨٥٨ـ٩٢٢م) ـ شهيد التصوُّف في الإسلام، وأحد أبرز شعراء الصُّوفية ـ في تجربته العرفانيّة بما يتخطَّى عتبة الزَّمن، معبّرًا عن معاناته في «الحبّ الإلهيّ» بأشعار تنهل من معين روحيّ يقع في «ما وراء الوراء» ـ بحسب تعبيره ـ؛ خاصَّة إذا أخذنا بعين الاعتبار حقيقة أنَّ «أفهام الخلائق لا تتعلَّق بالحقائق؛ فالخواطر علائِق، وعلائقُ الخلائق لا تصل إلى الحقائق، والإدراك إلى علم الحقيقة صعبٌ، فكيف إلى حقيقة الحقيقة؟!» [٤]. وإذا كان الشّعر – فيما يؤكّد الشَّاعر الفرنسيّ رينيه شار René Char (١٩٠٧ـ١٩٨٨) – هو الكشف عن عالم يبقى دائمًا ـ وأبدًا ـ في حاجة ماسَّة إلى الكشف [٥]؛ فإنَّه يمكننا أن نفهم من خلال هذا المنظور سرّ العلاقة التي جمعت بين التَّجربة الصُّوفية ـ الذوقية العرفانية ـ من جهة، وبين الشّعر من جهة أخرى. فكثيرًا ما لجأ الصُّوفية

---

(١) الطُّوسيّ (ت. ٣٨٧ه/ ٩٩٧م)، **اللُّمَع**، حقَّقه وقدَّم له وخرَّج أحاديثه عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، ط١ (القاهرة: دار الكتب الحديثة؛ بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٠)، ص٢٣١.

(٢) عرَّف السرَّاج الطوسيُّ الشَّطح بأنه: «عبارة مستغربة في وصف وجدٍ فاض بقوته وهاج بشدّة غليانه وغلَبَته (...) ألا ترى أنَّ الماء إذا جرى في نهر ضيّقٍ فيفيض من حافّتيه؟ يُقال: شطح الماءُ في النَّهر. فكذلك المريد الواجد، إذا قوي وجدُه ولم يُطِقْ حملَ ما يَرِدُ على قلبه من سطوة أنوار حقائقه؛ سطع ذلك على لسانه، فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشكلَة على فهم سامعيها، إلَّا من كان من أهلها ويكون متبحّرًا في علمها، فسُمّي ذلك على لسان أهل الاصطلاح: شطحًا». الطوسيّ، **اللُّمَع**، ص٤٥٣–٤٥٤. فالشَّطح: «كلام يُترجمه اللسانُ عن وجد». **المصدر السابق**، ص٣٣٨.

(٣) نور الدين دحماني، «*الصورة الفنية في الخطاب الشعري الصوفي*،» **مجلة حوليات التراث**، العدد ٢ (أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤)، ص١٢٥.

(٤) الحلَّاج، **كتاب الطواسين**، تحقيق ودراسة لويس ماسينيون، إعداد وترجمة رضوان السح وعبد الرزاق الأصفر، ط٢ (دمشق: دار الينابيع، ٢٠٠٩)، ص١٣٧.

(٥) انظر: رينيه شار، **مشاطرة شكلية**، ترجمة شاكر لعيبي، ط١ (أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٥)، ص٣٩.

إلى الشّعر من أجل التَّعبير عن جملة أحوالهم ومكابداتهم، وتوسَّلوا به في بناء تجاربهم، وفي «الإشارة» إلى ما تنطوي عليه ضمائرهم وأفئدتهم [١].

الواقع أنَّ قصور اللُّغة الوضعية عن الوفاء بحقّ التَّجربة الصُّوفية هو ما جعل كلًّا من الشّعر والتصوُّف «ينفرد بلغة خاصَّة تقوم على الإشارة لا العبارة، وعلى الرَّمز لا المباشرة. فالإشارة هي نفيٌ ليقين العبارة، يوسّع أفق الرُّؤيا، ويغذّي فاعلية الكشف (...) وهذا التَّمييز بين الإشارة والعبارة يتأسَّس على التَّمييز الذي يؤكّده المتصوفة بين المعنى الظَّاهر للخطاب الإلهيّ ودلالته الباطنة التي لا تتكشَّف إلَّا لصاحب التَّجربة الصُّوفية» [٢]؛ وهو ما عبَّر عنه الحلَّاج بالقول: «من لم يقف على إشاراتِنا، لم تُرْشِدهُ عباراتُنا» [٣]:

أأنتَ أمْ أنا هذا في إلهيْن	حاشاكَ حاشاكَ من إثبات اثنيْن
هُويَّةٌ لكَ في لائيّتِي أبدًا	كُلِّي على الكلِّ تلبيسٌ بوجهيْن
فأينَ ذاتَك عنِّي حيثُ كنتُ أرى	فقد تبيَّن ذاتي حيثُ لا أيْني
وأينَ وجهكَ؟ مقصودًا بناظِرَتِي	في باطِن القلب، أم في ناظِر العيْن؟
بيْني وبيْنَك إنِّيٌّ يُنازِعُنِي	فارْفَعْ بلُطْفِكَ إنِّيّ من البَيْن [٤]

أهمية البحث

تتأتّى أهمية البحث في الكشف عن مفهومي "الحبّ الإلهيّ" و"الحقيقة الصُّوفية" في شعر الحسين بن منصور الحلَّاج، شهيد التصوُّف في الإسلام، بوصفه واحدًا من أهم شعراء الصُّوفية، الذين استخدموا الشعر إطارًا بلاغيًّا لتوضيح تجاربهم الذوقية العرفانية وما تنطوي عليه من مواجيد وشطح ورموز وإشارات واستعارة...إلخ.

أهداف البحث

توضيح المفاهيم الخاصّة بالحبّ الإلهي والحقيقة الصوفية والذوق والكشف والشطح وتجلّياتها في تضاعيف التجربة الشّعرية للحلاج.

---

(١) الإشارة هي ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة؛ للطاقة معناه. وهو ما عبر عنه أبو عليّ الروذباريُّ (ت. ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م)، بالقول: "علمُنا هذا إشارة، فإذا صار عبارة خفي". انظر: كامل مصطفى الشيبي، **شرح ديوان الحلَّاج: دراسة شاملة: تحقيق وتفسير**، ط٢ (باريس: منشورات أسمار، ٢٠٠٥)، ص١٧٥.

(٢) وفيق سليطين، **الشعر والتصوف**، ط١ (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠١٣)، ص١٧-١٨.

(٣) ابن الساعي، **أخبار الحلَّاج أو مناجيات الحلَّاج، وهو من أقدم الأصول الباقية في سيرة الحسين بن منصور الحلَّاج البيضاويّ البغداديّ**، اعتنى بنشره وتصحيحه وتعليق الحواشي عليه ل. ماسينيون وب. كراوس، ط١ (باريس: لاروز، ١٩٣٦)، ص٧٥.

(٤) الحلَّاج، **الديوان**، تحقيق لويس ماسينيون، ط٣ (باريس، ١٩٥٥)، ص٩٠؛ كامل مصطفى الشيبي، **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٨٢-٢٨٣. والهُويَّة: من ضمير الغائب «هُو»؛ وتعني «الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق؛ اشتمالَ النَّواة على الشَّجرة في الغيب المطلق». وهي عين الإنيَّة المشار إليها بلفظة: «أنا»، فالهُويَّة معقولةٌ في الإنيَّة. كما أطلق المتصوفة الهُويَّة على الغيب؛ وهو ذات الحقّ سبحانه، والإنيَّة على الشَّهادة؛ وهي معقول العبد. ولفظة: لائيتي، في البيت تعني: فنائي. أمَّا التلبيس؛ فهو الاختلاط والاشتباه، وهو في الاصطلاح: تجلّي الشيء بضدّه.

منهج البحث

عوّل الباحث على استخدام "المنهج الوصفيّ" في توضيح حدود التجربة الشعرية-الصُّوفية للحسين بن منصور الحلاج، و"المنهج النفسيّ" في تتبُّع ظاهرة الاغتراب وجدل الأنا والآخر في لغة الحلَّاج، كما استخدم "الأسلوبية" كمنهج نقديّ حديث يُعنى بتحليل النصوص والنظر في جزئيات العمل الأدبيّ بتفكيكه ودراسة أجزائه التَّركيبية، للكشف عن مقاصد الشّاعر والتنويرات الإبداعية القارّة في خطابه الصوفيّ.

النتائج والمناقشة

كشفت الدراسة عن إسهام الحلاج الشعريّ والنثريّ في "أدب السُّلوك"؛ خاصَّة ما يتعلق بالتعويل على لغة الرّمز والإيحاء، للتعبير عن تجربته الذّاتية في "الاتحاد الإلهيّ"، التي تبتدئ بالمعرفة وتنتهي بالفناء.

المبحث الأول

غواية السَّرد الصُّوفيّ: خمرة الحبّ الإلهيّ بين القُدْسيّ والمُتخيَّل

هي الكَرْم والعُنْقُودُ والعاصرُ الذي ... له انتسبتُ أيضًا وبائعُها غَبْنَا
هي الحانُ والكاساتُ والطّاس والطّلا ... ودَنُّ الحُمَيَّا والذي صنع الدَّنَّا
هي القوم والسَّاقي ومجلسنا على ... يمين الحِمَى الشَّرقيّ والرَّوضة

لقد آثر المتصوفة أن يستعيروا لغة الخمريين للتعبير بها – رمزًا لا حقيقة – عن لطافة «المحبَّة الإلهية»، التي لم يجدوا لها لفظًا متعارفًا عليه يوفي بحقيقة مقصودهم منها؛ لما في الألفاظ من كثافة عالم «الحسّ»، وفي المحبَّة من شفافية عالم المعنى و«الذوق»[٢]. ولعلَّ التشابه المعلوم بين «الغيبة» الدَّائمة – أو المؤقّتة – لصاحب «العشق الإلهيّ»، وبين حالة «السُّكر» النَّاشئة عن شرب الخمر، دفعت بقوة في هذا الاتجاه، مع اختلاف درجة السُّكر ما بين ذاتي (سُكر المحبَّة)، وعرَضيّ (سُكر الخمر)، حيث:

يصْحُو من الخمر شاربوها ... والعشقُ سُكْرٌ على الدَّوام[٣]

وعلاوة على ذلك؛ فإنَّ هذه الألفاظ – ومثيلاتها ـ تُستخدم كلّها عند شعراء المتصوفة بوصفها رموزًا وإشارات لأحوال المُحبّين الإلهيّين: فـ «الكَرْم» ـ الذي يُثمر العنب ـ يُقصد به هذا الوجود الحادث الذي أوجدته القدرة الإلهيَّة بأثر من كلمة: «كن»[٤]. و«الحانُ» ـ الذي هو في الأصل كلمة ذات مدلول حسّي،

---

(١) عبد الغني النابلسي (ت. ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م)، **ديوان الحقائق ومجموع الرقائق في صريح المواجيد الإلهيَّه والتجلّيات الربَّانيَّه والنَّفتوحات الأقدسية**، ط١ (بيروت: دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦)، ج٢، ص١٢٠. الكَرْمَ: العنب، عَصِيرُهُ يُخَمَّرُ وَيَصِيرُ خَمْراً. ولذا يُقال للخمر: ابنة الكَرْم. والغبن: الغلبة والنَّقص، يقال: غبَنه في البيع والشِّراء: أي غلَبه ونقَصه وخدعه ووكسَه. والطَّاسُ: إناءٌ من نُحاسٍ ونحوِهِ يُشْرَبُ فيه، أَو به. والطِّلا: وَلَدُ الظَّبية، والرِّيقُ يجفّ بالفم من عطش أو جوع أو مرض. والدَّنُّ: وعاءٌ ضخم للخمر ونحوها. والحُمَيَّا: سَوْرَة الخمر وشدَّتُها وأولها.

(٢) انظر: ابن الدبَّاغ (ت. ٦٨٩هـ/ ١٣٠٠م)، **مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب**، تحقيق هـ. ريتر، ط١ (بيروت: دار صادر، ١٩٨٦)، ص٢١.

(٣) الطوسي، **اللُّمع**، ص٤١٧؛ ابن الدبَّاغ، **مشارق أنوار القلوب...**، ص٢١.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ **كُن** فَيَكُونُ﴾[البقرة: ١١٧].

يُراد بها: «بيت الخمَّار» - تعني في عُرفهم: أماكن العبادة المُعطَّرة أجواؤُها بالسَّماع الصُّوفيّ. أمَّا «المُدامة» - التي تعني في الأصل: الخمر -؛ فيستخدمها شعراء الصُّوفية للدّلالة على «المعرفة الإلهيَّة»، و«الشَّوق إلى الله تعالى، ومحبَّته». كما يقصدون بـ «السُّكر»: حال الغيبة والنَّشوة التي يستعيدُ بها المُحبُّ بهجةَ سماعِه قولَ الله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢] (١)، السابق ظهورَ المخلوقات، حتّى تُسكره أنوار المعرفة الإلهيَّة والمحبَّة الربَّانيَّة: «من أسْكرتْهُ أنوارُ التَّوحيد؛ حجبتْهُ عن عبادة التَّفريد، ومن أسْكرتْهُ أنوارُ التَّجريد؛ نطق عن حقائق التَّوحيد؛ لأنَّ السَّكران هو الذي ينبئ عن كلّ مكتوم» (٢) - فيما يقول الحلَّاج-:

فلا عيش في الدُّنيا لمن عاش صاحيًا ومن لم يمُتْ سُكْرًا بها فاتَهُ الحزمُ
على نفسِه فلْيَبْكِ من ضاع عمرُه وليس له فيها نصيبٌ ولا سَهْمُ (٣)

فالنشوة الحقيقية تقع قبل الشراب، وقبل أن يُصنع الخمر؛ لأنها عبارة عن خمرة أزلية تسري في عروق الدَّهر قبل أن يولد الدَّهرُ؛ وإلى هذا المعنى أشار شاعر الحبّ الإلهيّ عمر بن الفارض (ت. ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م)، في مفتتح خمريته المشهورة، بالقول:

شربنا على ذكر الحبيب مُدَامة سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكَرْمُ (٤)

أضف إلى ذلك أيضًا، ما ورد في القرآن الكريم – عند وصف جنَّة المتقين – أنها تتضمّن أنهارًا من خمر لذَّة للشاربين. يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ **وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ**﴾[محمد: ١٥]. فدلَّ ذلك على أنَّ المقصود بها معنى آخر غير ذلك الذي ينصرف إلى خمر الدُّنيا المحرَّمة على المؤمنين. وفي الأحوال كلها؛ يرد مصطلح الخمر في الشعر الصوفي بصيغ ثلاث، هي: **المجاز**؛ وذلك للتعبير بها عن المحبَّة والوجد والسَّماع بأنواعه. و**الرَّمز**؛ وذلك للتعبير بها عن التحقُّق بالتَّوحيد الشَّهاديّ إقرارًا، والتوحيد الشُّهوديّ عيانًا. و**الإصطلاح**؛ وذلك للتعبير بها عن الحال القلبيّ ممَّا يرد عليه من واردٍ رحمانيّ.

وتبعًا لذلك؛ استخدم المتصوفة لفظ «الخمر» - وما في معناه - بمفهومات عدّة؛ من بينها: الإشارة إلى الذَّات الإلهية، وإلى الأسرار العلوية، وإلى الحبّ الإلهيّ، وإلى حقائق الغيب والتوحيد والمعارف

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف: ١٧٢]. وإلى ذلك المعنى يشير عبد الغني النابلسيُّ بالقول:

وأقمنا على المحبَّة نلقى الغير عنها بحفظ عهد وثيق

ديوان الحقائق، ج١، ص٣٥٠.

(٢) أبو طالب المكي (ت. ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)، **علم القلوب**، حقّقه وعلَّق حواشيه وقدّمه عبد القادرو أحمد عطا، ط١ (القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م)، ص١١٠.

(٣) ابن الفارض، **ديوان ابن الفارض: قراءتٌ لنَصّه عبر التاريخ**، تحقيق جوزيبي سكاتولين، نصوص عربية ودراسات إسلامية؛ المجلد ٤١، ط١ (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ٢٠٠٤)، ص١٦١.

(٤) **ديوان ابن الفارض**، ص١٥٨.

الربَّانية...إلخ. ولذلك قال بعض المتصوفة: «إنَّ في تَرْكِ خمرة القوم اللَّوم، والإفطارُ عليها هو الصَّوم»؛ كما قال ابن الفارض:

شربتُ الإثمَ، كلّا، وإنَّما شربتُ التي في ترْكِها عندي الإثمُ[١]

وكما وظّف المتصوفة قصَّة موسى والخضر - عليهما السَّلام - للتفريق بين مصطلحي: «الشَّريعة» و«الحقيقة»؛ دلَّلوا على مشروعية حالَيْ: «السُّكر» و«الصَّحْو»، بما ورد في قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ **صَعِقًا** ۚ فَلَمَّا **أَفَاقَ** قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ١٤٣]. فقد أشار الشَّيخ الأنصاريّ (ت. ٨٤١ه/ ١٠٨٩م) في: **شرح منازل السَّائرين** إلى هذه الآية - في معرض حديثه عن السُّكر بالمعنى الصُّوفيّ: «**صَعِقًا**» - فيما استدلَّ بها مصطفى العروسيُّ (ت. ٩٢٦ه/ ١٢٩٣م) في حاشيته المسمَّاة: **نتائج الأفكار القُدسية في بيان معاني شرح الرّسالة القُشيرية**، معتبرًا أنَّ لفظة: «**أَفَاقَ**» تعدُّ مُسْتَنَدًا لحال الصَّحو؛ وإنْ أكَّد - من ناحيته - أنَّ السُّكر هو مقام مَنْ هم دون الأنبياء والمُرسلين وأكابر الأولياء[٢]. ولذلك؛ تتنوع المعاني الرَّمزية للفظ «السُّكر» عند شعراء الصُّوفية، فتُفيد: الغفلة، والغيبة، والفناء. والمعنى الأخير يعدُّ بمثابة قطب الرّحى في الشعر الصوفيّ[٣].

وكيفما كان الأمر؛ فإنَّ الحلَّاج عمد في أشعاره إلى تحييد الدّلالات الأوليَّة: «الحسيَّة، والدُّنيوية»، لألفاظ: «الحبّ»، و«العشق»، و«الخمر»...[٤]، ثمَّ وضعها في أنساق مغايرة لأنساقها المعهودة، فتحوَّلت - في أشعاره - من مجرد أسماء وصفات يحمل بعضها سمة «الدَّنَس»، إلى رموز وتعابير «قُدسيّة» تتضمَّن دلالات روحية وجدانية سامية. ونتيجة لذلك؛ استطاع الحلَّاج أن يتوغَّل «بالوعي الإنسانيّ نحو أعمق معاني

---

(١) حسن البوريني (ت. ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م) وعبد الغني النابلسي (ت. ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م)، **شرح ديوان ابن الفارض**، ط١، (مرسيلية: مطبعة ارنود وشركاه، ١٨٥٣)، ج٢، ص١٩١.

(٢) انظر: حسن الفاتح قريب الله، **المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفية**، ط١ (القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، محرّم ١٤٢٠هـ- إبريل ١٩٩٩م)، ص١٩-٢١.

(٣) وهو ما عبَّر عنه عفيف الدّين التّلمسانيّ (ت. ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) بالقول:

أرى رسْمَها عندي يعوضُ عن رَسْمى ... فما بالهم فى الحىّ يدعوننى باسمى؟
وهل بعد ضوء الشمس يبدو لنا الدُّجى ... وهل عندنا يبقى على الأفق من نجم؟
إذا ما دعى الدَّاعى بعَلْوَة فاستجبْ ... ولكن إذا **أَفْنَتْكَ** عنكَ على علم
ولم تَبْقَ إنْ **أَبْقَتْكَ** إلَّا بها لها ... فأنتَ إذا حقَّقْتَ من عالَم الوهم
فَمِلْ طربًا واشْرب وطِبْ ثمَّ غِبْ فما ... **فغَيْبَتُكَ** إلَّا **سكرة** منْ هوَى نُعْم
ومهما بقى **للصَّحو** فيك بقيَّة ... يجد نحوك اللَّاحى سبيلًا إلى الظُّلم

عبد الغني النابلسي، **خمرة الحان: شرح رسالة الشيخ أرسلان**، ط١ (القاهرة: مكتبة محمد علي صُبيح، ١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م)، ص٨٥.

(٤) قال ابن الأعرابيّ: سمّيت (الخمرُ) خمرًا؛ لأنَّها تُركتْ (فاختمرَتْ)، و(اختمارُها): تغيُّر ريحها. وقيل: سمّيت بذلك لمُخامَرَتها العقلَ. انظر: محمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت. بعد ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م)، **مختار الصحاح**، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، ط١ (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥)، ص٧٩.

السُّموّ على تفاهة الحياة ومادّيتها وحِطَّتِها، وأن يُخلّص الأنا من سجنه، ويُخرجه من هشاشة الواقع، ويُحلّق به في سماوات المُطلق اللامتناهي؛ بغية تجديد النَّبض الرُّوحيّ، وارتقاء أعلى درجات الصُّعود نحو المتعالي»[١]، هنالك حيث يتَّحد روح العاشق بالمعشوق:

رَقّ الزُّجاجُ وَرَقَّت الخَمرُ ... فَتشابَها فَتَشاكل الأَمرُ
فَكَأَنَّما خمرٌ وَلا قَدحٌ ... وَكَأَنَّما قَدحٌ وَلا خمرُ[٢]

فولع الصُّوفية بخمر «الحُبّ» جعلهم يرمزون لها بخمر «الحَبّ»؛ كما عبر عن ذلك مصطفى البكريّ (ت. ١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م) بالقول:

أَدِرْ لي خمر الحُبّ لا خمر حَبَّةٍ ... فتلك حلالٌ ليس في شُربها امترا[٣]

ومتى تحقَّق ذلك الأمر؛ تمتزج الأرواحُ امتزاجَ الخمرة بالماء الزُّلال؛ وهو ما عبَّر عنه الحلَّاج بالقول:

مُـزِجَتْ روحك فى رَوحى كما ... تُمـزَجُ الخمـرةُ بالمـاءِ الزُّلالِ
فإذا مسَّكَ شيءٌ مسَّني ... فإذا أنتَ أنا في كلّ حال[٤]

ويقول معبّرا أيضًا عن امتزاج روحه بروح المعشوق:

يا نَسيمَ الرّيح قولي لِلرَّشا: ... لَم يَزِدني الوِرْدُ إلّا عَطشا
لي حَبيبٌ حُبُّهُ وسط الحَشَا ... إنْ يَشَأْ يمشي على خَدّي مشى
روحُهُ روحي ورُوحي روحُهُ ... إنْ يَشَأْ شِئْتُ وإنْ شِئْتُ يَشا[٥]

وفي المعنى نفسه يقول أيضًا:

قد تصبَّرتُ، وهل يصـ ... ـبر قلبي عن فؤادي
مازجَتْ رُوحُكَ روحي ... في دُنُوّي وبعادي

---

(١) عبد القادر فيدوح، **الرؤيا والتأويل**، ط١ (الجزائر: دار الوصال، ١٩٩٤)، ص ٥٦.

(٢) الصاحب بن عبَّاد (ت. ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م)، **ديوان الصاحب بن عبَّاد**، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط٢ (بيروت: دار القلم؛ بغداد: مكتبة النهضة، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م)، ص١٧٦.

(٣) محمد البكري الشهير بالسمَّان (ت. ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م)، **قطف أزهار المواهب الربانية من أفنان رياض النفحة القدسية**، شرح صديق بن عمر خان العمري، ضبطه وصحّحه وعلّق عليه عاصم إبراهيم الكيالي، ط١ (بيروت: كتاب- ناشرون، ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م)، ص١٥٠. والامتراء: الشكّ.

(٤) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص252. وقد سبق أن استخدم الجُنَيد البغداديُّ (ت. ٢٩٧هـ/ ٩١٠م) – أحد شيوخ الحلَّاج – هذا التعبير في قوله:

مالي جُفيتُ وكنتُ لا أجْفَى ... ودلائل الهجران لا تخفى
وأراك تسقيني وتمزجني ... ولقد عهدتُك شاربي صِرْفًا

الطوسي، **اللُّمع**، ص٣١٩.

(٥) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٢٩؛ قاسم محمد عباس، **الحلَّاج: الأعمال الكاملة (التفسير، الطواسين، بستان المعرفة، نصوص الولاية، المرويات، الديوان)**، ط١ (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، آذار/ مارس٢٠٠٢)، ص٣١١.

فأنا أنتَ كما أنَّـــكَ أنّي ومُرادي [١]

وبحسب يوسف زيدان؛ فقد «كانت تلك هى المرَّة الأولى – فيما نعتقد - التى تُستخدم فيها كلمة «الخمر» فى الشّعر الصُّوفيّ، ولسوف يعود شعراء الصُّوفية [خاصَّة: ابن الفارض، وأبو مدين، والنَّابلسيّ [٢]] لاستخدامها على نطاق واسع، بعد إعطائها دلالة رمزية، بحيث تشير إلى النَّشوة بتجلّى المحبوب: «خمر المحبَّة»، أو إلى تذكُّر عالَم الذَّرّ الذي كانت فيه الأرواح - قبل خلق الأجساد - تُقِرُّ بالواحدانية لله: «خمر التَّوحيد»، كأس: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾» [٣]. وتارة أخرى يعبّر الحلَّاج عن هذا الامتزاج بلفظة: «جُبِلَتْ»، بمعنى: خُلِقتْ؛ فالجِبِلَّة: الخِلقة. وتفيد أيضًا: الخلط والعجن. يقول الحلَّاج معبّرًا عن ذلك المعنى:

جُبِلَتْ روحك في روحي كما يُجْبَلُ العنبرُ بالمسك الفَتِقْ

فإذا مسَّك شيءٌ مسَّني فإذا أنتَ أنا، لا نفْترق [٤]

---

(١) **ديوان الحلاج**، ص٥٢؛ **شرح ديوان الحلاج**، ص١٨٥؛ **مشارق أنوار القلوب**، ص٨٧. وقال ابن عربي في تقديم هذه الأبيات: "ومنها من ادّعت ذلك في حال سُكر؛ كالحلَّاج، فقال قول سكران، فحبط وخلط لحكم السُكر عليه وما أخلص (...) فهذا سعد، وإن شقي به آخرون، فلا جناح عليه ولا حرج؛ لأنه سكران وهم المسؤولون". **الفتوحات المكية**، تصحيح محمد قطّة العدوي، ط٢ (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٣هـ – ١٨٧٦م)، ج٣، ص١٥٥. ويقول الحلَّاج معبّرًا عن فكرة الامتزاج أيضًا:

غبتَ وما غبتَ عن ضميري فمازَجَتْ تَرْحتِي سروري

واتّصل الوصلُ بافتراقٍ فصار في غيبتي حضوري

فأنتَ في سرّ غيب همّي أخْفَى من الوهم في ضميري

تُؤنسني بالنهار حقًّا وأنتَ عند الدُّجى سميري

ديوان الحلَّاج، ص٦١.

(٢) نسج ابن الفارض على منوال بيتي الحلّاج قوله:

وهامت بها روحي بحيث تَمَازَجا اتحادًا ولا جرم تخلَّله جرم

يشير بذلك إلى التجلّي الإلهيّ، المُكنَّى عنه بلفظة: الخمر، التي منبعها الحبّ، وكاساتها القلوب لا الأواني، وثمنها التقوى لا الأموال. انظر: حسن البوريني وعبد الغني النابلسي، **شرح ديوان ابن الفارض**، ص١٨٧. ويقول أبو مدين الغوث، رابطًا بين الخمر والسُكر والحبّ الإلهيّ:

فقلْ للّذى يَنْهَى عن الوجْد أهلَـه إذا لم تذُقْ معنى شراب الهوى دَعْنا

إذا اهتزّت الأرواحُ شوقًا إلى اللّقا ترقَّصَتِ الأشباحُ يا جاهل المعْنى

فيَا حَادِيَ العشَّاق قُمْ واحْدُ قائمًـا وزَمْزم لنا باسم الحبيب ورَوّحْنَا

وصُنْ سرَّنا فى سُكْرنا عن حسُودنا وإنْ أنكرتْ عيناك شيئًا فسامِحْنَا

فإنَّا إذا طِبْنَا وطابت نُفُوسُنا وخامَرنا خمْرَ الغرام تَهَتَّكْنَـا

فلا تَلُم السَّكران فى حـال سُكْره فقد رُفع التَّكليفُ فى سُكْرنا عنَّا

انظر: محمد الطاهر علاوي، **العالم الربَّاني أبو مدين شعيب التلمساني**، ط١ (الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١)، ص١٦٢–١٦٣. وفي المعنى نفسه يقول عبد الغني النابلسيُّ:

وأنتَ الكأسُ والأسرارُ خمر ومجلسُكَ التُّقَى واللهُ ساقى

فما لك لا تطيرُ هوًى وسُكْرًا وقد حييت بالكأس الدّهاق

يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾[النبأ: ٣٤]. انظر: **ديوان الحقائق**، ج١، ص٣٤٢.

(٣) يوسف زيدان، «*الحلَّاج ومحاولة تفجير اللغة*،» مجلة **الهلال**، مارس ١٩٩٢، ص٤٩.

(٤) **ديوان الحلاج**، ص٧٧.

وفي المحصّلة؛ إنَّ استغراق الحلَّاج في مشاهدة أنوار «الحضرة الإلهيَّة»، وامّحاء صفاته في صفاتها – على نحو ما قال: «إنَّ المؤمن الصَّادق يصل به الأمر حتى تكون «باسم الله» منه بمنزلة «كن» من الله سبحانه» ـ دفعه لأن يطلب من الله أن يرفع ما بينهما من الحجب:

بيْني وبيْنَك إنّيٌّ يُنازِعُنِي فارْفَعْ بلُطْفِكَ إنّيّ من البَيْن [١]

لكن متى حصل ذلك، حتّى أذهب الوصل عنه العقل، وأوقعه في الصَّعق؛ على غرار ما وقع لموسى ـ عليه السَّلام ـ من قبل. فحال المحبّ – والحالة هذه – تفرض عليه أن يختار بين أمرين: إمَّا أن يفنى عن الكلّ وينصرف إلى مشاهدة وجود الحقّ به لا بالنَّفس المغايرة له، وإمَّا أن يمزج ذلك الوجود الحقَّ بصور الكائنات العدمية، بحيث تظهر موجودة بذلك الوجود الحق، الواحد الأحد [٢]. وقد آثر الحلَّاج اختيار الطريق الأول، فليس إفراد الواحد له – على نحو ما صرّح عند الصَّلب – سوى تفرُّده في السّير نحو الحقّ – جلَّ وعلا-؛ وهو ما عبَّر عنه بالقول:

لم يبق بيني وبين الحقّ تبياني ولا دليلٌ بآياتٍ وبرهان [٣]

فلمَّا استبدّ به الحال، وأوصلته طريقه إلى الاتحاد، لاحظ ـ بعين الحقيقة – الأزلية والأبدية في آنٍ معًا، وأعرض عن البين والطَّرفين؛ وتمسّك بالعروة الوثقى: «الحقيقة الإلهيَّة»، فطفق يقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرتَه وإذا أبصرتَه أبصرتنا [٤]

وقد وصف الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي (ت. ٦٣٨ه/ ١٢٤٠م) البيت الأول بأنه يجسّد: «غاية الحبّ الرّوحاني في الصُّور الطَّبيعية» [٥]. فإذا كان المحبّون ـ من أهل الطّبيعة؛ فيما يقول الدَّيلميُّ (ت. بعد ٥٨٩ه/ ١١٩٣م) – قد «تناهت محبَّتهم إلى ذهاب العقل والدَّهشة والتوحُّش، ثمَّ أدَّى ذلك منهم بهم إلى الهلاك والموت» – على غرار مجنون ليلى العامرية؛ قيس بن الملوّح (ت. ٦٨ه/ ٦٨٨م) ـ فإنَّ المحبّين الإلهيّين يتناهون: «إمَّا إلى اتحادٍ بالمحبوب، أو إلى مقام التَّوحيد؛ وهو الوصول بالمحبوب وشهود الشواهد بالشاهد المحبوب» [٦]. ولذلك قال أبو علي الدقَّاق النيسابوريّ (ت. ٤٠٥ه/ ١٠١٤م): «المحبّة لذَّة، والحقيقة دَهَشٌ»، وقال السّريُّ السَّقَطِيُّ (ت. ٢٥١هـ/ ٨٦٥م): «لا تصحُّ المحبَّة بين اثنين؛ حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا» [٧]. وبحسب الحلَّاج؛ فإنَّ ميزة الحبّ أن يكون معلنًا على رؤوس الأشهاد:

---

(١) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٨٢–٢٨٣.
(٢) **شرح ديوان ابن الفارض**، ص١٩٢–١٩٣.
(٣) **ديوان الحلاج**، ص٢٨.
(٤) **ديوان الحلاج**، ص٩٣؛ **شرح ديوان الحلاج**، ص٢٦٣–٢٦٤؛ **اللُّمع**، ص٣٦١، ٣٨٤.
(٥) ابن العربي، **الفتوحات المكية**، ج٢، ص٥١٣.
(٦) **شرح ديوان الحلاج**، ص٢٦٦.
(٧) القشيري، **الرسالة القشيرية**، ص٤٥١.

الحبُّ، ما دام مكتومًا، على خطرٍ وغاية الأمن أن تدنو من الحذرِ
وأطيبُ الحبّ ما نَمَّ الحديثُ به كالنَّار لا تأت نفعًا وهي في الحجر [١]

والبيت الثاني، الذي يشير إلى إذاعة الحبّ استمتاعًا به، يذكّرنا ببيت أبي نواس (ت. ١٩٨ه/ ٨١٤م) الشهير في شأن الخمر:

ألا فاسْقِني خمرًا وقل لي: هي الخمر ولا تسْقِني سِرًّا إذا أمكن الجهر [٢]

فشراب الحبّ يقترن بلذة تفوق كلّ وصف، فهو التجلّي الدائم الذي لا ينقطع للمحبوب. والقلب – لا العقل ولا الحسُّ – هو الكأس التي يُشْرَب بها الحبُّ. على أنَّ اللّافت في هذا الأمر؛ هو أنَّ دعوة الحلّاج للبوح بالحبّ تتناقض مع ما استقرَّ في الأدبيات الصُّوفية من ضرورة عدم إذاعة سرّ الحبّ؛ على غرار ما عبّر عنه السهروردي المقتول (ت. ٥٨٧ه/ ١١٩١م) بالقول:

وارحمتًا للعاشقين تكلّفوا سَتْرَ المحبَّة والهوى فضَّاحُ
بالسرّ إنْ باحوا تُباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تُباحُ [٣]

ولهذا سرعان ما ندم الحلّاج على بوحه هذا؛ فقال في مقطوعة جميلة له:

من ساروه فأبدى كلّ ما ستروا ولم يُراع اتّصالًا، كان غشَّاشا
إذا النفوسُ أذاعت سرَّ ما علمت فكلُّ ما حملت من غفْلها حاشا
من لم يصُن سرَّ مولاه وسيّده لم يأْمنوهُ على الأسرار ما عاشا
وعاقبوه على ما كان من زَلَلٍ وأبْدلُوه مكان الأَنس إيحاشا
وجانبوه فلم يصلُح لقربِهمُ لَمَّا رأوه على الأسرار نبَّاشا
من أطلعوه على سرٍّ فنَمَّ به فذلك مثلي بين الناس قد طاشا
هم أهل سرّ وللأسرار قد خُلِقوا لا يصبرون على من كان فحَّاشا
لا يقبلون مذيعًا في مجالسهم ولا يحبون سِترًا كان وشواشا
لا يصطفون مذيعًا بعضَ سرّهم حاشا جلالهم من ذلكم حاشا
فكُن لهم، وبهم، في كلّ نائبة إليهم ما بقي ذا الدَّهرُ هَشَّاشا [٤]

وهكذا يتقلَّب القلب من حال إلى حال، وبما أنَّ للحبّ أحكامًا كثيرة – مختلفة ومتضادّة – فليس بإمكان القلب أن يتقبَّلها إلَّا إذا انقلب معها، وتقلَّب فيها. وعلى ذلك فـ «الكأس عين المظهر، والشّراب هو

---

(١) **ديوان الحلاج**، ص٦٠. ونهاية البيت الأول "وغاية الأمن أن تدنو من الحذر" تُذكّر – بلا شك – بمقولة الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشة (ت. ١٩٠٠): "عيشوا في خطر، شيدوا مدنكم إلى جنب [بُركان] فيزوف، ابعثوا بسفنكم إلى بحار مجهولة. لأنك جعلت الخطر حرفتك؛ لذلك أدفنك بيدي". لمزيد من التفاصيل انظر كتابه: **العلم المرح**، ترجمة حسان بورقية ومحمد الناجي، ط١ (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٩٣).

(٢) **شرح ديوان الحلاج**، ص٢١١.

(٣) انظر: ابن أبي أصيبعة (ت. ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق نزار رضا، ط١ (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦)، ص٢٧٨.

(٤) **ديوان الحلاج**، ص٢٢-٣٢؛ **شرح ديوان الحلاج**، ص٢٢٦-٢٢٧.

عين الظاهر فيه، والشُّرب هو ما يحصل من المتجلّي للمتجلَّى له؛ أي للشَّارب»[١]. يقول الحلَّاج، معبّرًا عن الإيقاع الدّاخليّ المتقلّب للقلب بحسب أحوال المحبّين في الله تعالى:

إنّي ارتقيتُ إلى طَوْدٍ بلا قدمٍ ... له مَرَاقٍ على غيري مصاعيبُ
وخُضتُ بحرًا ولم يرسُبْ به قدمي ... خاضتْه روحي وقلبي منه مرعوبُ
شربتُ من مائه ريًّا بغير فمٍ ... والماءُ قد كان بالأفواه مشروبُ
لأنَّ روحي قديمًا فيه قد عطِشتْ ... والجسمُ ما مسَّه من قبلُ تركيبُ
إنّي يتيمٌ ولي آبٌ ألوذُ به ... قلبي، لغيْبَته، ما عشتُ مكروب[٢]

ضمن هذا السياق؛ مثَّل القرآن الكريم معينًا لا ينضب استلهم منه الحلَّاج – وغيره من شعراء الصُّوفية الكبار ـ عديد المعاني فيما يصوغ أشعاره المعبّرة عن «الحبّ الإلهيّ» و«الحقيقة الإلهيّة» بصفة خاصَّة. فالصُّوفيُّ يرى اللهَ باللهِ في كلّ شيء، أينما حلَّ أو ارتحل؛ وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّـهِ﴾[البقرة: ١١٥]؛ لكن غيره محجوبٌ عن رؤية الله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ١٩٨]، وإلى هذين المعنيّين أشار الحلّاج بقوله:

رأيتُ ربّي بعين قلبي ... فقلتُ: من أنتَ؟ قال: أنتَ
فليس للأيْن منكَ أيْنٌ ... وليس أينٌ بحيثُ أنتَ
وليس للوهم منكَ وهمٌ ... فيعْلم الوهمُ أين أنت؟![٣]

وقوله:

وأيُّ الأرض تخلو منك حتَّى ... تعالَوا يطلبونك في السَّماء؟
تراهم ينظرون إليكَ جهرًا ... وهم لا يُبصرون من العَمَاء![٤]

وقوله:

تاه الخلائق في عمياء مظلمةٍ ... قصدًا ولم يعرفوا غير الإشارات
بالظّنّ والوهم نحو الحقّ مطلبهم ... نحو السَّماء يُناجون السَّماوات
والربُّ بينهم في كلّ منقلَبٍ ... محلَّ حالاتهم في كلّ ساعات
وما خلَوا منه طرفَ العين، لو علِموا، ... وما خلا منهم في كلّ أوقات[٥]

وهكذا يستنزل الحلَّاج من اللغة أرّقها، ومن الشعر أعذبه، ومن الجرس الموسيقي أجلاه، ويستعمل الاستعارة والتشبيه والكناية والتمثيل، ويمتح من القرآن الكريم، ويكثّف من استعمال الرموز، فإذا بأشعاره العذبة تجد طريقها إلى القلوب، فيحاكيها بعض الشعراء، ويلحنها الموسيقيون، ويغنيها المطربون؛ لما لها

---

(١) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **الصوفية والسوريالية**، ط٣ (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦)، ص٩٧.
(٢) **ديوان الحلاج**، ص١٥–١٦؛ **شرح ديوان الحلَّاج**، ص١٥٧.
(٣) **ديوان الحلاج**، ص٤٦؛ **كتاب الطواسين**، ص١٤٦–١٤٧.
(٤) **ديوان الحلاج**، ص٣٧.
(٥) **ديوان الحلاج**، ص٤٨–٤٩.

من عميق الدلالة وقوي التأثير. فالحبُّ الإلهيُّ - المكنى عنه بالخمر - هو روح الكون وسرُّ الوجود، ولهذا اعتبر جلال الدّين الرُّوميّ (ت. ٦٧٢ه/ ١٢٧٣م) السُّلوك الصوفيَّ كلَّه «مضمَّرا في المحبَّة»[١]. يقول أبو سعيد الخرَّاز (ت. ٢٧٧ه/ ٨٩٠م)، معبّرًا عن هذه الحال:

حنينُ قلوب العارفين إلى الذّكر ... وتذكارهم عند المناجاة للسرّ
أديرت كؤوسٌ للمنايا عليهم ... فأغفوا عن الدُّنيا كإغفاء ذي السُّكر
همومهم جوَّالةٌ بمعسكرٍ ... به أهلُ وُدِّ الله كالأنْجُم الزُّهر
فأجسامهم في الأرض قَتْلَى بحبّه ... وأرواحهم في الحجب نحو العُلا تسري
وما عرسوا إلّا بقُرب حبيبهم ... وما عرجوا عن مَسّ بُؤسٍ لا ضرّ[٢]

المبحث الثانيّ

ما وراء الوراء: تمثُّلات الحقيقة في شعر الحلَّاج

فالكلُّ يشهدُه كُلًّا وأشهدُهُ ... مع الحقيقة، لا بالشَّخْص من طَلَلِهْ[٣]

استعمل المتصوفة لفظ «الخمر» للإشارة إلى حقائق الغيب المكنون، وإلى علم الحقيقة/ التصوَّف، القائم على الذوق، المستمدّ – بطبعه – من العلم اللَّدُنِيّ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]؛ فـ

من لم يذُق كأس الحقيقة وَيْحَه ... من عبد سوءٍ ذاهبٍ في نفسه
إنْ لم يُعجّل بالسُّلوك فإنَّه ... يُخشى عليه من الرَّجيم ومَسّه
علم الحقيقة وهْو يهدي للفتى ... ما لم ينلْهُ بفهْمِه أو درْسِهِ
سِرٌّ وليس يناله غيرُ امْرئٍ ... في الله هذا في النَّهار وأمسِه
قد ذاق في حان المحبَّة أكْؤُسًا ... أضحى بها متقلّبًا في أنْسِهِ[٤]

ضمن هذا السياق؛ تتجلَّى - في سكرة الموت التي تشبَّع بها الحلَّاج طيلة حياته - سكرةُ «الحقيقة الإلهيَّة»، التي كنَّى عنها بـ «الخمرة». وتحت وطأة الإحساس بالسُّكر، لم يملك الحلَّاج سوى البوح بسرّه لمعشوقه؛ فرحًا حينًا، شاكيا أحيانًا:

الكأس سهَّلت الشَّكوى، فبُحتُ بكم ... وما على الكأس شُرَّابها دَرَكُ
هبني ادّعيتُ بأنّي مُدْنَفٌ سَقِم ... فما لمضجع جنبي كأنَّه حسَكُ

---

(١) انظر: جلال الدين الرومي، **كتاب فيه ما فيه: أحاديث مولانا جلال الدين الرومي شاعر الصوفية الأكبر**، ترجمه عن الفارسية علي عيسى العاكوب، ط١ (بيروت: دار الفكر المعاصر – دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢)، ص٢٩٨.

(٢) حسن الفاتح قريب الله، **المفهوم الرمزيّ للخمر عند الصوفية**، ص١٦٦.

(٣) **ديوان الحلاج**، ص٨٢.

(٤) حسن الفاتح قريب الله، **المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفية**، ص١٨١.

هجرٌ يسوءُ ووصْلٌ لا أسَرُّ به ما لي يدورُ بما لا يشتهي الفلَكُ
فكلّما زاد دمعي زادني قلقًا كأنَّني شمعةٌ تبكي فتَنْسَبِكُ [١]

والحال أنَّ تجربة الحلَّاج الصُّوفية تعدُّ من أكثر التجارب مأساوية؛ ليس فقط بالنَّظر إلى واقعة استشهاده، ولكن بالنَّظر إلى إعلائه من شأن «الحقيقة» في كلّ مواقف حياته، وصولًا إلى نطقه بالشَّطحة الشَّهيرة: «أنا الحقّ». وتبعًا لذلك؛ لا يمكننا أن نفهم ذلك الوجد العارم الذي عبَّر عنه الحلَّاج: شعرًا ونثرًا؛ مناجاةً ودعاءً وشطحًا، إلَّا على أنَّه إحساس هائل بالتَّناقض، أو معاناة لمأزق لا فكاك منه، وتعبير عن الأزمات الشَّخصية التي كان يواجهها في زمانه. فقوَّة التصوُّف الإسلاميّ لا تكمن في ذلك «الانعزال المترفّع المحزون الذي فيه يصيح المجذوب؛ بل هي في الشَّوق الخارق إلى التَّضحية في سبيل إخوانه؛ في الوجد العالي للاستشهاد الذي تغنَّى به الحلَّاج» [٢]، قائلًا:

اقتلوني يا ثقاتي إنَّ في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي [٣]

لقد اعتبر الحلاج نفسه صورة وتجليًّا أسمى للحقّ – ومن ثمّ للحقيقة الإلهية – وفي حين يتعذَّر على الشخص العادي أن يصل إلى كُنه تلك الحقيقة؛ يصبح بإمكانه التعرُّف عليها من خلال آثارها «إن لم تعرفوه [الله] فاعرفوا آثاره، وأنا ذلك الأثر. أنا الحق؛ لأنني ما زلت أبدًا بالحقّ حقًّا، وإن قُتلتُ، أو صُلبتُ، أو قُطّعتْ يداي ورجلاي، ما رجعتُ عن دعواي» [٤].

خصَّني واحدي بتوحيد صدق ما إليه من المسالك طَرْقُ
فأنا الحقُّ، حُقَّ للحقّ حقٌّ لابسٌ ذاتَه فما ثَمَّ فرقُ [٥]

وعند هذا الحدّ تمحى الحدود، وتنقلب المعاني إلى أضدادها تمامًا؛ على غرار ما عبّر الحلَّاج عن ذلك بالقول:

جحودي لك تقديسٌ وظنّي فيك تهويس
وما آدم إلّاكَ ومَنْ في البَيْن إبليس [٦]

---

(١) **ديوان الحلاج**، ص١١٤. ومدْنَف من الدَّنَف؛ وهو: مرض الحبّ، أو العشق الملازم الذي لا شفاء منه. والحسَك: الشَّوك.

(٢) عبد الرحمن بدوي، **تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني**، ط ٢ (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٨)، ص٢٤. وانظر أيضا: عبده وازن، «*إن يشأ يمشي على خدي مشى*،» **أدب ونقد** (حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي)، السنة ١٧، العدد ١٩١ (تموز/ يوليو ٢٠٠١)، ص٤٥.

(٣) **ديوان الحلاج**، ص٣٣-٣٤.

(٤) وهذا المعنى أكّده فريد الدين العطار في كتابه: **تذكرة الأولياء**، حين قال: "ومن العجب أنهم يسمعون كلام الله من الشجرة بأني "أنا الله لا إله إلا هو"، ويقولون: قال الله تعالى كذا ولا ينسبونه إلى الشجرة، وأنهم يسمعون من شجرة وجود ابن منصور: "أنا الحق"، ويقولون: قال ابن منصور كذا، ولا يقولون: إنَّ الله تعالى قال كذا بلسان الحلَّاج؛ كما رُوي أن الله تعالى تكلّم بلسان عمر، ولا حلول ولا اتحاد". انظر: **كتاب الطواسين**، ص١١٨.

(٥) **ديوان الحلاج**، ص٧٥.

(٦) **ديوان الحلاج**، ص٦٤-٦٥؛ **شرح ديوان الحلاج**، ص٢٢٠.

فما يبدو أنه جحود؛ أي نكرانًا مع علم الجاحد به أنَّه صحيح: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النحل: ١٤]، ليس في الحقيقة سوى تقديسٌ للحقيقة الإلهية؛ أي إيمانًا باسم الله «القدُّوس»، بمعنى: الغاية في الطَّهارة. وذلك على عكس «التَّلبيس»، الذي يعني: سَتْر الحقيقة وإظهارها بخلاف ما هي عليه؛ فلسان الغيب يجلُّ عن النُّطق:

ظهرتَ لخلقٍ والتبستَ لفتية ... فتاهوا وضلّوا واحتجبتَ عن الخلق
فتظهرُ للألباب في الغرب تارةً ... وطورًا عن الأبصار تغربُ في

فالبعد والقرب واحد؛ لأنّ الموجود على وجه الحقيقة واحد، وهو أقرب إلى كلّ شيء – بَعُد أو قَرُب – من حبل الوريد: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ لارتفاعه عن النِّسب المكانية. يقول الحلَّاج، معبّرا عن حاله إزاء هذه الحقيقة:

ركوب الحقيقة للحقّ حقٌّ ... ومعنى العبارة فيه يَدِقُّ
ركبتُ الوجودَ بفَقْد الوجو ... دِ، وقلبي على قسوةٍ لا يَرِقُّ [٢]

إنَّ التماهي مع «الحقيقة الإلهية» يحيل إلى اغتراب العارف عن الوجود، فينطوي على ذاته منصرفًا نحو تعميق أناة داخل قلبه، الذي يجسّد بدوره «بؤرة النور الإلهيّ، ثم يُعمّق أنا القلب هذا داخل صميم سرّه حيث تستعيد شخصيته مبدأها؛ أي فعل الخلق الذي يمنحها كينونتها» [٣]. هنالك ـ في أعمق عمائق «سر السرّ» ـ يمكنه فقط أن يشهد «الحقيقة الإلهيَّة» في أسمى تجلّيها:

يا سرّ سرّ يَدِقُّ حتّى ... يخفى على وهم كلّ حيّ
وظاهرًا باطنًا تجلّى ... لكلّ شيءٍ بكلّ شيء
إنَّ اعتذاري إليك جهلٌ ... وعُظْمُ شكٍّ وفَرْطُ عَيّ
يا جملة الكلّ، لستَ غيري ... فما اعتذاري – إذًا – إليّ [٤]

ولأنَّ اللغة قاصرة عن التعبير دومًا؛ يلجأ الحلاج لِما يبدو أنه تلاعب بالألفاظ في شعره؛ على غرار قوله:

قد قام بعضي ببعض بعضي ... وهام كلّي بكلّ كلّي [٥]

وقوله:

وللكون في الأكوان كون مكوّنٌ ... يكنُّ له قلبي ويهدى ويختار [٦]

---

(١) **ديوان الحلاج**، ص٧٧–٧٨؛ **أخبار الحلاج**، ص٨٣–٨٤، **كتاب الطواسين**، ص١٣٥.

(٢) **ديوان الحلاج**، ص٧٦.

(٣) روجيه أرنالديز، **الحلاج: السعي إلى المطلق**، ترجمة: مجموعة البحث عن المطلق بإدارة ج.هـ. رادكوسكي، ط١ (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١)، ص٧٥.

(٤) **ديوان الحلاج**، ص١٠٣.

(٥) **ديوان الحلاج**، ص٨١.

(٦) **ديوان الحلاج**، ص٥٩.

فإذا كان الرَّمز عبارة عن «معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلَّا أهلُه»، والشَّطح عبارة عن «كلام يُترجمه اللسانُ عن وجد» [١]؛ فإنَّ البحث عن المعنى المباشر ما هو إلَّا «استهلاكٌ للكلام الإلهيّ، واختزالٌ لإطلاقِه، وبناءٌ للذَّات المفكّرة على حسابه. فالصُّوفيُّ يتلقَّى هذا المعنى عن الله مباشرة، دون وساطة النَّظر العقليّ. وهنا يلتقي الإلهامُ الصُّوفيُّ بالحدس الشّعريّ، وهي لحظة تتطلَّب لغتها الخاصَّة التي تجمع بين التَّجربتين على قاعدة هذا التحوُّل الذي يتحقَّق في المشترك الشعريّ الصُّوفيّ من خلال نشاط اللُّغة الرَّمزية؛ أي من خلال الانتقال باللُّغة العادية المُتناهية إلى منطق الصُّورة الرَّمزية» [٢]، وذلك للتَّعبير عن شيء من «الحقيقة الإلهيَّة»، التي يتلقَّاها الصُّوفيُّ عن الله تعالى مباشرة، فيميل – أو بالأحرى: يضطرُّ – إلى استعمال التَّجريد؛ كما في قول الحلَّاج:

لبيّك، لبيّك، يا سرّي ونجوائي ... لبيّك، لبيّك، يا قصدي ومعنائي
أدعوك، بل أنتَ تدعوني إليكَ، فهل ... ناديتُ إيَّاكَ، أم ناديتَ إيَّائي؟
يا عينَ عينِ وجودي، يا مدى هِمَمي ... يا منطقي، وعباراتي، وإيمائي
يا كُلَّ كُلّي، يا سمعي، ويا بصري ... يا جُملتي، وتباعيضي، وأجزائي
يا كُلّ كُلّي، وكلُّ الكُلّ مُلْتَبِسٌ ... وكُلُّ كُلِّكَ ملبوسٌ بمعنائي
يا من به عَلِقَتْ روحي، فقد تَلِفَت ... وَجْدًا فصِرْتُ رهينًا تحتَ أهوائي [٣]

ففي هذه القصيدة الفريدة، يناجي الحلَّاج محبوبه وهو في غمرة وجده، فإذا مناجاته عبارة عن نداء ودعاء، ثمَّ كأنَّما يفيق من هذه الغمرة الشّديدة، فيرثي نفسَه، وينوّه بشغفِه، فإذا بالقصيدة ـ كلّها ـ تتحوَّل إلى لغة إشارة، ومحض إيماء، يقع مجالهما خارج كلّ حرفٍ؛ كما قال ابن سوار (ت. ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م):

في القلب سِرٌّ لليلى لو نطقتُ به ... حَرْفًا؛ لَأَفْنَوا بكُفري بعد إيماني
إنْ غَيَّبَتْ ذاتَها عنّي، فلي بصرٌ ... يرى محاسنها في كلّ إنسان [٤]

ولمَّا كانت العبارة موضوعة للإحاطة بالفكرة، وكانت الفكرة هنا أعلى وأجلّ من أن تُحْصَر وأن تُحَدَّ ومن أن يُحاط بها؛ لجأ الحلَّاج إلى استعمال الرَّمز [٥]، فاستطرد قائلًا:

---

(١) السراج الطوسي، **اللُّمع**، ص٣٣٨.

(٢) وفيق سليطين، **الشعر والتصوف**، ص٣٢. وهذا التلقّي المباشر عن الله تعالى، هو ما أشار إليه أبو يزيد البسطاميُّ (ت. ٢٦١هـ/ ٨٧٤م) بالقول لأحد الفقهاء: «أخذتم علمكم ميتًا عن ميّت، وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت». ابن العربي، **الفتوحات المكية**، ج١، ص٣٦٥.

(٣) **ديوان الحلاج**، ص١١؛ **شرح ديوان الحلاج**، ص١٤٦–١٤٧. والتباعيض: من الفعل "بَعَضَّهُ"؛ أي جَزَّأَهُ إلى عدة أجزاء. والدَّنَف: مرض الحب أو العشق الملازم الذي لا شفاء منه. واللَّجاجة: الإلْحَاحُ، العِنَادُ؛ "لَجاجة في غير محلّها"؛ أي: مُواظبة على الطَّلَب بإصْرار وعِناد، إلحاح.

(٤) ابن سوار (أبو المعالي محمد بن سوار الشيبانيّ المتوفَّى سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، **ديوان نجم الدين بن سوار الدمشقيّ (٦٧٧هـ)**، تحقيق محمد أديب الجادر، سلسلة مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق؛ مجلد: ٧–٨ (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٤٣١هـ– ٢٠١٠م)، ص٢٤٠.

(٥) لمزيد من التفاصيل حول مركزية الرَّمز في الشّعر الصُّوفيّ، انظر: عبد الكريم اليافي، **التعبير الصُّوفي ومشكلته**، ط١ (دمشق: منشورات جامعة دمشق، ١٤٢٠–١٤٢١هـ/ ١٩٩٩–٢٠٠٠م)، ص٧١–٩٠؛ نذير العظمة، **المعراج والرمز الصُّوفيّ: قراءة ثانية للتراث**، ط١ (بيروت: دار الباحث،

إنّي لأرْمُقُه، والقلبُ يعرفهُ ... فما يُترجم عنه غيرُ إيمائي
يا ويحَ روحي من روحي، فواأسفي ... عليَّ منّي، فإنّي أصلُ بلوائي
كأنَّني غَرِقٌ تبدو أناملهُ ... نعوشًا، وهو في بحرٍ من الماءِ
وليس يعلمُ ما لاقيتُ من أحدٍ ... إلّا الذي حلَّ منّي في سُويدائي
فهو العليم بما لاقيتُ من دَنَفٍ ... وفي مشيئته موتي وإحيائي
يا غايةَ السُّول والمأمُول، يا سَكَني ... يا عيش روحي، يا ديني ودُنيائي
قلْ لي – فديتُكَ -: يا سمعي، ويا بصري ... لِمْ ذي اللّجاجة في بُعْدي وإقصائي
إنْ كنتَ بالغيب عن عينيَّ مُحتجِبًا ... فالقلبُ يرعاك في الإبعاد والنائي [١]

وكيفما كان الأمر، فقد اختزن شعر الحلَّاج الخبرةَ المؤسَّسة على كلّ من الكشف والتجلّي الإلهيّ، ممَّا أكْسَبَ الألفاظ العادية معنًى جديدًا، حيث الموجودات عبارة عن صور رمزية تحيل – في الأصل – على المعاني أو «الحقيقة الإلهية». وتبعًا لذلك؛ فإنَّ مغامرة الحلاج الشَّعرية – التي تقاطعت مع مأساته الشَّخصية – «لا ينحصر همُّها، ولا يقتصر خوض تجربتها، في [مجرد] التَّسمية؛ وإنَّما في تلك القدرة على جعل ذلك الجانب المُعْتَم من الكينونة يُفصح عن غيابه من دون أن يخون، أو يتنكّر لجذره الأصليّ» [٢]؛ ذلك الجذر الإلهيّ الذي ترسّب في الذات البشرية منذ أن توجَّهت إليها الذَّات العليّة – فيما لا تزال في الذَّرّ - بسؤال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

كفى حزنًا أنّي أناديكَ دائبًا ... كأنّي بعيدٌ، أو كأنَّك غائبُ
وأطلبُ منك الفضلَ من غير رغبةٍ ... فلم أرَ قبلي زاهدًا وهْوَ راغبُ [٣]

المبحث الثالث

السّمات الفنية في شعر الحلَّاج: الرّمز والمعنى

«ترفض بعض الأعمال أن تنفتح لنا ... حتَّى تنضج بما فيه الكفاية» [٤].

تهتم «الأسلوبية» بدراسة النصّ الأدبيّ دراسة وصفية، فتحلّله بمعزل عن العوامل الخارجة عنه، وتسلّط الضوء على مجموعة من السّمات - أو الأنماط - التي تتجاوز وظيفة الإبلاغ، وتدرس – تبعًا

١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م)، ص٣٩-٥٧؛ عاطف جودة نصر، **الرمز الشعري عند الصُّوفية**، ط١ (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – دار الكندي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٨)، ص٣٢٧-٣٨٣.

(١) **ديوان الحلاج**، ص١٢-١٣.

(٢) جورج نوننمشار، **دلالات الأثر، يليه: أكوان فون كوخ المجاورة**، ترجمة عبد العزيز بن عرفة، ط١ (اللاذقية: دار الحوار، [١٤١٣هـ-] ١٩٩٢)، ص٢٢.

(٣) **ديوان الحلَّاج**، ص٤٤.

(٤) روبرت شولز، **السيمياء والتأويل**، ترجمة سعيد الغانمي، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٤)، ص٦٨.

لذلك ـ كلَّ ما يؤدّي وظيفة أدبية أو جمالية. وهكذا تنبسط «الأسلوبية» على رقعة اللُّغة كلّها؛ إذ إنَّ «جميع الظواهر اللغوية ـ ابتداء من الأصوات حتَّى أبنية الجمل الأكثر تركيبًا ـ يمكن أن تشفَّ عن لمحة من حياة الفكر بأكملها، منظورًا إليها من زاوية خاصَّة» (١). والواقع أنَّ **لغة الحلَّاج** تنفرد بمجموعة من السّمات المميّزة لها: سواء على مستوى الصُّورة الشّعرية (٢)، أم على مستوى الإيقاع، إذ تنتظم الأصوات فيها وفقًا لأنساق مطّردة موسيقيًّا تتناسب مع كون الإيقاع «من مصطلحات علم الموسيقى، لا من مصطلحات علوم اللُّغة بوجه عام، ولا من مصطلحات علم العروض وكتب نقد الشّعر القديمة بوجه خاص» (٣).

وعلاوة على ذلك؛ يمكننا النَّظر إلى «مأساة الحلَّاج» بوصفها تعبيرًا عن مأزق ـ أو أزمة ـ اللُّغة الصُّوفية، التي سعت إلى نحت قاموسها الخاصّ بها، عن طريق تفجير اللُّغة حينًا (٤)، وتطويع القوالب الشَّعرية حينًا آخر (٥)، من أجل التَّعبير عن جملة الأحوال والمواجيد التي يعاينها – ويعانيها – صاحب التَّجربة الصُّوفية. فكل قول ينطق به صاحب الحال – خاصَّة عند السُّكْر ـ ما هو إلَّا اندفاعٌ غير مقيَّد بقيود اللُّغة أو غيرها (٦). يقول الحلَّاج:

---

(١) شارل بالي، «*علم الأسلوب وعلم اللغة العام*»، ضمن كتاب: **اتجاهات البحث الأسلوبي**، اختيار وترجمة شكري عياد، ط١ (الرياض: دار العلوم، ١٩٨٥)، ص٣١. وانظر أيضًا: جورج مونان، **مفاتيح الألسنية**، ترجمة الطيب بكوش، ط١ (تونس: منشورات جديدة، ١٩٨١)، ص١٢٣.

(٢) الصورة الشعرية هي عمليّة تفاعل متبادل بين الشاعر والمُتلقِّي للأفكار والحواس، من خلال قدرة الشاعر على التعبير عن هذا التفاعل بلغة شعريّة تستند مثلاً إلى المجاز، والاستعارة، والتشبيه؛ بهدف استثارة إحساس المُتلقِّي واستجابته. أمَّا العناصر التي تتكوّن منها الصورة الشعريّة؛ فتتمثّل في: اللغة، والموسيقى، وما تشتمل عليه من: وزن، وقافية، وإيقاع، وإيحاء. وتتمثَّل كذلك في: الخواطر، والأحاسيس، والعواطف. لمزيد من التفاصيل انظر: علي الخرابشة، «*وظيفة الصورة الشعرية ودورها في العمل الأدبي*»، **مجلة الآداب**، العدد: ١٠٩–١١٠، ٢٠١٤، ص٩٧–١٠٩. ومن مقاطع الحلَّاج التي تتضمن صورًا شعرية أخَّاذة؛ قوله على سبيل المثال:

حمَّلتمُ القلب ما لا يحمل **البَدَنُ** ... والقلبُ يحمل ما لا تحمل **البُدُنُ**
يا ليتني كنتُ أدْنَى من يلوذُ بكم ... عينًا لأنظُركُم، أو ليتني أُذُنُ

ديوان الحلَّاج، ص٩٧–٩٨.

(٣) محمد الهادي الطرابلسي، «*في مفهوم الإيقاع*»، **حوليات الجامعة التونسية**، العدد: ٣٢، ١٩٩٩، ص١٢.

(٤) بحسب يوسف زيدان؛ فإنَّ تفجير اللغة عند الحلَّاج يعني: سعيه للتخلُّص التَّام من أساليب الصّياغة اللغوية الشَّائعة في عصره، وطموحه الكبير إلى استبدال اللفظ الذي اهتُرئ من كثرة التداول، بلفظ يتخلَّق بحرية خلال السّياق الجديد. وقد تجلَّى هذا التفجير للُّغة السَّائدة، كما تجلَّى اكتشاف الحلَّاج لمعدن اللُّغة الصُّوفية الجديدة، في النصّ الذي كتبه الحلَّاج في سجنه – وهرَّبه تلاميذه – والذي يعدُّ واحدًا من أروع النُّصوص الصُّوفية على الإطلاق؛ ألا وهو: **كتاب الطواسين**. ففي هذا الكتاب يفجّر الحلَّاج كلَّ التراكمات اللغوية والدّلالية، ليعود بها إلى أصل اللغة: الحرف، وإلى التجلّي الأتمّ لها: القرآن الكريم. انظر: يوسف زيدان، «*الحلَّاج ومحاولة تفجير اللغة*»، ص٤٧ وما بعدها.

(٥) يقول عبد الحكيم حسَّان تحت عنوان «وثبة الحلَّاج بالشّعر الصُّوفيّ»: «إنَّ قيمة الحلَّاج ومنزلته بين شعراء الصُّوفية في القرن الثالث [الهجريّ/ التاسع الميلادي] تجلَّت بوضوح في خصائص له لم يشاركه فيها أحدٌ من هؤلاء الشُّعراء؛ يمكن إجمالها في النّقاط التَّالية: ١– تشقيق الموضوعات والتَّجديد فيها. ٢– الإلمام بموضوعات التصوُّف وتحديدها. ٣– طول القصيدة ووحدتها في موضوعها. ٤– صراحة الأسلوب. ٥– تحديد الصُّورة الشَّكلية للشّعر الصُّوفيّ». انظر: عبد الحكيم حسان، **التصوف في الشعر العربي الإسلامي: نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري**، تقديم وتعليق عقبة زيدان، ط١ (دمشق: دار العرب للدراسات والنشر والترجمة – دار نور للدراسات والنشر والترجمة، ٢٠١٠)، ص٣٦٦–٣٦٩.

(٦) إذا كانت اللغة عند فرديناند دي سوسير (١٨٥٧–١٩١٣) تشكّل نظامًا من الإشارات التي تعبّر عن الأفكار؛ فإنَّه من الصعوبة بمكان دراسة لغة المتصوفة إلَّا بعد معرفة آلية تكوُّن الألفاظ والجُمل، والرجوع إلى التجربة الصوفية ذاتها. فالنصُّ الصُّوفيُّ لم يتكوَّن بفضل إجهاد عقلاني، وتخطيط

كفاك بأنَّ السُّكْرَ أوجد كُرْبتي فكيف بحال السُّكْر، والسُّكْرُ أجْدَرُ
فحالاك لي حالان: صحوٌ وسَكْرَةٌ فلا زلتُ في حالَيَّ أصْحُو وأسكرُ [١]

ومن هنا تتأتَّى خطورة الشَّطح الصُّوفيّ المنفلت من كلّ عقال؛ فكلُّ قول يصدر – والحالة هذه ـ هو «قول مفرط لا يقاس، يُخْرِج بمجرد وجوده، ويُحدث في حائط اللُّغات ثغريْن ينساب منهما نورٌ آخر من عالم آخر هو الآن ذاته، ووظيفة اللُّغة: التوسُّط بين العالمين؛ شأنها في ذلك شأن المَلَك الذي يؤدّي الرّسالة» [٢].

والحال أنَّ الحلَّاج لم يقف في تجاربه الشّعرية عند حدٍّ ما، وإنَّما انجرف مع الشّعر من دون خوف أو حذر، تاركًا الإيقاع ـ وحده ـ يقوده نحو دليل إدانته. ونعني بذلك استخدامه تعابير من مثل: «النَّاسوت» و«اللاهوت» ذات الصّبغة المسيحية، إضافة إلى استخدام ألفاظ من قبيل: «الاتحاد» و«الحلول» في أشعاره ونثره؛ ومن قبيل ذلك قوله:

سبحان من أظهر ناسوتُه سرَّ سنا لاهوتِه الثّاقب
ثمَّ بدا في خلقه ظاهرًا في صورة الآكل الشَّارب
حتَّى لقد عاينه خلقُه كلحظة الحاجب بالحاجب [٣]

وقال ـ معبّرًا عن لوعة العشق والاتحاد، وعن سريان المحبوب الإلهيّ فيما بين القلب وما يُغلّفه (الشّغاف)، وتشبيه ذلك بانسياب الدَّمع من الجفن المغلِّف للعين ـ:

أنتَ بين الشّغَافِ والقلب تجري مثل جَرْي الدُّمُوع مِنْ أَجْفَانِي
وتُحِلُّ الضَّميرَ جَوْفَ فؤادي كحُلُولِ الأرواحِ في الأبدانِ
ليس من ساكنٍ تحرَّك إلّا أنتَ حرَّكْتَهُ خَفِيَّ المكان
يا هِلالًا بدا لأربعِ عَشْرٍ فثمَانٍ وأربعٍ واثنتانِ [٤]

فالمقصود بالهلال ذي الأربع عشرة في البيت الأخير: كمال الجماء، إشارة إلى الجمال الإلهيّ الكامل الذي تتوجَّه إليه قلوب الأكوان جميعًا بالعشق والعبادة. كما أنَّ هذه الصُّورة معبّرة – صوفيًّا ـ عن فكرة امتلاء المحبّ بالمحبوب (الله)، الذي هو في الحقيقة: حقيقةُ كلّ شيء [٥]. ورمزية الهلال المكتمل – بوصفها

إنشائي مسبق؛ بل من استعداد روحي وراء النَّظر العقليّ. انظر: شريف هزّاع شريف، **نقد/ تصوف: النص – الخطاب – التفكيك**، ط١ (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٨)، ص٧٣.

(١) **ديوان الحلَّاج**، ص٥٥.

(٢) سامي علي، «*شعرية التصوف في شعر الحلَّاج*»، مجلة **مواقف**، العدد: ٥٧، ١٩٨٩، ص١١.

(٣) **ديوان الحلاج**، ص٤١.

(٤) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٧٤–٢٧٥.

(٥) يوسف زيدان، «*الحلَّاج ومحاولة تفجير اللغة*»، ص٤٥.

معبّرة عن الحقّ – تتواتر في الأدبيات الصُّوفية؛ على غرار ما قال عبد الرحمن الجامي (٨١٧-٨٩٨هـ/ ١٤١٤-١٤٩٢م)، في المثنويّ الفارسيّ:

چهارده ساله بتی برلب بام	چون مه چارده، در حسن تمام
بر سَرِ سَرْو، كُلَه گوشَهْ شكَسْت	بر گل أز سَنْبُل تَرْ، سلسله بست
داد هنكامهْ معشوقي ساز	شيوه جلوه گيرى كردْ آغاز [١]

ومعناه:

وصنمٍ ذي أربع عشرة على سطح سقفٍ	وفي تمام الحُسن مثل قمر الأربع عشرة
وضع على جانب رأسه تاجًا مُزيّنًا	وتَمَنْطق بنطاقٍ من السُّنْبُل الغَصّ
أخذ العودْ وهاج فَيْ العُشَّاق	فبدأ بذلك جمالُه يعمل عمله [٢]

لقد توصَّل الحلَّاج، بفضل مجاهداته الرُّوحية المضنية، إلى التحقُّق بالوحدة الإلهية التي لا يتأتَّى للمرء أن يحقّق ذاته بها إلَّا من خلال هذا الشَّوق الإلهيّ، وهذا الوجد العارم، وهذا الحبّ الشَّامل كلَّ حبّ آخر، الماحق كلَّ تعبير عن وهم الوجود الحسّي[٣]. ومن هنا، تبدو لغة الحلَّاج الشّعرية أشبه بانفجار يحمله روح الكون إلى روح «القطب»، فيغمر الوجدان، ويوقد في الباطن ثورة متأجّجة. فاللُّغة الشّعرية الصُّوفية تعبّر - في جوهرها ومضمونها - عن مكنون «الحبّ الإلهيّ»، الذي هو سرُّ كلّ تجدُّد أو «نَوْرَزَة» - على حدّ تعبير الحلَّاج -[٤]. ولا تتحقَّق هذه «النَّوْرَزَة» إلَّا بامّحاء الذَّات البشرية، والامتحاق الكليّ في الملكوت الإلهيّ، حيث يتَّحد المعشوق بالعاشق، وينقسم الموموق للوامق، فيما يقول الحلَّاج[٥].

---

(١) العيناثي العاملي (ت. ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م)، **آداب النفس**، تحقيق السيد كاظم الموسويّ المياميّ، ط١ (بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م)، ص١٠٤.

(٢) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٧٦.

(٣) انظر: سامي مكارم، **الحلَّاج: في ما وراء المعنى والخط واللون**، ط٢ (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، آب/ أغسطس ٢٠٠٤)، ص٤١.

(٤) قال أحمد بن فاتك: «كنَّا بنهاوند مع الحلَّاج وكان يوم النيروز، فسمعنا صوت البوق، فقال الحلَّاج: أيُّ شيءٍ هذا؟ فقلت: يوم النيروز. فتأوَّه وقال: متى نُنَورَز؟ فقلت: متى تع ني؟ قال: يوم أُصلَب! فلمَّا كان يوم صلبه – بعد ثلاث عشرة سنة – نظر إليَّ من رأس الجذع وقال: يا أحمد! نُورِزْنا. فقلت: أيُّها الشَّيخ، هل أُتْحِفْتَ؟ [أي: هل تلقّيت هدايا النيروز؟] فقال: بلى! أُتْحِفتُ بالكشف واليقين، وأنا ممَّا أُتْحِفْتُ به خَجِلٌ؛ غير أنّي تعجَّلتُ الفرح». ابن الساعي، **أخبار الحلَّاج**، ص٢٧.

(٥) يقول في الدّيوان:

اتّحد المعشوقُ بالعاشق	انقسم المَوْمُوقُ للوامِق
واشترك الشَّكلان في حالةٍ	وامْتَحَقَا في العالَم الماحِق

شرح ديوان الحلَّاج، ص٢٤٧. والموموق والوامق من المِقَه؛ وهو الحبّ. والشَّكلان – بفتح الشين وكسرها – هما الشبيهان والمثيلان. والمَحْقُ في الاصطلاح الصوفيّ هو: فناء وجود العبد في ذات الحقّ تعالى، كما أنَّ المَحْوَ: فناء أفعاله في فعل الحقّ سبحانه. أمَّا الطَّمْسُ؛ فهو فناء صفات العبد في صفات الحقّ.

والحقُّ أنَّ الحلَّاج نجح بجدارة في أن يكوّن لنفسه رصيدًا شعريًّا وازنًا، أهَّله لاقتحام النُّصوص من زاوية الباطن، وليس أدلَّ على ذلك من جاذبية هذا الخطاب أدبيًّا، بحكم أنَّه نصٌّ واعد، يكشف «عن انتمائه المراوح لسلالة الثقافة الإسلامية المتميزة في صلبه، لا على سبيل مجرد أَسْلَبَة التصوُّف واتّخاذه قناعًا تعبيريًّا، وإنَّما من قبيل تهييج التذكُّر وتوظيف العناصر الحيَّة في الميراث الأنثربولوجيّ العظيم» [١]. ولهذا تحتلُّ المفردات الدالة على الذكر والدعاء والمناجاة حيّزًا واسعًا في قاموسه الشعريّ المعبّر عن الشوق إلى حضرة الجمال الإلهي؛ ومن قبيل ذلك قوله:

إذا بلغ الصَّبُّ الكمالَ من الهوى ... وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
يشاهد حقًّا حين يشهده الهوى ... بأنَّ كمال العاشقين من الكفر [٢]

ومن شأن هذا التقابل بين لفظتي «الذكر» و«الكفر»، أن يحيل إلى فكرة غياب الذاكر – في الذكر - عن المذكور، عوض أن يغيب في المذكور! وهنالك يحتجب المعشوق بحجاب اسمه، فيحوّلُ العشق إلى الاسم لا إلى الذات، وإلى الرسم لا إلى المعنى:

أنتَ المُوَلِّهُ لي لا الذّكر ولّهني ... حاشا لقلبي أن يعلو به ذكري
الذّكر واسطةٌ تُخفيك عن نظري ... إذا توشَّحه في خاطري فكري [٣]

فالذكر – باعتباره وسيلة لا غاية في حدّ ذاته – يفترض أن يظلَّ دافعًا قويًّا يُغذّي في الذَّاكر الشوقَ للمحبوب، ومتى تحقَّق هذا الشَّرط الضروريُّ؛ ذاب العاشق في المعشوق؛ كما أخبر الحلَّاج بالقول:

إذا ذكرتُكَ كاد الشوقُ يُقلقني ... وغفلتي عنك أحزانٌ وأوجاعُ
وصار كُلّي قلوبًا فيكَ داعيةً ... للسّقم فيها وللآلام إسراعُ
فإنْ نطقتُ فكلّي فيكَ ألْسِنَةٌ ... وإنْ سمعتُ فكُلّي فيكَ أسماعُ [٤]

وإلى هذا المعنى أشار حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت. ٥٠٥هـ/ ١١١١م)، بالقول:

إذا غبتَ عنّي كنتُ عندكَ حاضرًا ... ومن عجبٍ أنَّ غيبتي فيكَ حضرتي؟
ملأتُ جهاتي السّتَّ منكَ فأنتَ لي ... محيطٌ، وأيضًا أنتَ مركزُ نُقطتي [٥]

إنَّ مناجاة الحلَّاج - الشّعرية والنَّثرية على حدٍّ سواء [٦] - تعدُّ من أرفع وأروع الأدبيات الصُّوفية المعبّرة عن شدَّة الافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ، وغلبة الشَّوق إليه ومكابدة الحنين في العشق. أضف إلى ذلك

---

(١) صلاح فضل، **أساليب الشعرية المعاصرة**، ط١ (القاهرة: دار الآداب، ١٩٩٥)، ص٣٣٤.

(٢) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص١٩٦. وفي رواية أخرى: «بأنَّ صلاة العارفين من الكفر».

(٣) **ديوان الحلَّاج**، ص٥٠.

(٤) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٣٦.

(٥) أبو حامد الغزالي، **معارج القدس في مدارج معرفة النفس**، ط١ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨)، ص٢٠٢.

(٦) من جميل مناجاته، الدعاء الذي دعا به ليلة صلبه، وفيه يقول: «نَحَنُ بشَوَاهِدِكَ نلُوذُ وبِسَنَا عِزَّتِكَ نَسْتَضِئ لِتُبْدِى لَنا مَا شِئْتَ مِنْ شَأْنِكَ وأَنْتَ الذِى فِى السَّماءِ عَرْشُكَ وأَنْتَ الذِى فِي السَّماءِ إلَه وفِى الأرضِ إلَه.. تَجَلَّى كَمَا تَشَاء مِثْل تَجَلِّيكَ فِي مَشِيئَتِكَ كأَحْسنِ صُورَةٍ، والصُّورَةُ هِىَ الرُّوحُ النَّاطِقَةُ الذِى أَفْرَدْتَهُ بالعلمِ (والبيَانِ) والقُدرَةِ. وهَؤلاءِ عِبَادُكَ قَدْ اجْتَمَعُوا لِقَتْلِى تَعَصُّباً لدِينكَ وتَقَرُّباً إلَيْكَ، فاغْفِرْ لَهُمْ! فإنكَ لَوْ كَشَفْتَ لَهُمْ مَا كَشَفْتَ لِى،

أيضًا، ما تنطوي عليه أشعار الحلَّاج من تكثيف للمعنى وثراء للمضمون اللغويّ، ناهيك عن جماليات التَّعبير عن امتزاج روح العاشق بالمعشوق عند تحقُّق الوصال، وشدَّة يأسه في حال القطيعة والهجْران؛ وهو ما تُعبّر عنه المقطوعتان التاليتان على التوالي؛ إذ يقول معبّرًا عن اتحاده بالمحبوب في أولاهما:

والله ما طلعت شمسٌ ولا غَرُبَتْ ... إلّا وحبُّك مقرونٌ بأنفاسي

ولا جلستُ إلى قوم أحدّثهم ... إلّا وأنتَ حديثي بين جُلّاسي

ولا ذكرتُك محزونًا ولا فَرِحًا ... إلّا وأنتَ بقلبي بين وسواسي

ولا همَمْتُ بشُرب الماء من عطشٍ ... إلّا رأيتُ خيالًا منك في الكاس [١]

ويقول معبّرًا عن حاله وقت القطيعة مع المحبوب في ثانيهما:

إذا هجرتَ فمَنْ لي؟ ... ومن يُجمِّل كُلِّي

ومن لروحي وراحي؟ ... يا أَكْثَري وأَقَلِّي

أحبَّك البعضُ منّي ... وقد ذهبتَ بكُلّي

يا كُلّ كُلّي فكُنْ لي ... إنْ لم تكُنْ لي فمَنْ لي؟ [٢]

لقد عبَّر الحلَّاج عن تجربة لها من الخصوصية ما يدفع به إلى اختيار تراكيب لغوية من شأنها إبراز الطَّاقات الرُّوحية والإيحائية لمفرداته، التي حوَّر بعضها بما يُخرجها عن المعتاد والمألوف في التَّراكيب اللُّغوية. وقد صاحب هذا الخروج، خروجٌ موازٍ له في المنظور الدَّلاليّ، قصد به التَّعبير عن المعنى الكليّ؛ أو بالأحرى عن «الأفق الأخير الذي تنتهي إليه الدّلالات اللُّغوية في السّياق» [٣]. هذا الأفق الأخير قد دفع الحلَّاج - في الأخير - إلى تأمُّل السّمة الرئيسة المميّزة للحياة والموت على أساس من «الوحدة الإلهيَّة»، حيث الحياة بمثابة السَّجن للأولياء؛ وهو ما عبَّر عنه بالقول:

أقلّبُ قلبي في سواك فلا أرى ... سوى وحْشتي منه، ومنكَ به أَنْسِي

فها أنا في حَبْس الحياة مُمَنَّعٌ ... من الأنس، فاقْبِضْني إليكَ من الحَبْس [٤]

هنا يحوّل الحلَّاج الحياةَ/ الحبسَ بإضفاء حضور الله فيها – إذ إنها إحدى مخلوقاته – كي يضمن التميُّز عن الآخرين، الذين – على عكسه – يطبعون العالَم بطابعهم الخاص ليتملَّكوه! وعند هذا الحدّ يتّسع نطاق «الحقيقة الصُّوفية»، التي تكشف بنور الله ومحبَّته بواطنَ الإنسان، فتتبدَّل صفاته: من الوجود العابر

لما فَعلُوا ما فَعلُوا، ولَوْ سَتَرْتَ عَنِّي مَا سَتَرْتَ عَنْهُمْ، لما لَقِيتُ مَا لَقِيتُ، فَلَكَ التَّقْديرُ فِيما تَفْعَلُ، ولَكَ التَّقْدِيرُ فيما تُرِيدُ». **كتاب الطواسين**، ص٢٠٢–٢٠٥. وانظر: عبد الرحمن بدوي، **شطحات الصوفية**، ط٢ (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٦)، ص٢٦.

(١) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٣٤٥–٣٤٦.

(٢) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٣٦١.

(٣) لطفي عبد البديع، **التركيب اللغوي للأدب: بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا**، ط١ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠)، ص١٤٤.

(٤) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٢٥.

إلى الخلود، ومن المدنَّس إلى المقدَّس، ومن الأنائيَّة المفرطة إلى التَّناهي والتماهي مع ربّ الأشياء وخالقها. أفلا يضع الوليُّ - بمجرد وجوده - وحدةَ أنماط التَّفكير موضع تساؤل لدى أولئك الذين قصروا حياتهم على هذا العالم بدلَ أن يصرفوها إلى الله تعالى؟![١]

إنَّ تأمُّلات الحلَّاج في الموت - الذي انتهى إليه بعد طول انتظار - هو تأمُّلٌ في الحياة أيضًا «لأنَّه يراه موتًا في الله، كما يرى الحياة حياة في الله (...) فالحياة كالموت: إهداءٌ وتضحية، وما هي التَّضحية إذا لم تكن الاعتراف الكامل بهبةٍ ما؟!»[٢]. وهكذا، تتكشَّف «شعرية الحلَّاج» عن رؤية خاصَّة لا تجد ضالتها في النَّمط السَّائد المعبِّر عن استقرار المعنى، بقدر ما تجد نفسها في «الأنماط المُواربة لعلَّها تظفر بالمعنى الذي تفتّش عنه، وتحاول أن تتلاءم معه»[٣].

أمَّا **الإيقاع**؛ فنلحظ في شعر الحلَّاج تكرارًا كميًّا للأصوات «المهموسة»[٤]؛ خاصَّة ما يرد في سياق التضرُّع والمناجاة، والأصوات «الاحتكاكية»، التي تنتمي إلى ما يسمَّى بأصوات «الصَّفير»[٥]: خفْضًا وارتفاعًا؛ ممَّا يبرهن على غلبة حالة القلق، والاضطراب، وانعكاس ذلك كلّه على نفسيته المتخمة بمشاعر الحُرقة والأسى، وما يتخلَّلها من الحيرة والإنهاك الجسديّ والنفسيّ؛ بسبب كثرة الرّياضات الرُّوحية، وضروب المجاهدات التعبُّدية والتقشُّفية[٦]. ولهذا نجده في حركة دائبة لا يثبت في مقام، ولا يستقر على حال، ولا يقرُّ له قرار. كما يغلب على شعر الحلَّاج صيغ «النّداء»، بما تنطوي عليه من أصوات إيقاعية تتضمَّن قدرًا من الامتداد، حيث ينسجم صوت الألف مع لفظ «الآه» المرتبط بالتأوُّه، والفقد، والحنين، والأنين، والحسرة، والرّجاء. ففي الأبيات التالية نلحظ جمعًا بين أداة النداء: «يا» وبين صوت المدّ: «الألف»: «يَا – نَى»؛ «يَا – نَا»؛ «يَا – غَا، خا، هَا، سا، طا، شَا، إلخ».

---

(١) انظر: جان شوفيلي، **التصوف والمتصوفة**، ترجمة عبد القادر فنيني، ط١ (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٩٩)، ص١٣٣؛ عبد الله حمودي، **الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة**، ترجمة عبد المجيد جحفة، سلسلة المعرفة الاجتماعية؛ ٢١٧، ط٣ (الرباط: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٣)، ص١١٧.

(٢) روجيه أرنالديز، **الحلَّاج: السعي إلى المطلق**، ص٢١-٢٦ (بتصرُّف).

(٣) أماني سليمان داوود، **الأسلوبية والصوفية: دراسة في شعر الحسين بن منصور الحلَّاج** ، ط١ (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠١١)، ص٨٩.

(٤) الصوت المهموس: هو الصوت الذي لا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به. وتتألف الأصوات المهموسة من حروف: التاء، الثاء، الحاء، الخاء، السين، الشين، الصاد، الطاء، الفاء، القاف، الكاف، الهاء. انظر: كمال بشر، **علم الأصوات**، (القاهرة: دار غريب للنشر، ٢٠٠٠)، ص٨٧.

(٥) أبرز الأصوات الاحتكاكية هي: الثاء، والسين، والشين، والصَّاد، والفاء. انظر: إبراهيم أنيس، **موسيقى الشعر**، ط٢ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢)، ص٣٢.

(٦) أخضع الحلَّاج نفسه لمجاهدات شديدة القسوة؛ خاصَّة إبَّان حجّه الأوَّل بمكَّة، في ما بين عامي: ٢٧٠-٢٧٢هـ/ ٨٨٣-٨٨٥م، إذ كان يجلس على صخرة من جبل أبي قبيس في الشمس، حافيًا، حاسر الرَّأس، كما لازم صحن الكعبة سنة كاملة لم يبرح موضعه إلَّا للطَّهارة والطَّواف، غير مُحترز من الشَّمس ولا من المطر. أمَّا طعامه؛ فكان يُحمل إليه في كلّ عشية كوز ماء للشُّرب وقرص خبز، فيأخذ القرص ويعضّ أربع عضّات من جوانبه، ويشرب شربتين من الماء. انظر: لويس ماسينيون، **آلام الحلَّاج: شهيد التصوف الإسلامي** ، ترجمة الحسين مصطفى حلاج، ط١ (بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ج١، ص١٢٨-١٢٩.

نظري بَدْءُ عِلّتي ... ويْحَ قلبي وما جنى
يا مُعين الضَّـ**نى** علـ ... ـيَّ أعِنّي على الضَّـ**نى** [١]

وكذا قوله:

يا موضع النَّاظر من **ناظري** ... و**يا** مكان السرّ من **خاطري**
يا جملة الكلّ التي كلّـ**ها** ... أحبُّ من بعضي ومن **سائري**
تُراك ترثي للذي قلبُه ... مُعَلّقٌ في مِخْلَبَيْ **طائر** [٢]

وقوله:

يا غافلًا لجهالة عن **شانِي** ... هلّا عرفتَ حقيقتي وبـ**يانِي**؟ [٣]

ومن السّمات الأسلوبية اللّافتة في شعر الحلّاج أيضًا؛ قدرته على استخدام تراكيب الجُمَل بنوعيها: الإسميَّة والفعليَّة، بما يتناسب مع الدّلالات التي يعبّر عنها عن جملة الأحوال والمقامات الصُّوفية، التي تتراوح بدورها بين الحركة والثّبات: من الضِّعة إلى السموّ، من الجذْب إلى الخصب، من الخمول والخفاء إلى الظهور والتجلّي؛ وذلك من خلال تعويله على جُمَل العطْف، والتَّقديم والتَّأخير، والمراوحة بين الأفعال بشقَّيْها: الماضي والمضارع، وخلق حالة من الإرجاء لدى المتلقّي: «سكوتٌ ... عباراتٌ»، ممَّا يوسّع من أفق الانتظار. فأشعار الحلّاج لا تدعو إلى القراءة بحذر وحسب؛ وإنَّما أيضًا أن «تتوقَّف وتتقطَّع وتُقيم في الصَّمت، قَصْد التَّوغُّل في الفهم من غير يقين، وتجنُّب استعجال الحُكم عليها بالتَّناقض؛ لأنَّ هذا الحكم يُلْجمُ الاحتمالَ، ويحجبُ الوعودَ، ويُسْكِتُ ما يتعيَّن الإقامة فيه» [٤]، ومن قبيل ذلك قوله، على سبيل المثال:

سكوتٌ ثمَّ صمتٌ ثمَّ خرسٌ ... وعلمٌ ثمَّ وجدٌ ثمَّ رَمْسُ
وطينٌ ثمَّ نارٌ ثمَّ نورٌ ... وبردٌ ثمَّ ظلٌّ ثمَّ شمسُ
وحزْنٌ ثمَّ سهلٌ ثمَّ قفْرٌ ... ونهرٌ ثمَّ بحرٌ ثم يَبْسُ
وسُكْرٌ ثمَّ صحْوٌ ثمَّ شوقٌ ... وقربٌ ثمَّ وصلٌ ثم أُنْسُ
وقبضٌ ثمَّ بسطٌ ثمَّ مَحْوٌ ... وفَرْقٌ ثمَّ جَمْعٌ ثمَّ طَمْسُ

(١) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص١٣٥.
(٢) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص١٩٤-١٩٥.
(٣) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٧٧.
(٤) خالد بلقاسم، **الصوفية والفراغ: الكتابة عند النفّري**، ط١ (الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢)، ص١٥.

عباراتٌ لأقوامٍ تساوَتْ لديهم هذه الدُّنيا وفَلْسُ [١]

وكما هو واضح؛ فإنَّ استخدامه حرفي العطف: «الواو»، و«ثمَّ»، وإرجاءه الخبر إلى البيت السّادس: «- **عبارتٌ**...»، من شأنه أن يخلق حالة من الترقُّب والفضول والانتظار لدى المتلقّي، الذي يتوق إلى معرفة الخبر الذي من شأنه أن يُنهي هذا الانتظار بعد طول ترقُّب. وهذه السمة تميز شعر الحلَّاج الذي ينتقل فيها من الضّد إلى الضدّ، ويميل إلى مقابلة الألفاظ، فالقرب والبعد، والحضور والغياب، والمنح والسَّلْب، والقبض والبسط...إلخ، ألفاظ تتكرّر في أشعاره لتعكس لنا عدم استقرار حالته الوجدانية على الدّوام [٢].

إذا سكن الحقُّ السَّريرةَ ضُوعِفتْ ثلاثةَ أحوالٍ لأهل البصائر

فحالٌ يُبيدُ السّرَّ عن كُنْه وصْفه ويُحْضِرُهُ للوجد في حال حائر

وحالٌ به زُمَّتْ ذُرى السرّ فانْثَنَتْ إلى منظرٍ أفناهُ عن كلّ ناظر [٣]

أمَّا التناوب بين الأفعال والتنقُّل فيما بينها ـ ممَّا يسهم في منح المقطوعة الشَّعرية قدرًا كبيرًا من الحركة والحيوية والفاعلية – فيمكن تلمُّسها في الأبيات التَّالية التي يقول فيها:

أبْدَى الحِجابَ **فذَلَّ** في سُلطانِه عِزُّ الرُّسوم وكلُّ معْنًى **يخْطرُ**

هيهات **يُدْرَكُ** ما الوجود وإنَّما لهبُ التَّواجد رمزُ عجْزٍ **يقْهرُ**

لا الوجد **يُدْرَكُ** غير رسْمٍ داثِر والوجد **يدْثرُ** حين **يبدو** المنْظرُ

قد **كنتُ** أطربُ للوجود مروّعًا طورًا **يُغيّبُني** وطورًا **أحْضرُ**

أفْنَى الوجودَ بشاهد مشهودِه **أفْنَى** الوجودَ وكلَّ معْنًى **يُذْكَرُ** [٤]

وكما هو ملاحظ؛ فقد تضمّنت المقطوعة خمسة عشر فعلًا؛ عشرة منها مضارعة (ستّة منها بصيغة المبنى للمجهول)، وهي: «يخطر، يُدْرَك [مرَّتان]، يقهر، يدثر، يبدو، أطرب، يُغيّب، أحضر،

---

(١) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢١٨–٢١٩. وتعرض هذه القطعة الشعرية أحوال المتصوفة ومواجيدهم وغاياتهم على أساس ثلاثيّ، تُنقِّل الصُّوفيَّ بين الحالات النَّفسية المضادَّة ليستقرَّ – في النهاية – بنتيجة تلبُّسه بالحال الثالثة. فهو هنا يرتّب الصُّوفيَّ على هذه الموجات النَّفسية الثلاثية؛ كونها مصطلحات وألفاظًا تتردَّد في الأوساط الصُّوفية.

(٢) يقول الحلاج:

فما لي بُعْدٌ بَعْد بُعْدِك بَعْدَما تيقّنتُ أنَّ القرب والبعد واحدُ

وانّي – وانْ أُهْجرتُ – فالهجرُ صاحبي وكيف يصحُّ الهجرُ والحُبُّ واحدُ؟

الحلَّاج، **كتاب الطواسين**، ص١٥٥. وفي **شرح الشطحيات**، عقّب روزبهان بقلي الشيرازيّ (ت. ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) على ذلك بالقول: «القرب والبعد واحد في التوحيد إلَّا للممتَحَنين، والهجر والوصل واحد إلَّا للمطرودين». انظر: **شرح ديوان الحلاج**، ص١٨٥.

(٣) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص١٩٩–٢٠٠.

(٤) الحلَّاج، **الديوان يليه كتاب الطواسين**، تحقيق كامل مصطفى الشيبي، ط١ (كولونيا: منشورات الجمل، ١٩٩٧)، ص٤٣؛ قاسم محمد عباس، **الحلَّاج: الأعمال الكاملة**، ص٢٩٩.

يُذكَرُ». وخمسة منها ماضية: «أبْدَى، ذلَّ، كنتُ، أفْنَى [مرَّتان]». وإن دلَّ ذلك على شيء؛ فإنَّما يدلُّ على أنَّ الأبيات توحي بسياق من الأحداث المتحرّكة المتتالية؛ خاصَّة وأنَّ التّركيز على الزَّمن المضارع ليس كميًّا وحسب؛ وإنَّما يتأكَّد التَّشديد عليه في مجيئة لفظة/ خاتمة للقافية في أربعة أبيات منه؛ هي: «يخطر، يقهر، أحضر، يُذْكَر». فالفعل المضارع يفيد معنى الاستمرار والامتداد الزَّمنيَّ، والزمن عند المتصوفة ـ بشكل عام ـ هو كالحقيقة الإلهية: «زمنٌ أزليٌّ سَرْمديٌّ»، وبذلك ينفذ الشَّاعر للتَّعبير عن «الزَّمن الإلهيّ» المُمتدّ؛ خلافًا للزَّمن البشريّ المحدود والمتغيّر [١].

أخيرًا، يمثّل «**الشَّطح**» ظاهرة تستعصي على الفهم الظَّاهريّ، أو التَّفسير المباشر، والسَّبب في ذلك يعود إلى أنَّ التَّجربة الصوفية – برمَّتها – هي تجربة ذوقية لا يتأتَّى كشفها إلَّا من خلال المعاناة عبر الاستبطان الدَّاخليّ. فالحلَّاج – وغيره من أهل الحبّ الإلهيّ – يتعامل مع عالم الخلق/ عالم الحس والعقل، وفق معطيات ملكوت الحقّ/ ملكوت الغيب والحبّ «فإذا المحبُّ يرى نفسه وقد صبَّ لطافةَ أسرار الغيب في كثافة مظاهر عالم الشَّهادة، وشرب فأسْكرَتْه هذه الأسرار. ومن هنا كانت معرفة الواحد الحقّ لا تتأتَّى إلَّا بالمحبَّة الإلهية التي تنتفي معها كلُّ محبَّةٍ، وتمَّحي بها كلُّ صفةٍ من صفات عالم الشَّهادة» [٢]؛ وهو ما عبَّر عنه الحلَّاج بقوله: «حقيقة المحبَّة: قيامك مع محبوبك بخلْع أوصافك» [٣]، وقوله:

حويتَ بكُلّي كلَّ كلّكَ يا قُدسي ... تُكاشِفُني حتَّى كأنَّك في نفسي [٤]

وقوله أيضًا:

مكانك في قلبي هو القلب كلّه ... فليس لشيءٍ فيه غيرك موضع

وحطّتَكَ روحي بين جِلْدي وأعظمي ... فكيف تراني – إن فقدْتُكَ – أصنَعُ؟ [٥]

إنَّ تجلي «المطلق/ الله» في نفس الصُّوفي من شأنه أن يحيل الأخير إلى سرّ من أسراره، ونور من أنواره. وإذا كان السرُّ يتعارض – ظاهرًا – مع الحقيقة؛ إلَّا أنَّه يمثّل جوهر الحقيقة، ولهذا يقول المتصوّفة: «صدور الأحرار قبور الأسرار» [٦]. وقد هام الحلَّاج في عالم أسراره، فأنشد يقول:

لأنوار نور الدّين في الخلق أنوار ... وللسرّ في سرّ المسرّين أسرارُ

وللكون في الأكوان كونٌ مكوّن ... يَكِنُّ له قلبي ويهدي ويختار

---

(١) أماني سليمان داوود، **الأسلوبية والصوفية**، ص٩٢–٩٣.

(٢) سامي مكارم، **الحلَّاج: فيما وراء المعنى والخط واللون**، ص١٤٣.

(٣) أبو القاسم القشيريّ (ت. ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)، **الرسالة القشيرية**، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف (طهران: انتشارات بيدار؛ القاهرة: طبعة مصورة عن طبعة دار الشعب، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م)، ص١٤٥.

(٤) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٢٥.

(٥) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٣٥.

(٦) انظر: شهاب الدين الأبشيهي (ت. ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، **المستطرف في كل فن مستطرف**، ط١ (بيروت: عالم الكتب، ١٤١٩هـ–١٩٩٨م)، ص٢١٦.

تأمَّل بعين العقل ما أنا واصفٌ فللعقل أسماعٌ وعاةٌ وأبصارُ [١]

في المحصّلة؛ كان المتصوفة أكثر إحساسًا بطبيعة العلاقة المتوتّرة بين المضامين الوجدانية والمعارف الذوقية الحاصلة لهم من جهة، وبين ما يقابلها في المرجعيات العامَّة للألفاظ المتداولة من جهة أخرى «فحين تدخل التجربة الصوفية إلى دائرة المنطوق تشتدُّ حساسيتها حيال اللُّغة، فتجد القوم يشكون – أو يعتذرون – من قصور العبارة عن التبليغ؛ حتَّى في مستوى الدّلالة الإيحائية (Connotation)، فضلًا عن دلالة الظَّاهر (Denotation)» [٢]. ومن هنا نفهم حالة الاغتراب التي تنتاب الصُّوفيَّ في طريق رحلته إلى الله؛ كما عبّر عن ذلك الجنيد البغداديُّ بالقول:

تَغَرَّبَ أمري عند كلّ غريبٍ فصرتُ عجيبًا عند كلّ عجيب [٣]

وكما قال «العالم السيّد الغريب» [٤]؛ أبو المغيث الحسين بن منصور الحلَّاج:

أبكى على شجنى من فُرقتى وطنى طوعًا، ويُسعدُنى بالنَّوْح أعدائي
أدنُو فيُبعدُني خوفي، فيُقْلقُني شوقٌ تمكَّن في مكنون أحشائي
فكيف أصنع في حُبّ كلفتُ به مولاي، قد ملَّ من سُقمي أطبائي
قالوا: تدَاوَ به منهُ، فقلت لهم: يا قوم، هل يتداوى الدَّاءُ بالدَّائي
حُبّي لمولاي أضناني وأسْقمني، فكيف أشكو إلى مولايَ مولائي؟ [٥]

وكيفما كان الأمر؛ فإنَّ الخطاب الصُّوفيَّ – شعرًا كان أم نثرًا [٦] - يوسّع من الجزء «الرَّمزيّ والأسطوريّ للخطاب الدّينيّ التَّأسيسيّ، ثمَّ يطوّره ويستثمره (...) وهو يفعل ذلك من أجل بناء معرفة قائمة على المسارَّة، وتشكيل غنوصية تدعم المسار الصُّوفيَّ بواسطة معطيات كلّ تجربة سير بها حتَّى نهايتها [الاتصال، التَّواصل مع الإلهيّ، الاتّحاد، الوجد: الشَّطحات الصُّوفية]، وذلك تحت ضغط التَّجربة الرُّوحية المشحونة بكثافة، والمستنبطة داخليًّا بشكل كليّ» [٧].

وعلاوة على ذلك؛ جرَّد المتصوفة الرَّمز الصُّوفيَّ من دلالاته الحسيَّة، وأعادوا تشفير اللُّغة في قصائدهم، التي كثيرًا ما تئن بالشكوى: شكاية النَّفي والهجر على المستوى الوجدانيّ، وشكاية الإقصاء

---

(١) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٠٩.

(٢) محمد المصطفى عزّام، **الخطاب الصوفي بين التأوّل والتأويل**، تقديم طه عبد الرحمن، ط١ (بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، ٢٠١٠)، ص١٩٢.

(٣) ميثم الجنابي، **الحضارة الإسلامية: روح الاعتدال واليقين**، ط١ (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٦)، ص٢٠٤.

(٤) الحلَّاج، **كتاب الطواسين**، ص١٥٣.

(٥) **شرح ديوان الحلَّاج**، ص١٤٧

(٦) من الملاحظ أنَّ النثر يجاور الشّعر في محاولة التَّعبير عن أحوال الصُّوفية ومواجيدهم. فالنثر المُرسَل يجاور الشّعر المسجوع في كتب المناقب الصوفية على وجه الخصوص، كما لو أنهما – بهذا التمازُج والتجاور – يتبادلان الوظيفة والموقع والدّلالة؛ ممَّا ينمُّ عن استثمار مقصود – من جانب المتصوفة – للّغة العادية واللّغة الإشارية: سجعًا وشعرًا. انظر: عبد الله بن عتو، **أدب الكرامات: من ميثاق الثقة إلى خطاب التماهي**، ط١ (الرباط: دار الأمان، ٢٠١٤)، ص١٤٨.

(٧) محمد أركون، **الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد**، ترجمة وتعليق هاشم صالح، ط٢ (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٢)، ص١٦٣.

والتَّهميش على المستويين: الاجتماعيّ والسّياسيّ. هكذا تحمل الرُّموز الصُّوفية – وفي مقدّمها: «الخمرة الإلهيَّة» ـ دلالتها الوجدانية «فكلّ مبدع بالكلمة ـ أو الخطّ ـ لا يعني بما يراه إلَّا بوصفه عتبةً لِما لا يراه»[١]:

سكنتَ قلبي وفيه منك أسرارُ ... فلْتَهْنِكَ الدَّار، بل فلْيَهْنِكَ الجارُ
ما فيه غيرُكَ من سِرٍّ علمتَ به ... فانظُر بعينك: هل في الدَّار ديَّارُ؟
وليلةُ الهجْر – إن طالت وإن قَصُرَتْ ـ ... فمُؤْنسي أملٌ فيه وتَذْكارُ
إنّي لراضٍ بما يُرضيكَ من تلفي، ... يا قاتلي، ولِمَا تختارُ أختارُ [٢]

في الخلاصة؛ لم يكن استشهاد الحلَّاج موتًا اعتياديًّا، بل كان أشبه بعملية تصفية دموية، نالت منه عضوًا عضوًا: فالجسد منصوبٌ فوق الجذع، مُبعثَّرٌ تعُمُّه فوضى انفجار المعذَّب المكلوم إلى أشلاء تصَّاعد في الهواء ثمَّ تُطرح أرضًا، هدفًا لكلّ التهكُّمات، مبتورَ الرَّأس، مُقطَّع الأطراف، مُحترقًا. أمَّا كلماته الأخيرة؛ فـ «تُظهِرُ نفسَه المهيضة، لكن الحيَّة الفيَّاضة بعشقِها، تطمح بانسلاخٍ أمْضَى عن الذَّات، فتخترق حتَّى ما وراء الموت، نحو داخل وحدانية الله» [٣]. وفي ما يُساق إلى الحتف، يتبختَرُ في قيْدِه فرِحًا ومبتهجًا، ينشد الشّعر، وهو في طريقه للموت، مؤمنًا بأنَّ أهون مِرْقاةٍ من التصوُّف ما حلَّ به[٤]، فلا تجرحه السّياطُ ولا يُؤلمه الوجع، لكنَّ وردة ألقاها عليه صديقه الشّبليُّ (ت. ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، في ما هو مصلوب، تفعل فيه فعلَها، فإذا به يطربُ ولهانًا فرحًا، وينشُد:

نديمي غيرُ منسوبٍ ... إلى شيءٍ من الحَيْف
سقاني مثلما يشْرَ ... بُ، فِعْلَ الضَّيف بالضَّيف
فلمَّا دارت الكأسُ ... دعا بالنِّطْع والسَّيف [٥]

إنَّ هذا الشّعر ليس سيمفونية عيد، أو كلمات فرحٍ احتفالي؛ مع أنَّه اليوم الذي قد نُورز فيه، بعد انتظار دام ثلاثة عشر عامًا [٦]. إنَّ شعر الحلَّاج وكلماته الأخيرة، تباريح قلب أسكره الموت، وفي عتمة الحقد والحسد والبُغض والتزمُّت والتعصُّب الذي قُوبل به من أرباب السُّلطة والفقهاء على حدٍّ سواء، لا يطرح في المقابل، سوى العدالة والتسامح والغفران «حقًّا لا يقول مثل ذلك إلَّا كائنٌ آخر كلُّه غفران أكبر

---

(١) أدونيس، **الصوفية والسوريالية**، ص٢٠٢.

(٢) **ديوان الحلَّاج**، ص٥٨؛ **شرح ديوان الحلَّاج**، ص٢٠٩.

(٣) لويس ماسينيون، **آلام الحلَّاج: شهيد التصوف الإسلامي**، ج١، ص٣١٩.

(٤) عن أبي بكر الشبلي قال: "قصدت الحلَّاج، وقد قُطّعت يداه ورجلاه وصُلِب على جذع، فقلت له: ما التصوُّف؟ فقال: أهونُ مِرْقَاة منه ما ترى. فقلت له: ما أعلاه؟ فقال: ليس لك إليه سبيل". ابن السَّاعي، **أخبار الحلَّاج** ، ص٧٤-٧٥.

(٥) كامل مصطفى الشيبي، **شرح ديوان الحلَّاج** ...، ص٣٥٢. والحيْف: الجور والظلم، والنِّطْع (وكذا بالفتح والتَّحريك): بساطٌ من الجِلْد يُستعمل في القتل لإمكان غسله بعكس القماش المعتاد.

(٦) انظر: ابن الساعي، **أخبار الحلَّاج** ، ص ٢٧.

من الحسد، كائنٌ يترفَّع فوق عذابات الجسد، وليس ذلك الكائن إلَّا الرُّوح النَّاطقة» [١]. وهكذا؛ فإنَّ جسد «المؤمن الصَّادق ـ الذي يختزن الإيمان بالقيامة ـ لن يكون قادرًا فقط على تحمُّل العذاب إلى ما لا نهاية من دون أن ينهار؛ بل سيحيا في الخوف الرُّوحانيّ المغروس في الجسد تجربةَ موتٍ يمهّد لغبطة المُنبعث» [٢]. لقد كان الشبليُّ محقًّا إذًا حين قال: «إنَّ استشهاد الحلَّاج وردةٌ من الجمال المحرَّم، وليس زاد خلود يبلغه من يشاء» [٣]!

الاستنتاجات والتوصيات:

- شكّلت تجربة الحلَّاج الصُّوفية نموذجًا لتداخل الشعر والتصوف من أجل التعبير عمّا يعتري الصوفي من الأحوال والمقامات.
- لا يمكن بحال من الأحوال فصل الشعر الصوفيّ عن الحالة الوجدانية للمتصوّف.
- وجد المتصوفة في الشعر إطارًا تبليغيًّا لتمرير الأدب الرساليّ الذي تفرّدوا به عن غيرهم.
- استخدم المتصوفة لفظ «الخمر» ـ وما في معناه ـ بمفهومات عدّة؛ من بينها: الإشارة إلى الذَّات الإلهية، وإلى الأسرار العلوية، وإلى الحبّ الإلهيّ، وإلى حقائق الغيب والتوحيد والمعارف الربَّانية.
- يلتقي الإلهام الصُّوفيُّ بالحدس الشّعريّ في تجربة الحلاج الشعرية، بما يتطلَّب لغة خاصَّة رمزية للتعبير عن كُنه التجربة الصوفية، والانتقال باللُّغة العادية المُتناهية إلى منطق الصُّورة الرَّمزية للكشف عن الحب الإلهيّ.
- لا بد من الإفادة بشكل أوسع من دراسة التجارب الشعرية الصوفية في فهم ونحت قاموس التجربة الصوفية الإسلامية، والكشف عن لغة الإشارة والتأويل والرمز، وما تنطوي عليه الأسلوبية العرفانية من معاني ذوقية.

المصادر والمراجع

أولًا الكتب:

إبراهيم أنيس، **موسيقى الشعر**، ط٢ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢).

ابن أبي أُصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق نزار رضا، ط١ (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦).

---

(١) عزيز السيد جاسم، **متصوفة بغداد**، ط ٢ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧)، ص١٨٤.

(٢) روجيه أرنالديز، **الحلَّاج: السعي إلى المطلق**، ص٤٤.

(٣) محمد حلمي عبد الوهاب، **وُلاةٌ وأولياء: السلطة والمتصوفة في إسلام العصر الوسيط**، تقديم رضوان السيّد، ط١ (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩)، ص٣٧٦.

ابن الدبَّاغ، **مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب**، تحقيق ه. ريتر، ط١ (بيروت: دار صادر، ١٩٨٦).

ابن الساعي، **أخبار الحلَّاج أو مناجيات الحلَّاج، وهو من أقدم الأصول الباقية في سيرة الحسين بن منصور الحلَّاج البيضاويّ البغداديّ**، اعتنى بنشره وتصحيحه وتعليق الحواشي عليه ل. ماسينيون وب. كراوس، ط١ (باريس: لاروز، ١٩٣٦).

ابن الفارض، **ديوان ابن الفارض: قراءتٌ لنَصّه عبر التاريخ**، تحقيق جوزيبي سكاتولين، نصوص عربية ودراسات إسلامية؛ المجلد ٤١، ط١ (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ٢٠٠٤).

ابن سوار، **ديوان نجم الدين بن سوار الدمشقيّ (٦٧٧ه)**، تحقيق محمد أديب الجادر، سلسلة مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق؛ مجلد: ٧-٨ (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٤٣١ه- ٢٠١٠م).

أبو القاسم القشيريّ، **الرسالة القشيرية**، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف (طهران: انتشارات بيدار؛ القاهرة: طبعة مصورة عن طبعة دار الشعب، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م).

أبو حامد الغزالي، **معارج القدس في مدارج معرفة النفس**، ط١ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨).

أبو طالب المكيّ، **علم القلوب**، حقّقه وعلَّق حواشيه وقدّمه عبد القادرو أحمد عطا، ط١ (القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٣٨٤ه- ١٩٦٤م).

أدونيس، **الصوفية والسوريالية**، ط٣ (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦).

أماني سليمان داوود، **الأسلوبية والصوفية: دراسة في شعر الحسين بن منصور الحلَّاج** ، ط١ (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠١١).

جان شوفيلي، **التصوف والمتصوفة**، ترجمة عبد القادر فنيني، ط١ (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٩٩).

جلال الدين الرومي، **كتاب فيه ما فيه: أحاديث مولانا جلال الدين الرومي شاعر الصوفية الأكبر**، ترجمه عن الفارسية علي عيسى العاكوب، ط١ (بيروت: دار الفكر المعاصر – دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢).

جورج مونان، **مفاتيح الألسنية**، ترجمة الطيب بكوش، ط١ (تونس: منشورات جديدة، ١٩٨١).

جورج نوننمشار، **دلالات الأثر، يليه: أكوان فون كوخ المجاورة**، ترجمة عبد العزيز بن عرفة، ط١ (اللاذقية: دار الحوار، [١٤١٣ه-] ١٩٩٢).

حسن البوريني وعبد الغني النابلسيّ، **شرح ديوان ابن الفارض**، ط١، (مرسيلية: مطبعة ارنود وشركاه، ١٨٥٣).

حسن الفاتح قريب الله، **المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفية**، ط١ (القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، محرّم ١٤٢٠ه- إبريل ١٩٩٩م).

الحلَّاج، **الديوان يليه كتاب الطواسين**، تحقيق كامل مصطفى الشيبي، ط١ (كولونيا: منشورات الجمل، ١٩٩٧).

الحلَّاج، **كتاب الطواسين**، تحقيق ودراسة لويس ماسينيون، إعداد وترجمة رضوان السح وعبد الرزاق الأصفر، ط٢ (دمشق: دار الينابيع، ٢٠٠٩).

خالد بلقاسم، **الصوفية والفراغ: الكتابة عند النفّري**، ط١ (الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢).

الرازي، **مختار الصحاح**، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، ط١ (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥).

روبرت شولز، **السيمياء والتأويل**، ترجمة سعيد الغانمي، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٤).

روجيه أرنالديز، **الحلاج: السعي إلى المطلق**، ترجمة: مجموعة البحث عن المطلق بإدارة ج.ه. رادكوسكي، ط١ (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١).

رينيه شار، **مشاطرة شكلية**، ترجمة شاكر لعيبي، ط١ (أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٥).

سامي مكارم، **الحلَّاج: فيما وراء المعنى والخط واللون**، ط٢ (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، آب/ أغسطس ٢٠٠٤).

شارل بالي، «*علم الأسلوب وعلم اللغة العام*»، ضمن كتاب: **اتجاهات البحث الأسلوبي**، اختيار وترجمة شكري عياد، ط١ (الرياض: دار العلوم، ١٩٨٥).

شريف هزّاع شريف، **نقد/ تصوف: النص – الخطاب ـ التفكيك**، ط١ (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٨).

شهاب الدين الأبشيهيّ، **المستطرف في كل فن مستطرف**، ط١ (بيروت: عالم الكتب، ١٤١٩ه-١٩٩٨م).

الصاحب بن عبَّاد، **ديوان الصاحب بن عبَّاد**، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط٢ (بيروت: دار القلم؛ بغداد: مكتبة النهضة، ١٣٩٤ه- ١٩٧٤م).

صلاح فضل، **أساليب الشعرية المعاصرة**، ط١ (القاهرة: دار الآداب، ١٩٩٥).

الطُّوسيّ، **اللُّمَع**، حقَّقه وقدَّم له وخرَّج أحاديثه عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، ط١ (القاهرة: دار الكتب الحديثة؛ بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٠).

عاطف جودة نصر، **الرمز الشعري عند الصُّوفية**، ط١ (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – دار الكندي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٨).

عبد الحكيم حسان، **التصوف في الشعر العربي الإسلامي: نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري**، تقديم وتعليق عقبة زيدان، ط١ (دمشق: دار العرب للدراسات والنشر والترجمة – دار نور للدراسات والنشر والترجمة، ٢٠١٠).

عبد الرحمن بدوي، **تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني**، ط ٢ (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٨).

عبد الرحمن بدوي، **شطحات الصوفية**، ط٢ (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٦).

عبد الغني النابلسي، **خمرة الحان: شرح رسالة الشيخ أرسلان**، ط١ (القاهرة: مكتبة محمد علي صُبيح، ١٣٨٢ه- ١٩٦٢م).

عبد الغني النابلسيّ، **ديوان الحقائق ومجموع الرقائق في صريح المواجيد الإلهيَّه والتجلّيات الربَّانيَّه والنُّفتوحات الأقدسية**، ط١ (بيروت: دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦).

عبد القادر فيدوح، **الرؤيا والتأويل**، ط١ (الجزائر: دار الوصال، ١٩٩٤).

عبد الكريم اليافي، **التعبير الصُّوفي ومشكلته**، ط١ (دمشق: منشورات جامعة دمشق، ١٤٢٠-١٤٢١ه/ ١٩٩٩-٢٠٠٠م).

عبد الله بن عتو، **أدب الكرامات: من ميثاق الثقة إلى خطاب التماهي**، ط١ (الرباط: دار الأمان، ٢٠١٤).

عبد الله حمودي، **الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة**، ترجمة عبد المجيد جحفة، سلسلة المعرفة الاجتماعية؛ ٢١٧، ط٣ (الرباط: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٣).

عزيز السيد جاسم، **متصوفة بغداد**، ط ٢ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧).

العيناثي العامليّ، **آداب النفس**، تحقيق السيد كاظم الموسويّ المياميّ، ط١ (بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٥ه- ١٩٩٥م).

فريدريك نيتشة، **العلم المرح**، ترجمة حسان بورقية ومحمد الناجي، ط١ (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٩٣).

قاسم محمد عباس، **الحلَّاج: الأعمال الكاملة (التفسير، الطواسين، بستان المعرفة، نصوص الولاية، المرويات، الديوان)**، ط١ (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، آذار/ مارس٢٠٠٢).

كامل مصطفى الشيبي، **شرح ديوان الحلَّاج: دراسة شاملة: تحقيق وتفسير**، ط٢ (باريس: منشورات أسمار، ٢٠٠٥).

كمال بشر، **علم الأصوات**، ط١ (القاهرة: دار غريب للنشر، ٢٠٠٠).

لطفي عبد البديع، **التركيب اللغوي للأدب: بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا**، ط١ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠).

لويس ماسينيون، **آلام الحلَّاج: شهيد التصوف الإسلامي**، ترجمة الحسين مصطفى حلاج، ط١ (بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤).

محمد أركون، **الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد**، ترجمة وتعليق هاشم صالح، ط٢ (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٢).

محمد البكري، **قطف أزهار المواهب الربانية من أفنان رياض النفحة القدسية**، شرح صديق بن عمر خان العمري، ضبطه وصحّحه وعلّق عليه عاصم إبراهيم الكيالي، ط١ (بيروت: كتاب- ناشرون، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م).

محمد الطاهر علاوي، **العالم الربَّاني أبو مدين شعيب التلمساني**، ط١ (الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١).

محمد المصطفى عزّام، **الخطاب الصوفي بين التأوُّل والتأويل**، تقديم طه عبد الرحمن، ط١ (بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، ٢٠١٠).

محمد حلمي عبد الوهاب، **وُلاةٌ وأولياء: السلطة والمتصوفة في إسلام العصر الوسيط**، تقديم رضوان السيّد، ط١ (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩).

ميثم الجنابي، **الحضارة الإسلامية: روح الاعتدال واليقين**، ط١ (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٦).

نذير العظمة، **المعراج والرمز الصُّوفيّ: قراءة ثانية للتراث**، ط١ (بيروت: دار الباحث، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م).

وفيق سليطين، **الشعر والتصوف**، ط١ (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠١٣).

ثانيًا الدوريات:

عبده وازن، «*إن يشأ يمشي على خدي مشى*،» **أدب ونقد**، القاهرة: حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، السنة ١٧، العدد ١٩١ (تموز/ يوليو ٢٠٠١.

علي الخرابشة، «*وظيفة الصورة الشعرية ودورها في العمل الأدبي*،» **مجلة الآداب**، بيروت: دار الآداب، العدد: ١٠٩-١١٠، ٢٠١٤.

محمد الهادي الطرابلسي، «*في مفهوم الإيقاع*،»، **حوليات الجامعة التونسية**، العدد: ٣٢، ١٩٩٩.

نور الدين دحماني، «*الصورة الفنية في الخطاب الشعري الصوفي*،» **مجلة حوليات التراث**، العدد ٢ (أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤).

يوسف زيدان، «*الحلَّاج ومحاولة تفجير اللغة*،»، مجلة **الهلال**، القاهرة: دار الهلال، مارس ١٩٩٢.

رابعا: بحوث البيئة

ادارة مشاريع تدوير النفايات في البلدان العربية

Management of waste recycling Projects in Arab Countries

الباحث: عادل بدر عبد الحسين كاظم الرياحي
رئيس فريق الخبراء في وزارة التخطيط العراقية
مهندس استشاري في نقابة المهندسين العراقية

البريد الالكتروني: enginadil_2005@yahoo.com

تاريخ التقديم للنشر: ٢٠٢٣/٠١/٠٩ تاريخ القبول للنشر:٢٠٢٣/٠٣/١٣

الملـخص.

يتضـــمن هذا البحث العلمي الموســـوم بعنوان (ادارة مشـــاريع تدوير النفايات في البلدان العربية) اســتعراض شــامل للأدبيات ذات العلاقة حيث يمتاز بالمنهجية العلمية الهادفة الى مقدمة عن حقيقة تدوير النفايات مع تحديد المشكلة التي تواجه المؤسسات البلدية والناجمة من تراكم تلك النفايات وتوضيح أهمية هذا البحث مع تشخيص أهدافه من خلال فرضيات علمية مع وضع خطط طموحة نحو الادارة المتكاملة لمشاريع تدوير النفايات والاستفادة منها كقيمة اقتصادية بالإضافة الى تحسين بيئة المدن العربية ومنع التلوث.

Abstract.

This research includes which tagged the title of (managing waste recycling Projects in the Arab Countries) on review of the literation on the relationship. This research is disting used by Scientific metholodology and accurate identification of the problem facing municipal institutions in the arab countries represented by the accumulation of waste. As well as showing astatement the benefit from research this important topic and adiagnosis of all its objectives. This is done through Scientific hypotheses supported by accurate plans towards achieving Comprehensive waste recycling through the adoption of Scientific plans and technologn towards integrated management for waste recycling projects and benefit as an economic value in addition to improving the environment of Arab cities and preventing pollution.

المقدمة.

تعتمد غالبية المؤسسات البلدية في العواصم والمدن العربية على الاساليب والطرق الكلاسيكية القديمة للتخلص من النفايات حيث يؤدي استخدام تلك الوسائل البدائية الى تلويث هواء المدن المذكورة بالإضافة الى تلوث التربة والمياه الجوفية وكذلك الحاق خسائر اقتصادية كبيرة في الميزانية نتيجة حوق النفايات موضوعه البحث وعدم تدويرها واعادة استخدامها حيث تشكل تلك النفايات قيمه اقتصادية كبيرة في حالة حسن استثمارها من خلال عملية التدوير(Recycling) ان المؤسسات المذكورة كانت سابقاً تضع معايير خاصة في اختيار مناطق التخلص من النفايات ومنها خارج حدود تلك المدن وعلى وجه التحديد أن تبعد تلك المناطق مسافة كيلومتر واحد عن مراكز المدن وبالنظر لتزايد أعداد السكان والتوسع الكبير في الرقعة الجغرافية للمدن ادى الى تفاقم النفايات وزحفها باتجاه المدن وأصبحت تشكل تهديد حقيقي لحياة السكان بالإضافة الى تلويث الهواء والتربة والمياه الجوفية وكذلك عدم قدرة المؤسسات البلدية على معالجة السلبيات المترتبة عن نتائج الطمر في مناطق التخلص من النفايات المذكورة لقد أثبتت الدراسات والاحصائيات الحديثة يأن هناك جدوى اقتصادية للاستفادة منها لكونها تحقق عوائد مالية للجهات المستفيدة منها وذلك من خلال حسن ادارتها واعادة تدويرها وانتاج مواد جديدة منها تكون ملائمه كمواد أولية لصناعات أخرى وكذلك انتاج الوقود البديل اللازم لتشغيل معامل الاسمنت وانتاج الطاقة الكهربائية وخلق فرص عمل ملائمة.

منهجية البحث.

وهي المنهجية التي تتضمن خطوات الاسلوب العلمي في التفكير والاحساس بالمشكلة حيث يقوم الباحث بوضع حلول جذرية لها أو إجابات محتملة تتمثل في فرضية البحث ثم اختيارها لفرض الوصول الى نتائج محددة أما بالإثبات أو النفي وفق الاسلوب المعتمد من قبل الباحث وتتضمن ما يلي: -

مشكلة البحث.

تكمن مشكلة البحث بعدم وجود انظمة وتقنيات حديثة لدى المؤسسات البلدية في تدوير النفايات واختصار عملها باعتماد الطرق البدائية القديمة للتخلص من نفايات المدن التي تترتب عليها أضرار كبيرة على صحة الانسان وتلوث الهواء والمياه الجوفية.

وتتلخص مشكلة هذا البحث في تراكم النفايات وعدم استخدامها الاستخدام الامثل من خلال تدويرها والحصول على منتجات جديدة يمكن الاستفادة منها كمواد اولية لصناعات جديدة أخرى حيث لازالت المؤسسات البلدية في البلدان العربية تعتمد على الطرق البدائية للتخلص من النفايات المذكورة.

١. الهدف من البحث Research objective

١. يهدف هذا البحث إلى تمكين المؤسسات البلدية في البلدان العربية من امتلاك التقنيات العلمية الحديثة في تدوير النفايات والاستفادة منها لقيمة اقتصادية وانتاج مواد خام اولية تدخل في العديد من الصناعات المتنوعة وكذلك تحسين البيئة العربية ومنع التلوث البيئي المحتمل وكذلك خلق فرص عمل والقضاء على البطالة.

٢. تمكين كافة المؤسسات البلدية في البلدان العربية من اعتماد الطرق والتقنيات الحديثة في تدوير النفايات ومغادرة الطرق البدائية بالتخلص من النفايات لكون الطرق الكلاسيكية ملوثة للبيئة العربية.

٣. تحقيق الفائدة الاقتصادية وراء تدوير النفايات لكونها تشكل مورد مالي النتائج التدوير وكمنتجات جديدة تدخل كمواد اولية في الصناعات المختلفة.

٤. تحسين البيئة والحد من التلوث لهواء المدن العربية والمياه الجوفية التي هي ضمانة للبلدان العربية التي تعاني من الشحة والحصص المائية في فصل الصيف.

٥. الحصول على الاسمدة العضوية الداعمة للغلة الزراعية وزيادة الانتاج الزراعي.

٦. انتاج الطاقة الكهربائية.

٧. انتاج الوقود البديل (RDF) الذي يستخدم في تشغيل معامل السمنت

٨. خلق فرص عمل ملائمة للخريجين من خلال انشاء معامل لتدوير النفايات.

٩. أشاعه ثقافة التدوير لدى الجميع والتعاون مع المؤسسات البلدية لتحقيق نظافة المدن.

فرضية البحث.

يتضمن البحث على فرضيات رئيسية وذلك من خلال الادارة المتكاملة لتدوير النفايات ومنها ان اعتماد التقنيات الحديثة في عمليات الفرز والتدوير لتلك النفايات يحقق الكفاءة الانتاجية في المواقع الصناعية كما أن التدوير يحقق التخفيض في الكلف بالإضافة الى التحسين البيئي.

أهمية البحث.

تأتي اهمية البحث من خلال استخدام التغيير التكنولوجي في معالجة النفايات وتحويلها من خلال عمليات التدوير الى انتاج مواد خام اولية (Raw materials) تدخل في صناعات اخرى وكذلك الحصول على الوقود البديل الذي يستخدم في تشغيل معامل الاسمنت وكذلك انتاج الاسمدة العضوية التي ساهم في زيادة الرقعة الزراعية مع تحسين البيئة.

عينة البحث.

جرى اختيار موقع معمل تدوير النفايات في مدينه المحمودية في العراق كعينة للبحث ودراسة الطاقة الاستيعابية للنفايات التي يستقبلها المعمل يومياً والمخرجات الاساسية لنتائج التدوير وتحليلها للوصول إلى نتائج البحث.

٢. أسلوب البحث Research Method

١. اتباع المنهج الوصفي الاستقرائي في الجوانب النظرية من البحث وذلك عن طريق البحوث والدراسات العلمية ورسائل الماجستير والدكتوراه في مجال تدوير النفايات والآثار البيئية المترتبة والمنافع المتحققة وراء حسن الادارة المتكاملة لتدوير النفايات واستثمارها.

٢. اتباع المنهج الوصفي التحليلي في الجوانب العملية مع دراسة كافة البيانات والمعلومات المستنبطة للوصول إلى النتائج من خلال استخدام المؤشر البيئي (MIP) لتحقيق الانتاج الانظف.

المبررات الضرورية للحاجة الى تدوير النفايات

هناك العديد من المبررات الضرورية جداً والهادفة الى الحاجة الماسة لتدوير النفايات في كافة البلدان العربية والتي يمكن إجمالها في النقاط الاساسية التالية:

١. العمل على الحد من تلوث الهواء

٢. التخفيف من تلوث مصادر مياه الشرب والمياه الجوفية.

٣. المحافظة على الصحة العامة للمواطنين ومصادر الحياة الاخرى بالإضافة الى الثروات الزراعية والحيوانية المختلفة.

٤. تحقيق جمالية المدن من خلال منع تشويه المدن الناجم من تراكم النفايات لكونها مظاهر غير حضارية.

٥. منع نشوء العشوائيات التي تشوه التصاميم الاساسية للمدن في لكافة البلدان العربية.

انواع النفايات ومصادرها.

تقوم المؤسسات البلدية في كافة المدن العربية بمهمة جمع النفايات وعلى مختلف مصادرها وانواعها والتي يمكن ذكرها في النقاط الاساسية التالية:

١. النفايات المنزلية (Demotic waste) وهي النفايات الناجمة من الانشطة المتنوعة لسكان المدن.

٢. النفايات الطبية (Medical waste) وهي المخلفات الناجمة من اعمال الطبابة والعمليات الصحية للمؤسسات العلاجية الصحية وهي نفايات سامة وخطيرة وتتطلب اجراءات حاكمة وصارمة للتخلص منها.

٣. النفايات الزراعية (Agricultural waste).

٤. النفايات الصناعية (Industrial waste)

٥. نفايات البناء والانشاءات (Demaltion and Construction Waste)

٦. النفايات الورقية والزجاجية والبلاستك والالمنيوم والاجهزة

appliances) (Waste, paper, glass, plastic, aluminvm, and electrical

الطرق المعتمدة في التخلص من النفايات في البلدان العربية.

Approved methods of waste disposal in Arab Countries

لازالت غالبية المؤسسات البلدية في البلدان العربية تعتمد على الطرق البدائية في التخلص من النفايات والتي يمكن ذكرها في النقاط الاساسية التالية:

١. الترميد (Incineration method):وهي العملية التي يتم فيها حرق النفايات الصلبة وتحويلها الى رماد وغاز وحرارة وهي من الطرق التي لا تلوث المياه الجوفية ولكنها ملوثة لهواء المدن.

٢. عملية الدفن (Land filling method): وهي العملية التي يتم من خلالها دفن النفايات داخل حفر ومرافق خاصة يتم تبطينها بمادة الطين والبلاستك وذلك من أجل ضمان عدم تسرب السوائل لتلك النفايات وتلويث المياه الجوفية.

٣. طريقة اعادة التدوير (Recycling method): ويتم من خلال فرز النقابات واعادة استخدامها لإنتاج مواد جديدة تصلح كمواد اولية لصناعات اخرى Raw materials

٤. تحويل النفايات العضوية الصلبة الى غاز حيوي Biog as Technologyحيث تتحلل الفضلات يفعل البكتريا اللاهوائية لإنتاج الغازات الميثان وثاني اوكسيد الكاربون (CH_4 , CO_2)

٥. تحويل النفايات الى اسمدة عضوية Converning waste into organic fertilizers

٦. حرق النفايات Rubbish burning: وهي العملية التي يتم من خلالها حرق النفايات وهي ملولة لهواء المدن.

المفهوم النظري لتدوير النفايات وتجارب الشعوب المتقدمة

The theoretical Concept of Waste recycling and experiences of developed peoples

تشير الاحصائيات والدراسات السابقة الى ان الاف الأطنان من النفايات المنزلية والزراعية والصناعية وغيرها والناجمة عن الانشطة المختلفة يتم نقلها من قبل المؤسسات البلدية العاملة في المدن العربية بواسطة السيارات التخصصية إلى مواقع الطمر الصحي لغرض التخلص منها وفق أحد الطرق المذكورة آنفاً.

ونتيجة للزحف الكبير لتلك النفايات باتجاه المدن وتهديدها الواقع البيئي لذلك قام الباحثون والمختصين بإدارة النفايات بإجراء الدراسات والتوصل الى حلول جذرية لوقف التداعيات السلبية لتراكم النفايات وعدم جدوى التخلص منها وفق الطرق البدائية وأجمعوا على ضرورة اعتماد التقنيات الحديثة لتدوير تلك النفايات والاستفادة منها. لقد استطاعت الدول المتقدمة من انشاء معامل حديثة لتدوير النفايات وتحقيق نسب متقدمة من تلك النفايات وأشارت الاحصائيات الحديثة أن النمسا جاءت بالمرتبة الاولى في تدوير النفايات وتصدير المنتجات الى الدول الاخرى علماً بان النمسا تشتري القمامة من دول اخرى كالدنمارك والمملكة المتحدة واستطاعت ان تنتج الطاقة الكهربائية من الاف الاطنان من النفايات وادناه جدول ومخطط بياني يوضح أسبقيات الدول المتقدمة بحسن ادارة النفايات واتقان استخدامها وكما موضح في ادناه:

ت	اسم الدولة	نسبة الاستفادة من النفايات
١.	النمسا	٦٣٪ من اجمالي النفايات
٢.	المانيا	٦٢٪ من اجمالي النفايات
٣.	تايوان	٦٠٪ من اجمالي النفايات
٤.	سنغافورة	٥٩٪ من اجمالي النفايات
٥.	كوريا الجنوبية	٤٩٪ من اجمالي النفايات

ولابد كذلك من ذكر اهم الدراسات السابقة عن تدوير النفايات من اجل اغناء المفهوم النظري لتدوير النفايات ومنها:

١. دراسة امكانية استغلال المخلفات الزراعية والنباتات الحولية في العراق والتي تم إجرائها عام ٢٠١٢ من قبل الباحث العراقي علي وهي الدراسة التي تهدف إلى ايجاد موارد بديلة للطاقة عن طريق اعادة تدوير النفايات الزراعية والتي يمكن ان تكون مصدراً للطاقة أو تحويلها إلى اسمدة عضوية أو اعلاف للحيوانات وتوصلت الدراسة الى ان العراق بلد غني بالمواد الخام غير المستغلة وقدمت الدراسة توصيات عديدة كان من اهمها هو ضرورة البداية بالتعامل مع المخلفات الزراعية والمتمثلة لمحاصيل الحبوب وتدويرها وان تقوم الدولة بإنشاء مشاريع خاصة لتدوير النفايات.

٢. وقدم الباحثان كلا من (عبد وزومايا) في عام ٢٠١٤ دراسة علمية عن الادارة المتكاملة للنفايات الصلبة واستراتيجياتها في بلديات المدن العراقية والخاصة بمدينه بغداد وتضمنت هذه الدراسة على القاء الضوء على نظم ادارة النفايات الفعالة والتي تقود الى استراتيجيات لتخفيض النفايات الصلبة وخفض الكلف المترتبة عليها وصولاً إلى تقليل نسب التلوث وبكلف اقتصادية مناسبة، وتوصلت تلك

الدراســة الى نتائج عديدة ومن ابرزها تراكم نقابات المدن وازدياد حمياتها في صــور النمو الســكاني المضطرد وكذلك عدم الاستفادة منها واستثمارها من خلال الاستغلال الامثل واشارت تلك الدراسة إلى تقديم العديد من التوصــيات ومنها ضــرورة قيام الدولة العراقية بإنشــاء وتشــكيل ادارة عليا ومتكاملة لإدارة المخلفات وتدويرها واشاعة ثقافة الترشيد وجمع وفرز النفايات ومنح مكافأة تشجيعية لهم وكذلك تطوير المشاريع الحالية لتدوير النفايات والاستفادة من مخرجاتها كموارد مالية او طاقات للوقود البديل واسمدة عضويه واعلان للحيوانات.

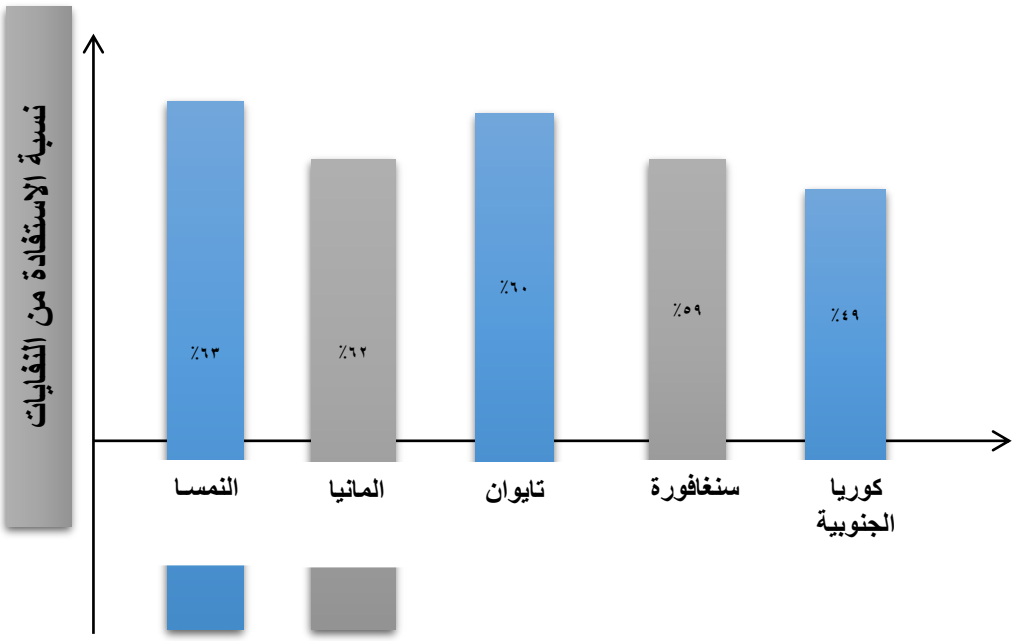

ان النمســا تقوم بشــراء النفايات من دول أخرى كالدنمارك والمملكة المتحدة والدول الاســكندنافية وتعمل على تدويرها بعد فرزها وتحقق فوائد عديدة من تدوير تلك النفايات ومنها انتاج الرقائق الالكترونية وبيعها على الدول الصناعية وكذلك تحسين البيئة ومنع تلوث الهواء وضمان سلامة نوعية وجودة المياه الجوفية وكذلك انتاج الوقود البديل RDF وهو بديل النفط الاسود وضمان استخدامه في تشغيل معامل الاسمنت بالإضــافة الى انتاج الطاقة الكهربائية والاســمدة العضــوية وفعلاً حققت الدول المذكورة اعلاه عوائد مالية كبيرة من خلال حســن الادارة المتكاملة لمشــاريع تدوير النفايات التي أنشــأتها وتقوم بتوســيع خطوطها الانتاجية بصورة مستمرة.

ولا يخفى ان نذكر دور الوعي البيئي المتميز لدى المواطن الســويدي والالماني في التعاون في انجاح مشاريع تدوير النفايات من خلال اجراء الفرز الأولي لتلك النفايات ووضعها حسب النوع بداخل الحاويات البلاستيكية المخصصة لها.

الفصل الثاني

الجوانب والتطبيقات العملية في تدوير النفايات في البلدان العربية

Practical aspects and applications of Waste Recycling in Arab towns

لقد أدركت غالبية المؤسسات البلدية في البلدان العربية عدم جدوى طمر النفايات وتأثيراتها السلبية على البيئة زحفها الكبير نحو مراكز المدن وبعد اطلاعها على تجارب الشعوب المتقدمة لجأت الى ضرورة مغادرة الطرق الكلاسيكية والقديمة والتوجه نحو تدوير النفايات Recycling of wasteويمكننا الانتقال إلى بعض التطبيقات والجوانب العملية لبعض الاقطار العربية ومنها:

١. **دولة الكويت:** خلال عام ٢٠١٤ بدأ الترحيب بفكرة تدوير النفايات في دولة الكويت وفعلاً تم بناء أول معمل للتدوير وذلك عام ٢٠١٥ بعد موافقة الصندوق الكويتي على انشاء ذلك المعمل ضمن خطه المشاريع المتوسطة والصغيرة التي تم اقرارها وتم إطلاق اسم (أمنية) على ذلك المعمل ويقوم بتدوير نوع واحد من البلاستك ويتولى تصدير مخرجاته الى بعض الدول الاوروبية ومنها ايطاليا.

٢. **المملكة العربية السعودية:** تقوم الدوائر البلدية في المملكة العربية السعودية بإلزام أصحاب الفلل والعقارات على انشاء غرفة في مقدمة تلك الاملاك وتخصيصها لخزن الحاويات البلاستيكية حيث يتم اجراء عملية فرز اولي للنفايات وتتولى الدوائر البلدية تنظيف وتعقيم تلك الغرف والحاويات بصورة مجانية مع رفع النفايات ونقلها إلى معامل التدوير وفي نية تلك المؤسسات ان تقوم بتدوير نسبة (٤٢٪) لغاية عام ٢٠٣٥ وبدأ معمل التدوير بالعمل عام ٢٠١٦ وتبلغ كمية النفايات في المملكة حوالي (٣٢) لمن سنوياً.

٣. **جمهورية مصر العربية:** تبلغ كمية النفايات في مصر حوالي (٢٠) مليون طن سنوياً وان ما يتم تدويره داخل معامل التدوير نسبة (١٥٪) فقط حيث قامت الحكومة المصرية بإنشاء (١٠) معامل لتدوير النفايات وبكلفه مالية تقديرية بلغت (١٠) مليار دولار. وعلى سبيل المثال يستلم معمل السلام المتخصص في تدوير النفايات كمية (١٠٠٠) طن يومياً من نفايات مدينه القليوبية وكذلك كمية (٤٠٠) طن من نفايات العاصمة القاهرة وتتولى الشركة المصرية للإدارة المتكاملة للمخلفات (أيكوم) عمليات ادارة مشاريع تدوير النفايات وتهدف الحكومة المصرية من وراء عمليات التدوير انتاج الطاقة الكهربائية والوقود البديل اللازم تشغيل معامل السمنت وكذلك انتاج الاسمدة العضوية المستخدمة للأغراض الزراعية.

٤. **دولة قطر:** ذكرت جريدة الراية القطرية بان وزارة البلدية والتخطيط العمراني في دولة قطر قدمت ورقة متكاملة عن خطتها بتدوير النفايات من خلال الورقة التي قدمها ممثل الوزارة اعلاه الدكتور فراج الشيخ الفزاري بان تجربه قطر جديدة على مستوى دول الخليج وان معمل التدوير في قطر يقوم

حالياً بتدوير نسبة (٣٨%) من اجمالي كمية النفايات على مستوى دولة قطر ويقوم المعمل باستقبال ومعالجة ما يقارب (١٨٠٠) طن من النفايات يومياً وان هناك خطط واعدة لإنشاء معامل أخرى في المستقبل.

٥. **جمهورية العراق الاتحادي:** لقد استطاعت المؤسسات البلدية في العراق انشاء عدد من المعامل الحديثة لتدوير نفايات المدن العراقية حيث تبلغ الكمية الإجمالية للنفايات في العراق حوالي (٣٠) ألف طن سنوياً، وأدناه أهم معامل التدوير الحديثة التي تم انشائها في العراق ومنها:

أ. معمل تدوير النفايات في قضاء المحمودية التابع لمحافظة بغداد حيث يستلم هذا المعمل النفايات من المدن القريبة له ومنها (اللطيفية واليوسفية والرشيد) وتبلغ مساحة المعمل المذكور حوالي (٦٤) دونم وتبلغ طاقته (٢٠٠) طن يومياً علماً بأن المعمل المذكور انشئ عام ٢٠١٣ ويدار من قبل مديرية بلديات بغداد التابعة لمديرية البلديات العامة والعائدة الى وزارة الاعمار والاسكان والبلديات العامة.

ب. معمل تدوير النفايات في السليمانية التابع لاقليم كردستان لقد تم إنشاء المعمل المذكور من قبل شركة عراقية في شمال العراق مع شركتين اوروبيتين وبكلفة مالية بلغت (٦٠) مليون دولار وبطاقة يومية تبلغ (١١٠٠) طن وينتج المعمل الوقود البديل اللازم لتشغيل معامل الاسمنت.

٦. معامل تدوير النفايات في محافظة ذي قار

يقوم برنامج الامم المتحدة الانمائي بإنشاء (٢) معمل لتدوير النفايات في محافظة ذي قار و ذلك من خلال شراكة مع مدينه براتو الايطالية وذلك من خلال شركة براتو (pin prato) وبالتعاون مع الحكومة المحلية في المحافظة اعلاه وجاءت المشاريع اعلاه كثمرة للتوأمة تحت مظلة برنامج الامم المتحدة الانمائي والممولة من الاتحاد الاوروبي.

مخطط بخطوات اعادة تدوير البلاستيك **(معتمد في دولة الكويت)**

Diagram of the steps for plastic recycling

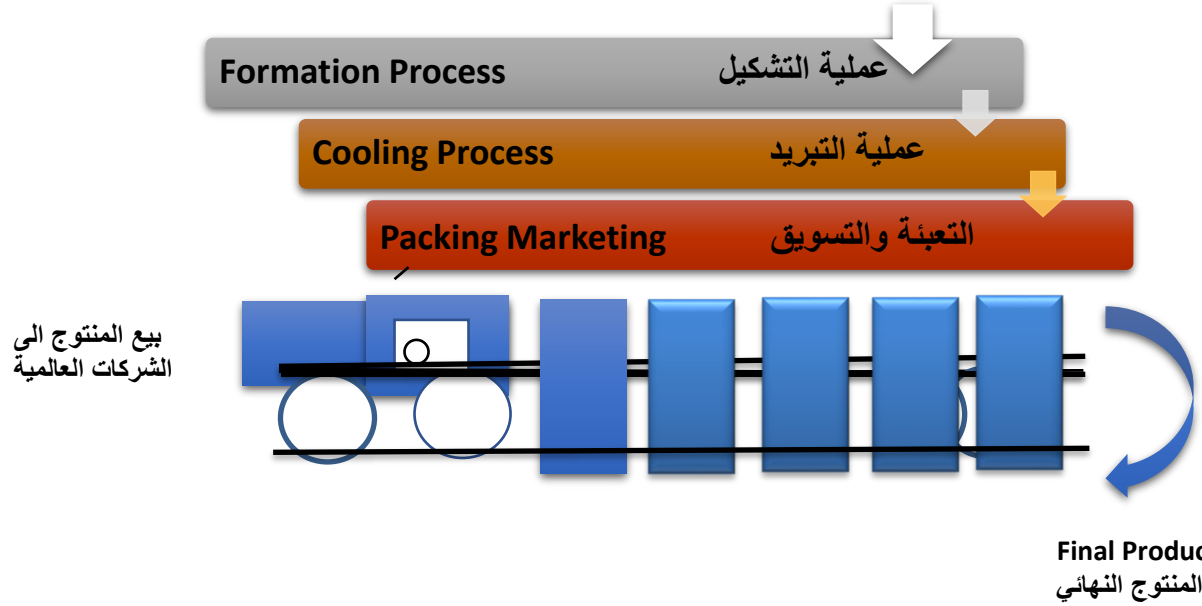

الاستنتاجات Conclusions

من خلال ما تقدم نستخلص النتائج التالية:

١. ان بقاء المؤسسات البلدية العاملة في المدن العربية على استخدام الطرق البدائية بالتخلص من النفايات يؤدى الى تلويث الهواء والبيئة والحياة الجوفية ويلحق خسائر مادية كبيرة في تلك المؤسسات نتيجة عدم تدويرها

٢. ان تدوير النفايات واعادة استخدامها هو الحل الامثل لمعالجة النفايات المختلفة حيث تحقق عوائد مالية مع تحسين البيئة.

٣. من فوائد تدوير النفايات هو انتاج مواد تعتبر كمواد اولية تدخل في صناعات جديدة وكذلك انتاج الطاقة الكهربائية والوقود البديل اللازم لتشغيل معامل الاسمنت وكذلك انتاج الاسمدة العضوية.

٤. خلق فرص عمل ملائمة للعاطلين عن العمل.

التوصيات Recommendations

١. حث الحكومات العربية على إلزام المؤسسات البلدية بإنشاء معامل لتدوير النفايات ورصد التخصيصات المالية الكافية لإنشاء تلك المعاملة.

٢. أشاعه ثقافة التعريف بفوائد تدوير النفايات لدى الجميع وتأمين الحاويات البلاستيكية اللازمة لجمع النفايات وحث السكان على اجراء الفرز الأولي للنفايات ووضع كل نوع من النفايات ضمن الحاوية الخاصة بتلك النفايات.

٣. اصدار التشريعات اللازمة لمحاسبة المخالفين ومكافئة المتعاونين مع المؤسسات البلدية في انجاح مشاريع تدوير النفايات.

٤. مواكبة التطورات الحديثة التي يشهدها عالمنا المعاصر في ظل ثورة تكنولوجيا المعلومات في مجال تدوير النفايات لتطوير تجربة البلدان العربية في هذا المجال الحيوي.

الخاتمة.

أن امتلاك الدوائر البلدية ولكافة البلدان العربية التقنيات الحديثة في تدوير النفايات يعتبر من الضرورات الاقتصادية والبيئية الملحة وان يتم انشاء العديد من معامل التدوير لكي تغطي حاجة كافة المدن مع توفير الاليات والمعدات والاجهزة والكوادر العاملة والتخصيصات المالية الكافية لإنجاح مثل هذه المشاريع الحيوية.

المصادر والمراجع Sources and references

١. مركز العاصمة للأبحاث والدراسات الاقتصادية في جمهورية مصر العربية ٢٠١٩.

٢. تقرير عن ندوة (اعادة تدوير النفايات البلاستيكية ومفهوم الاقتصاد التدويري) الصادر من منظمة الاقطار العربية المصدرة للنقط والمعد من قبل الدكتور ياسر بغدادي من الدائرة الفنية في دولة الكويت عام ٢٠٢١

٣. الابعاد الاستراتيجية لإعادة التدوير في تعزيز فلسفة التسويق الاخضر للدكتور ثامر البكري - جامعة العلوم التطبيقية - المملكة الاردنية الهاشمية

٤. النفايات الصلبة كيف تتعامل معها ونفيد منها / للدكتورة عبير عيسى.

٥. طرق معالجة النفايات واهمية اعادة تدويرها للأستاذة الدكتورة شيماء فاتح علي - جامعة تكريت / كليه العلوم قسم علوم الحياة

٦. النفايات الصلبة solid waste / محاضرات للمرحلة الثالثة جامعة كركوك / كليه العلوم - قسم علوم الحياة.

٧. النفايات أعادة تدويرها واستخدامها / للأستاذ احمد شفيق - موسوعة البيئة الناشئين.

٨. اعادة تدوير النفايات ودورها في تحسين الكفاءة الانتاجية / بحث متطلبات الحصول على شهادة الماجستير - الطالبة صدى مدحت مجيد اشراف الدكتورة فيحاء عبد الله يعقوب عام ٢٠١٧.

٩. النفايات المنزلية بين اعادة التدوير والاضرار الصحية والبيئية /فارس عبد الرحمن السويلم.

١٠. مجلة البيئة والتنمية العدد ٢٦٦.

١١. جريدة الراية القطرية

١٢. ادارة النفايات الصلبة اسامة عبد الرحمن ابراهيم.
١٣. قانون حماية وتحسين البيئة في العراق رقم (٢٧) لسنة ٢٠٠٩
١٤. ادارة المخلفات البلدية في العراق لعام ٢٠١٤ الصادر من وزارة البيئة العراقية.
١٥. التقييم البيئي مواقع معامل الاسمنت في العراق ٢٠٠٩.
١٦. الوثيقة المصرية للإنتاج الانظف/ وزارة الصناعة المصرية.
١٧. ادارة البيئة والتنمية المستدامة في ظل العولمة المعاصرة للدكتور خالد مصطفى قاسم / الطبعة الثانية / الاسكندرية عام ٢٠١٠.
١٨. المخلفات الصلبة (البيئة والاقتصاد) للباحث كل من (عبد الظاهر وندى عاشور) المنشور في مجلة اسيوط المصرية للدراسات البيئية العدد ٣٥.
١٩. مشروع معمل قرز وتدوير النفايات في قضاء المحمودية التابع لمحافظة بغداد / العراق ـ رسالة محافظة بغداد لعام ٢٠١٣
٢٠. النفايات ... الثروة المهدورة وامكانية الاستثمار ـ مقالة في جريدة الصباح العراقية بقلم فجر محمد عام ٢٠١٣.
٢١. المعالجات التخطيطية لمشكلة النفايات في مدينة الحلة (محافظة بابل) في العراق لكل من الباحثين دنيا شكر النجار وحسام جبار المعموري .
٢٢. الانسان وتلوث البيئة / جمال احمد / منشورات الامل للنشر والتوزيع ٢٠٠٤.
٢٣. (علم البيئة) للأستاذ حسين علي السعدي / مطبعة دار البازوري عمان ٢٠٠٦.
٢٤. أثر معالجة النفايات الحضرية الصلبة على البيئة/ عبد الوهاب خالد نوفل جوزيف رزقو ـ مجلة الهندسة مجلد ٢٣ العدد ٣، ٢٠١٧.

خامسا: بحوث المسرح

الخطاب المسرحي وسيمياء الزمن في مسرح سلطان القاسمي
مسرحيـة عودة هولاكو أنموذجا

نوزاد جعدان ـ باحث سوري

البريد الالكتروني:nouzadjadan@gmail.com

تاريخ التقديم للنشر ٢٠٢٢/٠٩/١١ تاريخ القبول للنشر ٢٠٢٢/١١/٣

ملخص:

تأتي أهمية البحث من كونه يمثل محاولة متواضعة للمساهمة في جهود رسم ملامح منهج يتيح قراءة سيميائية للنصوص المسرحية بشكل عام ونص سلطان القاسمي خاصة، لا سيما سيمياء الزمن في المسرح الذي يقدم بدوره زمنا خاصا به تبعا لمستويات قرائية متعددة، إذ يتميز عن بقية الأعمال الفنية الأخرى باختلاف أنواعها، كما هو الحال بالنسبة إلى زمن الروائي والأسطوري والملحمي والشعري باعتبارها جنسا أدبياً، إذ تخضع مستوى التحليل للزمن السيميائي وفقاً للمنطلق الاشتغالي للمناهج النقدية القرائية، بوصفها جزءا من الآلية التي تقدم بها الوهم الواقعي لزمن متفرد ومستقل في النص المسرحي، كذلك يمتاز الخطاب المسرحي بخصوصيته المجسدة كونه يشكل الدعامة الأساسية لدفع الحبكة إلى الأمام والكشف عن الشخصيات، فتحددت مشكلة البحث بدراسة الوظيفة السيميائية للزمن وتحليل الخطاب المسرحي بوصفها جزءا من عناصر التشكيل في بنية النص المسرحي.

يقع البحث في أربعة فصول خصص الفصل الأول للإطار المنهجي وتحدد فيه مشكلة البحث، وهدف البحث الذي يتضمن التعرف على دو ر الخطاب المسرحي و سيمياء الزمن في تشكيل بنية النصوص المسرحية للمؤلف الدكتور سلطان بن محمد القاسمي بوصفها مرآة تعيد انعكاس التأثير الواقعي لحياة الفرد في المجتمع، فضلاً عن حدود البحث، وتحديد أبرز مصطلحات البحث، فيما اشتمل الفصل الثاني على الإطار النظري على مبحثين، المبحث الأول يتطرق فيه الباحث الى تأسيس مفهوم سيمياء الزمن، فيما عُني المبحث الثاني بدراسة الخطاب المسرحي و سيمياء الزمن في النص المسرحي، أما الفصل الثالث فقد اشتمل على إجراءات البحث المكون من مجتمع البحث واختار الباحث عينة مسرحية عودة هولاكو للكاتب سلطان القاسمي وقد اختار العينة بالطريقة القصدية كونه وجد أن العينة تحقق هدف البحث، وتضمن الفصل الرابع نتائج البحث، والاستنتاجات، وقائمة بالمصادر والمراجع.

Abstract:

The semology as a method of studying the linguistic sign and other symbols, icons, signs and gestures, ie linguistic and non-linguistic formats, and theater speech employs language formats and others, so the Sémiological approach is the most appropriate method to study and analysis of theatrical discourse, because of the complementary relationship between them, The light on one of the plays that have not been studied as far as I know to be the discourse analyzed in the light of this modernist approach, began from the title as the first threshold through which the text world, which puzzled and impressed the reader, The difference between the play and the other literary genres), was distinguished in the play of Hulaku's return , and then touched the rest of the elements Dramatic construction of conflict and event ... etc, although the

number of pages of the play did not exceed fouty pages, but the writer employed all elements of construction Dramatic, which makes the Metn drama dramatic.

key words: Sémiologie, discours analysis, play Hulaku's return.

مقدمة:

منذ أن قسم دى سوسيير الرسالة اللغوية إلى علامات لغوية، وعلامات غير لغوية، وبدأ التفكير في خاصية العلامات غير اللغوية وفوائد إضافتها للرسالة اللغوية بدأت السيمولوجية تطفو إلى سطح الأدب، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ البولنديون والتشكيليون في استثمار السيميولوجيا في التطبيقات النقدية، ثم لاحقتهم جهود مائزة في فرنسا وألمانيا وإيطاليا .... ثم جاء تشارلز ساندرس بيرس ليتوسع في استثمار السيميولوجي، وقدم أنموذجاً آخر بعد دى سوسيير وساعد على دراسة الإشارات– الإشارة الموجدة بالإضافة إلى فك سيميولوجيا التشفير، والحديث عن الأيقونة، ويرى أتباع بيرس أن محاولاته جاءت مدعومة ببعد فلسفي.

وحين شهد المجال النقدي في المسرح مجموعة من الحركات التي كانت تهدف إلى تطوير وكسر التقاليد والجمود التي هيمنت على النصوص الأدبية، والتعدي على قواعدها لغرض انتاج آليات تحليلية جديدة، ومن هذه الحركات؛ السيمائية التي ساهمت في تشكيل تيار فكري يهدف إلى فهم وتأويل النص الأدبي في جميع أشكاله، إذ ظهرت هذه الحركة على يد مجموعة من المفكرين والفلاسفة أبرزهم فردناند دوسوسير وبيرس اللذان يران أن السيمياء تهتم بدراسة حياة العلامة داخل المجتمع، وتزود القارئ أو المتلقي بمعرفة جديدة

عن الحياة الإنسانية في جانبها الاجتماعي عن طريق مفهوم الدلالة التي تنقسم بدورها إلى الدال والمدلول، حيث دخلت السيميائية مضمار التحليل لعناصر النص المسرحي بوصفها نوع من أنواع الدراسات اللسانية التي تخضع لفعل القراءة النقدية، ومن هذه العناصر عنصرا الزمان والمكان اللذان يلازمان العمل الأدبي، فمن أجل تحديد التأثير السيميائي على هذين العنصرين، لجأ الباحث إلى التفريق بينهما عبر دراسة عنصر الزمن في النص المسرحي بوصفه عنصراً مستقلاً، فالزمن في النص المسرحي يسير من البداية حتى النهاية مرورا بالوسط عن طريق بناء درامي خاص، وتلك المحاولات السيميولوجية قد انطلقت من عباءة البنيوية، وهو الأمر الذي ساعد التطبيقات النصية على تفتق شرنقة النقد الداخلي البنيوي بما قدمته مدرسة سيدني السيميائية الاجتماعية ثم ما قدمه لوتمان يورى سنة ١٩٩٣ في مشروعه عن السيميائية الثقافية وإذا أضفنا إلى المحاولتين سبق لوسيان جولدمان إلى البنيوية التكوينية / التوليدية، والمحاولة اللاحقة لجاك لاكان في علم النفس البنيوي، ومما تقدم يطرح الباحث التساؤل الآتي: ما الوظيفة السيميائية للزمن وما دور الخطاب المسرحي في نصوص سلطان القاسمي المسرحية.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث بوصفه محاولة للكشف عن الوظيفة السيميائية للزمن وتأثير الخطاب المسرحي في تشكيل بنية النص المسرحي الخليجي المعاصر مما تفيد النقاد والمهتمين في مجال التأليف المسرحي والدارسين والباحثين في مجال الأدب والنقد المسرحي، والكشف عن الأنساق المضمرة النفسية الاجتماعية والسياسية الحضارية في نصوص المسرح.

هدف البحث:

يهدف البحث الحالي إلى التعرف على دور السيمياء الزمني والخطاب المسرحي في تشكيل بنية النصوص المسرحي للمؤلف سلطان القاسمي بوصفها مرآة تعيد انعكاس التأثير الواقعي لحياة الفرد في المجتمع.

حدود البحث:

- الحد الزماني: من عام ١٩٩٨ إلى العام ٢٠٢٢ ميلادي.
- الحد المكاني: النصوص المسرحية الإماراتية التي كتبت في الإمارات.
- الحد الموضوعي: النصوص المسرحية لسلطان القاسمي والتي تحمل مقومات السيمياء الزمنية.
- الحد البشري: الكاتب سلطان بن محمد القاسمي.

الكلمات المفتاحية:

(سيمياء الزمن -الخطاب المسرحي – سلطان القاسمي -عودة هولاكو)

مصطلحات البحث:

سيمياء الزمن:

نعرفه اجرائيا بأنه دراسة جماليات الزمن عن طريق العلاقة الدلالية للدال والمدلول وفقا للقراءة السيمائية.

الخطاب المسرحي:

يتوارى المؤلف ويفسح المجال أمام الشخصيات لتقديم الحوادث الكلامية من خلال وحدات التبادل الحواري، فتصبح اللغة مواكبة لخطى الفعل إلا أن لغة المسرح لا تقتصر على الوحدات اللغوية الصوتية المنطوقة فحسب، بل الاهتمام بالإشارات وفترات الصمت، إذ الصمت في المسرح فضاء لاستقراء المسكوت عنه، أو من خلال أداء الشخصية تماما كما للحركات والايماءات المصاحبة للوحدات المنطوقة مراعاة احترام وجود شفرة (كود) بين المرسل والمتلقي.

سيمياء الزمن المفهوم:

شكلت الدراسات السيميائية في النص المسرحي محمولات عدة اعتمدت فيها على المستوى القرائي لعناصر التشكيلية للأعمال الإبداعية المسرحية، إذ اهتم الكثير من النقاد بآلية توظيف السيميائي وطبيعة التحليل النقدي في النص المسرحي، فضلاً عن الأثر الذي تفرزه عملية القراءة عن طريق عنصري الزمان والمكان، علاوة على ما تفرزه من تأثير في مستوى الإدراك للمتلقي تلقي عن طريق الأحداث والشخصيات وغيرها من عناصر البنية الدرامية.

أولاً: مفهوم السيمياء:

اقترن مصطلح السيمياء في حركت التأليف المسرحي وذلك باعتباره نشاطا معرفيا، إذ امتد المفهوم من الجانب الإشتغالي في مختلف الحقول المعرفية كاللسانيات والمنطق والفلسفة والتحليل النفسي وغيرها من العلوم الأخرى، فمن يطلق عليها السيميولوجيا وخاصة الكتاب الفرنسيين, ومنهم ما يطلقون عليها تسمية السيميوطيقا وهم الإنكليز، وقد حاول النقاد أن يدمج بين المصطلحين فهناك من يرى أن السيميولوجيا تعني بدراسة نظام محدد من أنظمة التواصل، عن طريق علاماته واشاراته ودراسة الدلالات والمعاني أينما وجدت، وعلى الخصوص في النظام اللغوي، أما السيميوطيقا "فتهتم في دراسة الاتصالات والدلالة عبر انظمه العلامات في علوم مختلفة، وفي تطبيقاتها وممارساتها الخيالية"، [١] نلاحظ عن طريق ذلك عدم وجود تعريف محدد لمفهوم السيمياء ، إلا أن هذا لم يمنع العلماء من المحاولة في ايجاد تعريف شامل، "فقد عرفها بيار غيرو بأنه العلم الذي يهتم بدراسة أنظمة العلامة واللغات والإشارات والتعليمات" [٢] وهذا التحديد يدخل

[١] عزام، محمد، النقد والدلالة، دمشق، وزارة الثقافة السورية، ١٩٩٦، ص٩.

٢ .المرتجى، أنور، سيميائية النص الادبي، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص ٣.

اللغة تحت مفهوم السيميولوجيا، وهو المفهوم الذي اكتشفه فردناند دي سوسيرالذي تكلم عن السيمياء في كتابة محاضرات في علم اللغة إذ كان يرى "أنها العلم الذي يدرس حياة العلامات من داخل الحياة الاجتماعية، ونستطيع إذن ان نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي، وهذا العلم يشكل جزء من علم النفس العام. ونطلق عليه مصطلح علم الدلالة " [١]، فالسيمياء حسب مفهوم سوسير هو علم الإشارة الذي نشأ داخل المجتمع عن طريق اللسانيات، فهو يرى أن اللغة "هي نظام اشاري يعبر عن الأفكار ، وبذلك يمكن مقارنته بالنظام الكتابي وبالنظام الاشاري"[٢] و عمد سوسير إلى جعل قواعد ثابتة إلى مفهوم السيميولوجيا وذلك من أجل تميزها عن المفاهيم الأخرى، فقد استخدم الثنائية التي اعتبرها الاساس التي تقوم عليه العلامة وهي "الدال صورة سمعية او بصرية ، والمدلول تصور ذهني غير مادي ، وفي أغلب الأحيان يكون الرابط بين الدال والمدلول اعتباطي" [٣]، ولهذا خضع دراسة العلامة من ناحية التشابه إلى مقومات والأبعاد الثلاثة " هي أولاً: البعد التركيبي: فاللغة تتكون من فونيمات (صوتيات) ومورفيمات (وحدات صرفية) ووحدات معجمية، وتشكل هذه الوحدات البعد التركيبي للدلائل، ثانياً البعد الدلالي: يهتم بالمعاني في علاقاتها بسياقاتها، ثالثا : البعد التداولي : يعني بقواعد التأويل، اي علاقة الدلائل بالنظر إلى ما تؤوله"[٤].

فيما أعطى بارت لسيمياء الدلالة مجموعة من العناصر توزعت على أربع ثنائيات وهي "اللغة والكلام: يرى بارت من البديهي أن لا يستمد أي واحد منها تعريفا كاملا إلا من السيرورة الجدلية التي توحد بينهما معاً، فالكلام واللسانيات سابق على اللغة تكوينها، واللغة تتشكل منه، فإنه لا يكتسب قيمته إلا اذا كان في وسط اجتماعي متعاقد على لغة معينة، وهكذا فإن الكلام واللغة عنصران لا يمكن ان يستغني أحدهما عن الآخر أما الدال والمدلول فتشكلت هذه الثنائية في لسانيات دي سوسير بأن الدليل هو الصورة السمعية او الصوتية والمدلول هو التصور الذهني، وبعدها جاء أصحاب سيمياء الدلالة إذ قاموا بتطوير مفهوم الدليل ليأخذ بذلك أبعاد أخرى حيث لم يعد يستخدم بتلك البساطة التي استخدمها سوسير فأصبح مكون من دال ومدلول إذ يشكل صعيد الدوال صعيد العبارة ويشكل صعيد المدلولات صعيد المحتوى ، وثالث الثنائيات هي المركب والنظام و ترى هذه الثنائية أن العلاقة الموجودة بين الألفاظ والكلمات تتطور على صعيدين هما: المركب، والسلسلة الكلامية، إذ ان لكل لفظة قيمة تنتج عن طريق تعارضها مع سابقها ولاحقها، أما الصعيد الثاني فهو صعيد تداعي الألفاظ خارج الخطاب أو الكلام، أما رابع الثنائيات فهي التقرير والإيحاء:

---

١ غيرور، بيير، السيمياء، تر: انطون ابن زيد، بيروت ١٩٨٤، ص ٥٠.
٢ قطوس، بسام، مدخل الى مناهج النقد المعاصر، الإسكندرية، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر،٢٠٠٦، ص ١٤٨.
٣ جلال، زياد، مدخل الى سيمياء المسرح، وزارة الثقافة، الدستور الثقافي١٩٩٢، ص ٢٦.
٤ قطوس، بسام، مدخل الى مناهج النقد المعاصر، الإسكندرية، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر،٢٠٠٦، ص ١٩١٨.

يرى أصحاب سيمياء الدلالة ان كل دليل له مستويان: مستوى تقريري وآخر ايحائي، فالدليل هو دائما إشارة، ويكون المعنى دائما مرافق للتبليغ، وبهذا يكون المعنى التقريري مرافق للمعنى الإيحائي، وبالتالي تعني سيمائيات المعاني بدراسة نظام الأدلة التي تستهدف المعاني الإيحائية. ١

وربما نجد من المستحسن أن نورد معنى السيمة ووردها في القرآن الكريم بقول تعالى ((تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا))البقرة ٢٧٣، ((وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ)) الأعراف ٤٦، ((وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ)) الاعراف ٤٨، ((وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ)) محمد ٣٠، ((سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ)) الفتح ٢٩، ((يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)) الرحمن ٤١.

ويتضح مما سبق، أن لفظ السيمياء ورد في القرآن الكريم بمعنى العلامة، سواء أكانت متصلة بملامح الوجه أو الهيئة أم الأفعال والأخلاق.

مفهوم الزمن:

شغل مفهوم الزمن العديد من العلماء والفلاسفة المختصين في المجال المسرحي وذلك لما له من دور بارز وأساسي في النصوص الأدبية بصورة عامة، وقد اختلف الباحثين والمفكرين في تعريف الزمن فقد اعتبرهُ بعض بأنه "مقوله من مقولات الفكر عند بعض الفلاسفة وهو مقولة من مقولات الوجود عند بعض الآخر، والزمن من الناحية اللغوية يقع على جميع الدهر وبعضه، وهو جانب من جوانب الوعي الإنساني"٢ فعن طريق التعريف يكون للعناصر اللغوية دور في التعبير عن الزمن عن طريق ثلاث نقاط: "نقطة زمن الحدث أو الواقعة نفسها والنقطة الأخرى هي زمن الكلام أو التلفظ أما الثالثة فهي نقطة الزمن المرجعي ٣ وهي نقطة زمنية تضبط في ضوء علاقتها بنقطة زمنية أخرى وعرف أيضا على أنه "المادة المعنوية التي يتشكل منها إطار كل حياة وحيز، كل فعل وكل حركة والحق أنها ليست مجرد إطار بل إنها لبعض لا يتجزأ من كل الموجودات وكل حركتها ومظاهر سلوكها" ٤، فالزمن مرتبط مع كل حركة وكل فعل، إذ يكون ملازما لتلك الحركات والأفعال وقد يكون الهدف من ذلك " تشكيل قناة التي تنكشف عبرها كل الخبرات والتجارب الماضية المهمة والخطيرة في حياة الكاتب والقارئ معاً، ونقطة انطلاق عندما يصبح التعبير عن الزمن قوة ديناميكية تدفع بالأحداث الى النمو والتطور" .٥

١ الأحمر، فيصل، معجم السيميائيات، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون .٢٠١٠

٢ معن، زياد، الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦، ص ٤٦٧.

٣ الزناد، الازهر، نسيج النص، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣، ص ٧٣.

٤ عبدالصمد، الزيد، مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، تونس، لدار العربية للكتاب، ١٩٩٨، ص ١٤.

٥ بويجرة، بشير محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري، الجزائر، دار المغرب للنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ص٢٣.

ويمكن ملاحظة أحد الخصائص التي يقوم بها الزمن داخل النص المسرحي من حيث تطور الأحداث باعتبارها قوة ديناميكية تسعى إلى نمو وتطور أحداث النص، وإن الأنواع الزمنية التي تتحكم في الاعمال الأدبية بصورة عامة تعتمد على الزمن السردي والزمن الفيزيائي والشعري واللغوي وزمن الحالي الآن، والتي قد عرفها الفلاسفة بأنها " لحظة من لحظات الزمن تطلق على الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وهو عند بعض الآخر قاصر على الحاضر فقط، وهو عند فريق ثالث ليس جزءاً من الزمن بل هو خارج نطاق الزمن"[١]، ويمكن تصور ظاهرة الزمن في النص المسرحي عن طريق الدال الذي يوحي إلى تصور ذهني أي المدلول عن طريق تركيب إشارة توحي إلى لحظة زمنية فيكون الزمن هنا مفترض من قبل المخرج والجمهور, أما الزمن الفيزيائي فهو زمن رياضي، إذ يمكن وصف هذا الزمن بأنه له طابعا خطياً, وهذا يعني أن الزمن الفيزيائي هو زمن تتابعي متصل غير منفصل وكل لحظة زمنية تؤدي الى حدوث لحظة زمنية أخرى، فهو زمن أشبه بالخط لا يمكن قطع لحظة وتقديم لحظة أخرى، وهذا الزمن يختلف عن الزمن السردي الذي يمكن ملاحظته في الأعمال الأدبية مثل الملحمة التي تمتاز بامتدادها وشساعة المجال الزمني الذي تتحرك فيه، فالملحمة لا تخضع إلى نظام معين في التعامل مع الزمن فهي تختص في الزمن الماضي دون غيره من الأزمنة الأخرى، ولم تبقَ القواعد الزمنية في النص المسرحي ثابتة على اتجاه واحد فقد تطورت مع تطور المذاهب المسرحية، اذ اختلفت بعض القواعد اتجاه مفهوم الزمن، فتشكلت الأبعاد الزمنية المتعددة على وفق التطابق الثلاثي لزمن الخطي مع الحدث، ومستوى عدم تطابقها في حدث آخر، حيث تطور الزمن في النص الكلاسيكي من الدورة الشمسية الواحدة ويكون زمن غير تعاقبي في النص الرومانتيكي، فالزمن متداخل يتنقل من زمن الى آخر داخل الخطية الزمنية الثلاثية، حيث يقوم على المفارقة في الأحداث، أما زمن عصر النهضة فقد تكون بعض النصوص ذات زمن افترضي، وبعض الآخر زمنا تعاقبيا، وزمن دائري، حيث يعتبر النص الحديث جامع لمنطق الأزمنة"[٢]، وعن طريق ذلك نستطيع كشف الدور الذي يلعبه الزمن في اعطاء بنية معينة للمذهب أو العمل المسرحي, وهنالك نوعين من أساسيين من الأنظمة التي تسير على ضوئها العناصر الموضوعية "إما أن تخضع لمبدأ السببية وتنتظم داخل نوع من الإطار الزمني، وإما أن تعرض بشكل لا يخضع لمنطق الزمن ولكنه يتتابع دون مراعاة السببية الداخلية"[٣] فيطلق على النوع الأول النظام المنطقي الزمني كما يسمى النوع الثاني النظام المكاني ففي النظام الاول تسير عناصر المسرحية على وفق مبدأ السبب والنتيجة، ويحد هذه العناصر مفهوم الزمن اذ يكون هو المسؤول عن تصاعد الاحداث وتشكيل الذروة، وتنقسم أفعال الزمن الى قسمين أساسيين أفعال اساسية

---

[١] الموسوعة الفلسفية العربية، ص ١٤، م س.

[٢] المهدي، شفيق، أزمنة المسرح، بغداد، وزارة الثقافة، دائرة السينما والمسرح، ٢٠١٠، ص١٢٧.

[٣] فضل، صلاح، نظرية البنائية في النقد الأدبي، القاهرة، دار الشرق، ، ١٩٦٨، ص ٨٠.

وضرورية في تمثيل الاحداث الرئيسية، وهي التي لا يمكن ان يستغني عنها المتلقي لأنها تمثل المعالم التي يقوم عليها النص المسرحي، وهي أساسية في تمثيل الأزمنة المقترنة بأحداثها من حيث الصيغة مدلولها والثانية هي أفعال ثانوية تعين على تمثيل الأحداث ولكنها ليست ضرورية إذ يمكن الاستغناء عنها، وهي في التركيب مرتبطة بالأحداث الأساسية تابعة لها.[١]

أسهمت تجارب المؤلفين في تطوير الأجناس الأدبية بمختلف أنواعها، من حيث الشكل والطريقة، إذ شكلت الصورة الذهنية نتيجة لتأثير الزمن، علاقة اشتغالية مع ببنية التكوينية للنص الأدبي، وتميز العلاقات القرائية بين الدال والمدلول " لزمن الشيء الذي يحكي أو زمن القصة ، وزمن الرواية وهو الزمن الذي يظهر في النص " فزمن المدلول ، وهو زمن القصة، وزمن الدال وهو زمن الرواية أو النص الروائي، إذ تحتوي على عدة أحداث وقد تقع هذه الأحداث في وقت واحد ضمن ثيمة الأساسية، "فالزمن يستطيع التحكم بكافة أجزاء النتاج الادبي، ويمكن عن طريقه رسم الشكل العام للعمل، حيث يكون الزمن من العناصر المهمة في القصة والرواية والمسرح، وذلك لما يفرضها من قيود داخل للنصوص الأدبية.[٢]

وتعالج السيمياء الشروط الداخلية للتدليل فالأشكال التي يتصدى التحليل لها هي الاشتغال النصي للتدليل، إذ يصبح للمعنى أثراً ناتجا عن العلاقات بين العناصر الدالة، إذ يضع المؤلف وفقا لمجموعة من الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها داخل النص المكتوب قيما جمالية، ويصبح المستوى التحليل السيميائي للزمن هو "التقاطة الاختلافات التي تبرز خلال تسلسل النص" [٣]. إن اغلب النصوص المسرحية تتبع نظام تسلسل الأحداث على وفق مبدأ السبب والنتيجة عن طريق عامل الزمن الذي يصبح صاحب الدور الأساسي في تسلسل النص، وقد يكون الزمن في النصوص نابع من الزمن الإشاري فهو زمن يمثل نقطة مستقلة للوجود، إذ لا يمكن ادراكها أو تصورها بنقطة زمانية أخرى "فالزمن ذو خاصيتين من حيث تعليقه ومن حيث إدراكها، فهو يتعلق مباشرة بزمن المعطى الأولي، ويرتبط كل زمن إشاري بالمقام ارتباطا مباشراً، فهو يمثل نقطة تدرك لذاتها ولا تحتاج في ذلك إلى غيرها [٤]

ويختلف الزمن السيميائي في النص المسرحي عن الزمن الواقعي حين يكون قائم على مبدأ السبب والنتيجة أي الفترة التي يحصل بها التغير، وهناك نوع آخر من الزمن وهو الزمن الاستذكاري "إذ يقوم هذا الزمن على التذكر او الاسترجاع أو العودة إلى الماضي، وهناك نوعين من الزمن الاسترجاع"[٥] الاسترجاع

---

[١] نسيج النص، م س، ص ٨٨.

[٢] ضيف الله، سيد اسماعيل، آلية السرد بين الشفاهية والكتابة، دراسة في السيرة الهلالية ومراعي القتل، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٨، ص ١٧٠.

[٣] خضري، جمال، سيمياء النصوص عرض وتطبيق منهجي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، ٢٠١٥، ص١٣.

[٤] الزناد، الأزهر، نسيج النص، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣، ص ٨٨.

[٥] القصراوي، مها حسن، الزمن في الرواية العربية، الأردن، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ٢٠٠٤، ص١٩٥.

الخارجي يستدعيه المؤلف عن طريق السرد، حيث تعد زمنيا خارج عن الحقل الزمني للأحداث السردية الحاضرة في النص المسرحي، ويكون الاسترجاع الخارجي خلال فترة زمانية قريبة أو بعيدة المدى، الاسترجاع الداخلي ويختص هذا النوع باستعادة أحداث ماضية، ولكنها لاحقة لزمن بدء الحاضر السردي ويقع في محيطه، وهذا الزمن بصورة عامة يقدم لنا معلومات عن الشخصيات والأفكار والأحداث في الزمن الماضي وهناك نوع آخر من الزمن يسمى بالزمن الاستباقي، فهو زمن يختلف عن الاسترجاعي "فالمفارقات زمنية سردية تنتجه إلى الأمام بعكس الاسترجاعي، والاستباقي تصوير مستقبلي لأحداث تأتي منفصلاً في ما بعد[١]، وينقسم الزمن الاستباقي إلى نوعين، الاستباق الخارجي: يوضح بعض الاشارات التي توضح مصير الشخصية في المستقبل حيث يعتبر سلسلة الاحداث التي يشهدها السرد في وقتا لاحق. والاستباق الداخلي: يتمثل في أحداث أو إشارات او ايحاءات أولية، يكشف عنها المؤلف ليمهد لحدث سيأتي لاحقاً وبالتالي يعد الحدث أو الإشارة الأولية هي بمثابة استباق تمهيدي للحدث الآتي٢.

ثالثا: الخطاب المسرحي:

لا يهدف الخطاب المسرحي إلى تحقيق متعة أو تسلية المتفرج فقط، ولكن بتبليغ خطاب معين يُحرص فيه على أن يلبس أجمل حلة ويتزيّا بأحلى الأزياء، ويتأنق ويتألق من أجل تحقيق المبتغى؛ ويبرز ذلك في لغة الخطاب المسرحي المكثفة وجمله المعبرة وكلماته المشعة البراقة التي تتوجه نحو المتلقي، و"الكتابة الحقيقيّة للمسرح تلك الّتي تتنامى في فضاء الخشبة، وتستمرّ حتّى لحظة اتصالها بالمتلقي، فالمسرحة تعني فنّ أو تقنية تحويل النصّ إلى خطاب مسرحي محمّل بدلالات كثيفة تنفتح على مجالات أبعد من حدود السّرد المكتوب،[٣] وبعبارة أخرى: إنّها توظيف ووعي بمفردات وعناصر العمل المسرحي الماديّة المجسّدة بكلّ ما يتوفّر عليه من إيحاءات وتوليدات ومعطيات خارجيّة؛ أي كلّ ما يتعلّق ببنية النصّ من الخارج.

ويذهب الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو إلى أنّ الخطاب مساحةٌ ذات حدودٍ قوية من المعرفة الاجتماعية ونظام من القول يمكن من خلاله معرفة العالم، المظهر الأساسي فيه هو أن العالم ليس هناك ببساطة حتى يمكن الحديث عنه، وإنما من خلال الخطاب نفسه يصبح للعالم كينونة، فالخطاب ينقل السلطة وينتجها، يقويها، ولكنه أيضا يلغمها، يفجرها، يجعلها هزيلة"[٤].

بالمقابل، ترى آن أوبرسفيلد إلى أن المسرح هو فن المفارقة٥ ،فهو في نفس الوقت نتاج أدبي وعرض يشبه الواقع ، والنص المسرحي باق إلى الأبد بعد تأليفه وعرضه، و لكن العرض يختلف من فترة لأخرى

---

١ الزمن في الرواية العربية، م س ص ١٩٥.

٢ الزمن في الرواية العربية، م س ص ١٩٨.

٣ التداولية في الخطاب العربي المعاصر، وحيد بن عزيز، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، الجزائر،٢٠٠٦.

4 Voir Foucault, Michel: La volonté de Savoir, Edition Gallimard, 1976, p 133.

٢٤ أوبرسفيلد، آن، قراءة المسرح، تر: مي التلمساني، مركز اللغات والترجمة، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٥٢

، فهو دائم التغير ، فالنص هو ذاته لا يتغير، ولكن عرضه هو الذي يختلف باختلاف الفترة الزمنية ، ونفس الشيئ يطبق على الممثلين والمخرجين ...الخ ، وهذه المقارنة التي أشارت إليها أوبرسفيلد تطرق إليها اللغوي والفيلسوف الفرنسي منغونو ، ولكن بطريقة أخرى، فهو لم يتحدث عن المقارنة، بل تحدث عن عدم الإستقرارية١، في الخطاب المسرحي و كذا في طبيعته الكلامية.

تقول ’آن أوبر سفيلد :" إن الخطاب الدرامي المكتوب هو مجموع العلامات اللسانية التي ينتجها النص المسرحي".٢ولذلك يمكن اعتبار الخطاب الدرامي أحد آليات بناء الحكاية والشخصية والنص من خلال استراتيجية انتقاء للعلامة اللسانية وتوظيفها في بناء عوالم الحوارات.

اجراءات البحث

أولاً: مجتمع البحث:

حدد الباحث مجتمع البحث في المسرحيات التي كتبها سلطان القاسمي والمحصورة ما بين عام ١٩٩٨ – ٢٠٢٢، وقد تحدد مجتمع البحث في ١١ نصا مسرحيا كما في جدول رقم١.

ت	المسرحية	تأليف	العام
١	عودة هولاكو	سلطان القاسمي	١٩٩٨
٢	القضية	سلطان القاسمي	٢٠٠٠
٣	الواقع صورة طبق الأصل	سلطان القاسمي	٢٠٠٠
٤	الإسكندر الأكبر	سلطان القاسمي	٢٠٠٦
٥	النمرود	سلطان القاسمي	٢٠٠٨
٦	شمشون الجبار	سلطان القاسمي	٢٠٠٨
٧	الحجر الأسود	سلطان القاسمي	٢٠١١
٨	طورغوت	سلطان القاسمي	٢٠١١
٩	داعش وغبراء	سلطان القاسمي	٢٠١٦
١٠	علياء وعصام	سلطان القاسمي	٢٠١٦
١١	كتاب الله: الصراع بين النور والظلام	سلطان القاسمي	٢٠١٨

1 D. Maingueneau1990, Pragmatique pour le discours Littéraire, Bordas , Paris . P 143

٢ قراءة المسرح، م. س، ص ١٩٦.

ثانياً: عينة البحث:

عمل الباحث على اختيار مسرحية عودة هولاكو نظرا لتجانس العينة، واختيرت بالطريقة القصدية كونه وجدها تحقق هدف البحث، موضوعاتها جميعا أخذت مقومات المفهوم السيميائي للزمن والخطاب المسرحي، ولهذه المسوغات اختيرت العينة بهذه الطريقة.

وقد ترجمت المسرحية إلى عدة لغات من أبرزها العربية و الإنجليزية و الفرنسية و الإسبانية والروسية والألمانية البولندية و الأردية والبنغالية والرومانية.[١]

وكانت أولى المسرحيات المطبوعة التي ألفها صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم الشارقة،[٢] مسرحية عودة هولاكو في عام ١٩٩٨م، وقد تم طبعها ثلاث مرات، وجاء في مقدمة المسرحية في الطبعة الأولى: (من قراءاتي لتاريخ الأمة العربية وجدت أن ما جرى للدولة العباسية قبل سقوطها مشابه لما يجري الآن على الساحة العربية وكأنما التاريخ يعيد نفسه، فكتبت هذه المسرحية من منظور تاريخي لواقع مؤلم، إن أسماء الشخصيات والأماكن والأحداث في هذه المسرحية كلها حقيقية، وإن كل عبارة في هذا النص تدل دلالة واضحة على ما يجري للأمة العربية).

ثالثاً: أداة البحث:

اعتمد الباحث على ما أسفر عنه الإطار النظري والدراسات السابقة من المؤشرات، بوصفها أداة من أدوات البحث المعتمدة فضلاً عن الخبرة الذاتية للباحث.

رابعاً: منهج البحث:

اتبع الباحث المنهج الوصفي في البحث، من حيث قدم ملخص قصة المسرحية، وتتبع وظيفة سيمياء الزمن والخطاب المسرحي فيها.

خامساً: تحليل العينة:

عنوان المسرحية: عودة هولاكو

اسم المؤلف: سلطان بن محمد القاسمي

تاريخ النشر: ١٩٩٨ م

أولاً: قصة المسرحية:

تسرد المسرحية حكاية الخليفة العباسي المستعصم الذي هزم على يد هولاكو المغولي نتيجة ضعفه وإضاعة الوقت في اللهو والمتعة بدل التركيز على شؤون الدولة وتصور تخبطه في أجواء التوتر والخلاف

[١] https://alqasimipublications.com/%D8%B9%D9%88%D8%AF%D8%A9-%D9%87%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%83%D9%88/

[٢] أعتقد ان هناك مسرحيات لم تطبع لسموه منها " نهاية صهيون " والتي عرضت عام ١٩٥٨ في نادي الشعب بالشارقة، انظر تاريخ الحركة المسرحية للكاتب عبد الإله عبد القادر.

السائدة بين قائد جيشه الدويدار ووزيره ابن العلقمي إلى أن ينجح هذا الأخير في خداعه وإقناعه بكتابة رسالة إلى هولاكو يتذلل فيها، ويعرض عليه الهدايا والمجوهرات لاسترضائه بعد أن بات على مشارف بغداد ثم إدراكه الخطر المحدق به وبالدولة، ولكن بعد فوات الأوان ما يؤدي إلى هزيمته وموته.

في الفصل الأول من المسرحية يعيش المستعصم حالة توجس وخوف، ويسأل وزيره ابن العلقمي والديدوار الصغير قائد الجيش عن أخبار المغول والقائد هولاكو، كما يستمع إلى رأيهما برسالة هولاكو الذي يطلب منه أن يرسل كتيبة ليساهم في حربه ضد القلاع المسلمة التي يحاصرها، يعترض الديدوار على إرسال قوة للمشاركة في تلك الحرب لأن هدف هولاكو تبديد القوة العربية لاحتلال بغداد، بينما يشجع ابن العلقمي على مساهمة ومشاركة هولاكو في هجومه على تلك القلاع كونها تشكل جيوشا للإرهاب في بلاد المغول، وتهدد أمن بلادهم، ونستشكف من خلال حوارات المسرحية حب المستعصم للمال، وعن ضعفه وخذلانه خاصة عندما يعلن الشباب النافض رفضهم لموقفه.

تتسارع الأحداث في الفصل الثاني ويبدو هولاكو قد ضجر من حصار قلعة ميمون والمدة الطويلة للحصار بزعامة شيخ الطائفة ركن الدين، ثم فجاة يستسلم ركن الدين ويطالبه هولاكو بالإرسال إلى القلاع الأخرى للاستسلام ويعده بتزويجه من فتاة مغولية ولكن تكون المكافأة قتله.

في الفصل الثالث تصل رسالة هولاكو إلى المستعضم يطالبه بتهديم الحصون وردم الخنادق المحيطة ببغداد وتسليم إدارة شؤون البلاد إلى ابنه، فيرسل ردا بالتنازل عن الأراضي التي احتلها كي يتوج ذلك بالسلام بين العرب والمغول، وتدور السجالات بين الدويدار والمستعصم وتذكير الأول له بإنشاء قوة عسكرية في ظل رفض الثاني، كذلك يظهر ابن العلقمي وتأييده للاستسلام ومدح قوة هولاكو. تتوالى الحوارات والأحداث ويدخل هولاكو بغداد ويستشهد الديدوار والشباب المقاوم، يندم المستعصم ولكن بعد فوات الآوان ويقدم كل الأموال لهولاكو لكن هولاكو يقوم بسلخه حيا.

في الفصل الرابع، يشتكي الناس من سياسة ابن العقلمي الموالية لهولاكو بعد ممارسات الأخير الشائنة بحق الدين والمجتمع وتنكيله بالكثير من الناس، يقوم هولاكو بعزل ابن العلقمي الذي يموت لاحقا ويستلم ابنه الوزارة، ثم تقفل الستارة على رجل بغدادي ينادي بإخراج رموز الخيانة.

ثانياً: تحليل العينة:

يحاول الكاتب أن يقتنص من التاريخ منطقة درامية كثيفة، تكتنز بالدلالات، فجاء الصراع ظاهريا باهتا في بدايته إلى أن يشتد بدخول الشخصيات المساندة، وهي في جملتها تحمل في طياتها ما ينبئ بقراءة مستقبلية، فكل عمل من أعماله يتناول قضية مرتبطة بالسابقة لا تنفصل عنها، ولكنها تأتي بأبعاد مختلفة في فضاء العمل الجديد، فهي في النهاية قضية الأوطان والإنسان المعاصر التي نعيشها يوميا.

حاول القاسمي أن ينسخ مأساة أبطاله من خلال إعادة خلق مواقف تهم الفرد الحالي لاستثارة مواطن التوهج لامتلاك الرؤية الشاملة التي تسقط عناصر التاريخ بصورة ضمنية على الواقع وتتملص من إسار الفترة الزمنية المحددة لتتوغل في منطقة عريضة ثرية بوقائعها، عبر انتقاء محكم لجزئيات التاريخ وإعادة تشكيلها بصورة تسهم في فهم القوانين الداخلية لحركة الأحداث التاريخية، والولوج إلى وقائعها المؤثرة، وفي إطار هذا الفهم اكتسبت بعض الوقائع التاريخية ثقلا متزايدا، بينما تراجعت وقائع أخرى، فالتاريخ لا يعالج من خلال الطرح السردي والمنوالي، بل من خلال اكتشاف خلاق للعلاقات والتيارات التي أسهمت في صنع حركة التاريخ، ويكون دور الكاتب إيجابيا وبناء في كشف علاقة الماضي بالآني بالجدل المتواصل، تماما كما يرتبط المسرح ارتباطا قويًا بالحياة المعاصرة ومشاكلها وتطوراتها، ولكن مما لا شك فيه أن الماضي أو التاريخ أيضا يمثل مادة خصبة يمكن من خلاله معرفة ما حدث بالماضي ليعيننا على فهم الحاضر والتعامل معه ومواجهة مشاكله، لذا فقد اتجهت أشكال الإبداع الإنساني بصفه عامة والإبداع المسرحي بصفه خاصة لتنهل من التاريخ، فالمبدع المسرحى يقلب صفحات التاريخ بحثا عن الفعل الذى أثر يوما فى الزمن الماضى وغير من مصائر شخصياته ولعب دوره الايجابى أو السلبى فى مجتمعه ، ليس أبدا بهدف بحثه لذاته وتقديمه كأيقونة متحفية ولكن لأنه أدرك أن فعل الأمس قد يتشابه مع فعل اليوم، لهذا يستدعيه المبدع المسرحى المعاصر ويستخدمه كإتكاء للنظر فى الفعل الآنى الذى يعايشه وبذلك يمكن الاستفادة من دال التاريخ لمدلولات جديدة معاصرة، بقصد إحداث صدمة فكرية من خلال التقاطع الحاصل بين التاريخ المتشكل على سبيل المثال بالمنظر المسرحي والحدث الدرامى وما يتضمنه من مضامين معاصرة.

وبتتبع تاريخ الأدب المسرحى نجد العديد من المؤلفين المسرحيين الذين اتخذوا التاريخ مادة خصبه استفادوا منها فى بناء أعمالهم الدرامية منهم ألفريد فرج في مسرحيته سقوط فرعون وسمير سرحان في ست الملك وصلاح عبد الصبور في مأساة الحلاج وغيرهم. ويعد الكاتب القاسمي الأكثر ميلا لهذا الاتجاه، فالتاريخ لديه ليس ماضيًا فقط ولكنه يحتوي على المادة الحقيقية للحاضر، وقد كتب فى إطار التاريخ العديد من أعماله، وهذا الكم من الأعمال يجعله من أكثر كتاب جيله عناية باستلهام شخصيات التاريخ فى أعماله فقد اتخذ مادته الدرامية لتصوير الواقع والحلم من التاريخ العربى وانطلاقا منه. فالماضي عنده لا ينفصل عن الحاضر، فما حدث فى الماضي قد يتكرر فى الحاضر وقد تمتد أنيابه إلى المستقبل.

وبداية من العنوان باعتباره عتبة النص المسرحي، والذي يؤثر حتما في تأويل النص الدرامي. "كما أن الجملة الأولى من الفقرة الأولى لن تقيد فقط تأويل الفقرة، وإنما بقية النص أيضا، بمعنى أننا نفترض أن كل جملة تشكل جزءا من توجيه متدرج متراكم يخبرنا عن كيفية إنشاء تمثيل منسجم"[1]. فكانت العتبة التي لابد

[1] بختاوي، د. معمر: دلالة الخطاب في المسرح الهاوي (دراسة تطبيقية)، مطبوعات رابا نت، ط١، ٢٠١٣.

من الوقوف عندها مطولا قبل سبر أغوار المتن الدرامي، لما يكتنف هذا العنوان من حيرة تتولد لدى المتلقي، وتجعله يمضي في قراءة النص ليعلم سبب اختيار الكاتب لهذا العنوان دون غيره، فاستلهام التاريخ ليس هروبا من الواقع إنما الاتكاء على التاريخ في كتابة المسرحية دليل على أن الواقع الذي نعيشه ليس إلا امتدادا لهذا التاريخ أو إسقاط على الواقع، أو اتخاذه كعبرة، وهذا ما نريده مسرحا يقلق يومنا ونومنا ويحفزنا لإيجاد أجوبة، وتمثل المسرحية إسقاط التاريخ العربي قبل حوالي ألف عام على حال الأمة العربية في الوقت الحالي من خلال قصة ظهور هولاكو والديدوار الصغير في تلك الفترة، فعودة هولاكو والعودة الضد الغياب، ومن الذي يعود ولماذا الآن، ومن الذي حضر، كثير من إشارات الاستفهام تحوم فور قراءة العنوان.

الدال ← هولاكو ← المدلول

ويختار المؤلف شخصية هولاكو لتمثل الدور الرئيسي في المسرحية، إذ يعبر عن طريقها عما أراد تصويره للأفكار من أجل الوصول إلى الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه، فالشخصيات الرئيسية هي محور المسرحية، فعن طريق ذلك يمكن التركيز على اسم الشخصية الرئيسية وما تحمله من دلالة سيميائية توحي إلى صورة ذهنية لدى القارئ مثل الزمن التاريخي وهو زمن الجبروت والظلم. الميتافيزيقية، فيكون الزمن هنا متسم بالخيبات.

الدال ← رسالة هولاكو ← المدلول

وذكر رسالة هولاكو في بداية المسرحية تنتج مفهوما آخر للزمن وهو الزمن الواقعي الذي ستسير عليه المسرحية وتدور حولها كل الحبكة لتشكل دلالة لدى المتلقي وترقبا لما يحصل، أما المدلول فأنها تدفع القارئ ومتلقي المسرحية للتساؤل حول مدى استخفاف الأعداء بحالنا، وتنتج لنا مفهوما لخاصية الزمن الاسترجاعي إلى الوراء لفترة بعيدة المدى إذ لا بد من تحديد نوع الزمن للوصول إلى التحليل السيميائي، وكذلك نلاحظ في المشهد الاول من المسرحية زمن المزجي أي ارتباط زمن الاسترجاع الخارجي بزمن الاسترجاع الداخلي، فقد استخدم المؤ لف مجموعة من الدلالات التي وظفت بهدف الاشارة على الاتصال

المستمر في الواقع، واختصار المسافة الزمنية لتوضيح المعلومات.ثم عمد الكاتب على تصاعد الأحداث في النص عن طريق اللغة الجدلية قائمة على مبدأ الاحتجاج على الواقع ورافضة لما يحدث من خراب في البلاد كما نلاحظ في الحوار " الدويدار:

أنهم يحاصرون ثلاث قلاع من قلاع المسلمين يا مولاي في منطة تون وتركثير وكاملي ولا أحد من المسلمين يقوم بنجدتهم أنه التخاذل والله " فهنا تكون اشارة الى الزمن الفيزيائي متمثلة بطريقة غير مباشرة، ففي هذا النص يوظف الزمن الفيزيائي كبنية معلوماتية دقيقة تقدم معلومات حول صدق الزمن المستشرف للانهيار.

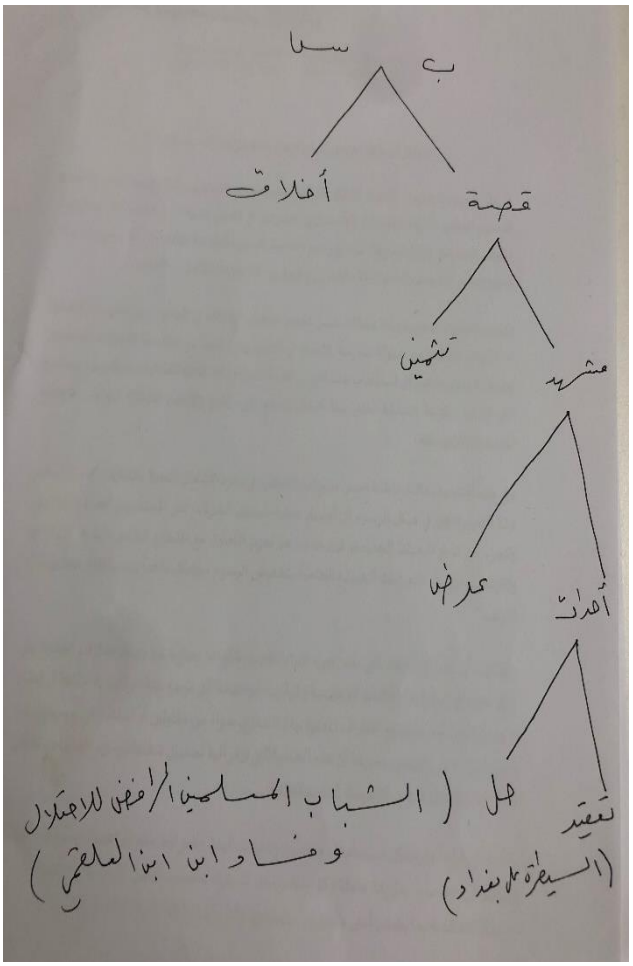

وتسير المسرحية وفق نمط معين من الحبكة التي تتصاعد وفق هرم فريتاج من الحدث الصاعد المجسد برسالة هولاكو إلى الذروة أثناء خيانة ابن العلقمي مرورا بالحدث النازل حين يتم قتل الديدوار وأخيرا النهاية المفجعة باستيلاء هولاكو على بغداد وهكذا تمضي السيمياء الظاهرة في النص حسب مايلي:

المرسل الطمع

الذات المستعصم الخليفة

المرسل إليه الفاسدون والمستغلون

المساعد الوزير ابن العلقمي

الموضوع الرغبة في السلطة

المعارض الدويدار الصغير

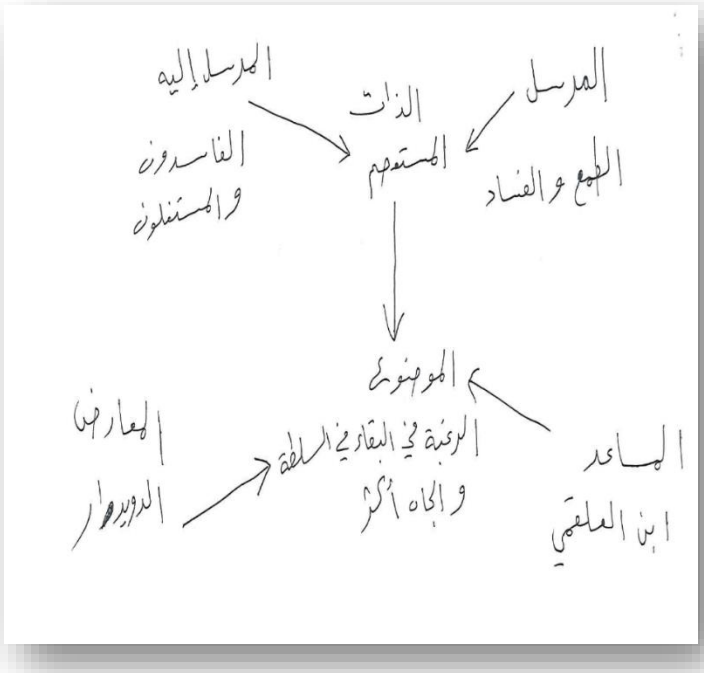

ويتجلى محور الإبلاغ في نداء النفس والذات لاسيما الأنا الموجودة عند المستعصم، فالمرسل يعني هنا الجشع والملذات الدنيوية، أما المرسل إليه فتتمثل بشخصيات المفسدين الذين يدفعهم الجشع أيضا وكل ذات فاسدة تسعى لاستغلال الآخرين، أما موضوع رغبة هذه الذات فهو البقاء في السلطة والجاه، أما محور الصراع فقد ساعد المستعصم العديد من المسؤولين والخونة التي تربطهم هذه المصالح متجسدة بشخصية وزيره، أما المعارض فقد تمثل بقائد جنده المخلص الذي يكون أول ضحايا هذه المآرب.

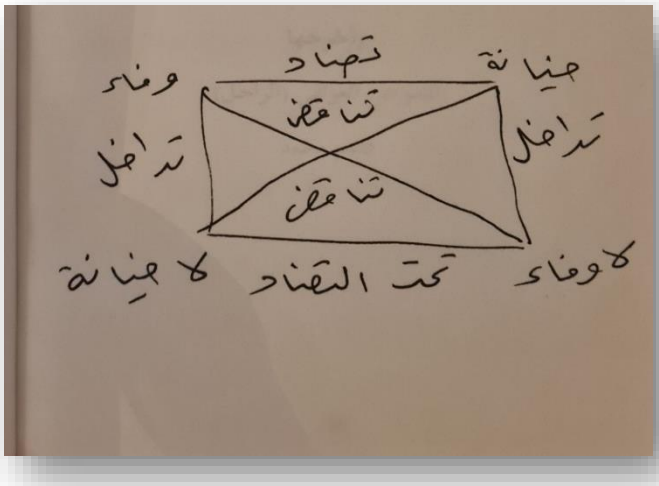

وفي تناقض الصفات الأخلاقية والتي تقوم عليها المسرحية نجد تنوعا في النفوس، كما في هذا المربع السيميائي:

علاقة التضاد: الخيانة الوفاء

علاقة شبه التضاد لا خيانة لا وفاء

علاقة التناقض: الخيانة لاخيانة – وفاء لاوفاء

علاقة التضمين: خيانة لا وفاء – وفاء لا خيانة

لقد تميز النص المسرحي بحضور تيمة الخيانة التي غيبت بالضرورة نقيضها الوفاء، فحرك بذلك حضور الخيانة على الوفاء في الأحداث ماعدا شخصية الدويدار، فالخيانة تمثلت في شخصية ابن العلقمي والمستعصم وممن يشغلون المناصب العليا في البلاد ويستغلونها لتسيير مآربهم الشخصية، أما الوفاء تمثل في شخصية الدويدار والشبان المسلمين الذين اتجهوا إلى ساحات الوغى ولكن دون جدوى، ليظلو ضحية

مكائد الخيانة الذي أدى إلى حتفهم، فالكاتب حاول معالجة قضية الفساد التي أدت إلى الدوام إلى انزلاق الحضارة إلى الهاوية.

والمسرحية تعرف ككتابة الدرامية، تقسيمات النص، واختيار عناصر الحوار، والبناء، والتركيب، واختيار الشخصيات، وتصوير أبعادها، ودلالاتها، واستعمال اللغة الدرامية، وزاوية النظر إلى الجمهور، وتقنية الكتابة الدرامية..

يتصل الحوار باللغة والشخصيات في المسرحية كصيغ كلامية متبادلة بين شخصيتين أو أكثر والتي تستخدم غالباً للكشف عن أبعاد الشخصيات وعرض الشكل المسرحي وتفعيله للوصول الى الفكرة الكامنة في النص ومن ثم محاولة ايصالها الى الاخرين بطريقة فعالة ولايكون الحوار موظفاً إلا إذا كان صادراً عن الشخصية التي تستخدمه ويختلف بأختلاف المواقف.كما نجد في شخصية المستعصم المهزوزة " المستعصم : وأنت ما رأيك يا ابن العلقمي ؟"[١]، وعلى النقيض من حوارات الدويدار الواثق من نفسه رابط الجأش "الدويدار : إنها الخيانة والذل هي التي مكنته من احتلال تلك القلاع"[٢].

وفق الشكل السابق الذي وضعه الكاتب الألماني فولفغانغ أيزر، تقع قيمة العمل الفني الأدبي بين النص الفني الأدبي الذي أنتجه المؤلف وما حققه من جمالية في نفس المتلقي، وهذا ما حدث فعلا لمسرحية عودة هولاكو آناء عرضها نظرا للجماهيرية الواسعة التي حققتها في عروضها المتفرقة في أنحاء العالم العربي، إضافة إلى ترجمتها إلى عدة لغات. [٣]

وبالعودة إلى أيزر نجده قد حدد ـ انطلاقاً من فاعلية التواصل المستمر ـ النص في قطبين متلازمين: تقوم عليها حقيقة النص كوجود: قطب فني وقطب جمالي: "الأول هو نص المؤلف، والثاني هو الإدراك الذي يحققه القارئ وعلى ضوء هذه القطبية، يتضح أن العمل ذاته لا يمكن أن يكون مطابقاً للنص ولا لتحقيقه، بل لابد وأن يكون واقعاً في مكان ما بينهما" [٤]وفحوى كلام "إيزر" ينمّ عن ثلاثة نصوص تتمظهر من خلال عملية التواصل الجمالي، يحتل فيها نص المؤلف مكان "العلامة

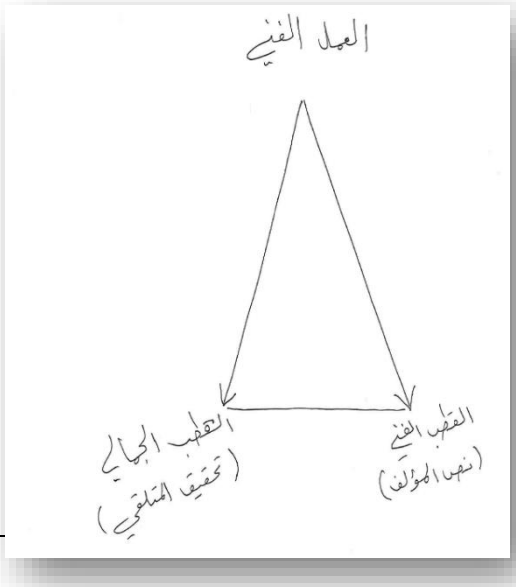

[١] عودة هولاكو، م.س، ص١٠

[٢] عودة هولاكو، م.س، ص ٢٤

[3] HTTPS://WWW.ALBAYAN.AE/SPORTS/2005-08-27-1.94501

عرض مسرحية «عودة هولاكو» في القاهرة، جريدة البيان، دبي، ٢٠٠٥/٠٨/٢٧

[٤] فولفغانغ أيزر، التفاعل بين النص والقارئ، مجلة دراسات سيميائية أدبية ـ ع: ٦. وع ٧، الدار البيضاء، ١٩٩٢.

الدالة"، ونص القارئ مكان "التحقيق الجمالي" لها. أما قيمة العمل الأدبي فتتموقع بينهما مادام العمل ذاته، هو نتيجة تحقيق التفاعل بين القطبين، أو النصين، فلا يمكن اختزاله في واقع النص، ولا في ذاتية القارئ ولهذا الغرض بالذات يؤكد أيزر على أن: "التركيز على تقنيات الكاتب وحدها أو على نفسية القارئ وحدها لن يفيدنا الشيء الكثير في عملية القراءة نفسها، وهذا لا ينفي الأهمية الحيوية لكل من القطبين، بل كل ما في الأمر أننا إذا أهملنا العلاقة بينهما، سنكون قد أهملنا العمل الحقيقي كذلك". ١

الإستنتاجات:

- تلعب الشخصيات الأساسية دور رئيسي في تحريك وحدة الزمن، إذ استطاع المؤلف توضيح وحدة الزمن الاسترجاعي عن طريق شخصية، فهذه الشخصية تحمل دلالة زمنية متفردة لها التأثير المهيمن عن طريق التكوين الدلالي بين زمن الحقيقي بوصفه مدلولا والزمن الاسترجاعي بوصفه دالاً.
- استخدم المؤلف الدلالة السيميائية بهدف اختصار المسافة الزمنية بين عنصري الدال والمدلول في تحديد الدلالة، كأحد أنواع الزمن على وفق المفهوم السيميائي للزمن الاسترجاع الخارجي اذ استخدم وحشية هولاكو للعودة إلى الماضي الأليم واسقاطه على الحاضر.
- تلعب الشخصيات الرئيسة دورا رئيسيا في تحريك وحدة الزمن، اذ استطاع المؤلف توضيح وحدة الزمن الاسترجاعي عن طريق شخصية هولاكو فهذه الشخصية تحمل دلالة زمنية متفردة وسوداء لها التأثير المهيمن عن طريق التكوين الدلالي بين زمن الحقيقي بوصفها مدلول، والزمن الاسترجاعي بوصفها دالاً.
- التحليل السيميائي للزمن المسرحي يعطي أهمية في كشف الأفكار وتصاعد الاحداث.
- التشكل البنائي لسيمياء الزمن ينتج عن طريق العلاقة القرائية بين الدال بالمدلول.
- يعتبر الزمن أحد العناصر المهيمنة على النص المسرحي، وذلك لما له من تأثير على بنية النص، فعن طريق الزمن يتم تحديد بنية النص، وقد تكون البنية خطية كما في المسرحيات الكلاسيكية أو دائرية كما في مسرح اللامعقول أو متموجة كما في المسرحيات التعبيرية.
- تتنوع الأشكال الزمنية في النص حسب موقعها الزمني كأن يكون استرجاعي او استباقي او يدل على الوقت الحالي.
- لجأ الكاتب بشكل متكرر وإيجابي الى مخاطبة عقل القارئ والمتلقي عبر استخدام الجمل والاشارات الذي يعتمد فهمها على التأويل والتفسير والشرح والايحاء.

---

١ م.س، ص ١٩.

- حاول الكاتب في أكثر من موقع في المسرحية الرجوع إلى المدلول الوجداني كطريقة للتعبير أو كوسيلة لتحقيق أكبر عصف عاطفي في نفوس المتلقين.

المراجع.

١- الأحمر، فيصل، معجم السيميائيات، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠١٠.

٢- الزناد، الازهر، نسيج النص، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣، ص ٧٣.

٣- القاسمي، سلطان، عودة هولاكو، الشارقة، منشورات القاسمي، ١٩٩٨، ط١.

٤- القصراوي، مها حسن، الزمن في الرواية العربية، الأردن، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ٢٠٠٤، ص١٩٥.

٥- المرتجى، أنور، سيميائية النص الادبي، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص ٣.

٦- المهدي، شفيق، أزمنة المسرح، بغداد، وزارة الثقافة، دائرة السينما والمسرح، ٢٠١٠، ص١٢٧.

٧- أوبرسفيلد، آن، قراءة المسرح، تر: مي التلمساني، مركز اللغات والترجمة، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٥٢.

٨- بختاوي، د. معمر: دلالة الخطاب في المسرح الهاوي (دراسة تطبيقية)، مطبوعات رابا نت، ط١، ٢٠١٣.

٩- بويجرة، بشير محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري، الجزائر، دار المغرب للنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ص٢٣.

١٠- جلال، زياد، مدخل الى سيمياء المسرح، وزارة الثقافة، الدستور الثقافي١٩٩٢، ص ٢٦.

١١- خضري، جمال، سيمياء النصوص عرض وتطبيق منهجي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، ٢٠١٥، ص١٣.

١٢- ضيف الله، سيد اسماعيل، آلية السرد بين الشفاهية والكتابة، دراسة في السيرة الهلالية ومراعي القتل، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٨، ص ١٧٠.

١٣- عبدالصمد، الزيد، مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٨، ص ١٤.

١٤- عزام، محمد، النقد والدلالة، دمشق، وزارة الثقافة السورية، ١٩٩٦، ص٩.

١٥- غيرور، بيير، السيمياء، تر: انطون ابن زيد، بيروت ١٩٨٤، ص ٥٠.

١٦- فضل، صلاح، نظرية البنائية في النقد الأدبي، القاهرة، دار الشرق، ١٩٦٨، ص ٨٠

١٧- فولفغانغ أيزر، التفاعل بين النص والقارئ، مجلة دراسات سيميائية أدبية ـ ع: ٦. وع ٧، الدار البيضاء، ١٩٩٢.

١٨- قطوس، بسام، مدخل الى مناهج النقد المعاصر، الإسكندرية، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر،٢٠٠٦، ص ١٤٨.

١٩- معن، زياد، الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦، ص ٤٦٧.

٢٠- وحيد بن عزيز، التداولية في الخطاب العربي المعاصر، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، الجزائر،٢٠٠٦.

٢١- https://www.albayan.ae/sports/2005-08-27-1.94501

عرض مسرحية «عودة هولاكو» في القاهرة، جريدة البيان، دبي، ٢٠٠٥/٠٨/٢٧

المراجع الأجنبية:

1- D. Maingueneau1990, Pragmatique pour le discours Littéraire, Bordas, Paris. P 143

2- Voir Foucault, Michel: La volonté de Savoir, Edition Gallimard, 1976, p 133

خامسا: بحوث التعليم

التعليم العالي في ليبيا، الواقع والتحديات، ما هي الطموحات ومتطلبات التطوير

The Higher Education in Libya; The Reality and Challenges; What are The Ambitions and Requirements for Development

الباحث: اسعد صالح بوبكر العقيلي ـ باحث مستقل ـ ليبيا

البريد الالكتروني: asbagili@hotmail.com

تاريخ التقديم للنشر: ٢٠٢٣/٠٤/١٠ تاريخ القبول للنشر: ٢٠٢٣/٠٥/٠٧

مُلخص.

سعت الدراسة الى معرفة واستقصاء واقع التعليم العالي في ليبيا وماهي التحديات التي تواجهه، كما هدفت هذه الدراسة الى تسليط الضوء على طموحات ومتطلبات التطوير لهذا القطاع الحيوي، واشارت نتائج الدراسة الى ان قطاع التعليم العالي في ليبيا يعاني من العديد من المشكلات ويواجه الكثير من التحديات، من أبرزها عدم توافق مخرجات التعليم العالي مع متطلبات سوق العمل، فضلاً عن عدم الاستقرار السياسي، وكذلك الانفلات الأمني في كثير من الأوقات، كما أظهرت الدراسة الطموحات والاهداف والاستراتيجيات التطويرية التي عرضها المسؤولون في قطاع التعليم العالي والمسؤولون في الجامعات. كذلك عرضت اراء ووجهات نظر المهتمين والدارسين لهذا القطاع.

استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي باعتباره أحد المناهج الملائمة لفهم وتفسير وعرض محتويات ومكونات موضوع الدراسة، وقدمت مجموعة من المقترحات والتوصيات التي رأى الباحث أهميتها لتطوير هذا القطاع المهم وزيادة الاهتمام به.

Abstract.

The study aims to investigate the reality and challenges of the higher education in Libya and highlight what ambitions and the requirements for development.

The results of the study indicate that the higher education sector in Libya is suffering from many problems and facing many challenges among the most prominent of which are the mismatch of higher education outputs with the requirement of the labor market, as well as political instability and lawlessness at many times.

The study also showed the ambitions, goals and development strategies set by officials in the higher education sector and university officials.

The study used the descriptive analytical approach this is as one of the appropriate to understand, interpret and present the contents and components of the subject of study.

The study presented a set of suggestions and recommendations that the researchers saw as important for the development of this vital sector and increase interest in it.

مُصطلحات مفتاحية:

(التعليم العالي): Higher Education

يمثل المرحلة التعليمية المُتقدمة التي تلي المرحلة الثانوية ويشمل التعليم الجامعي والمعاهد التقنية والفنية العليا ويتكون من ثلاث مستويات تعليمية علمية وهي البكالوريوس والماجستير والدكتوراه.

It represents the advanced educational stage that follows the secondary stage and includes university education and higher technical and technical institutes and consists of three levels of scientific education, namely bachelor's, master's and PhD.

(التحديات) Challenges.

ويعني في أحد معانيه في اللغة العربية مواجهة المخاطر ومُجابهتها (المعاني الجامع)، اما المعنى الاجرائي في البحث فيعني مجموعة المشاكل والعقبات التي تواجه قطاع التعليم العالي في ليبيا والتي يجب مُعالجتها وتجاوزها وإيجاد الحلول المناسبة لها.

In one of its meanings in the Arabic language, it means facing and confronting risks.

As for the procedural meaning in the research, it means the set of problems and obstacles facing the higher education sector in Libya, which must be addressed, overcome and find appropriate solutions.

(الطموحات) Ambitions

ومفردها طموح وتعني السعي الى الامجاد والمراتب العليا (معجم الرائد)، اما معناها الاجرائي حسب مسارات البحث فإنها تعني الرغبات التي ينبغي تحقيقها والآمال المراد الوصول اليها وكيفية تحويلها الى اهداف واضحة، ينبغي تحقيقها، وذلك للارتقاء بمستوى أداء قطاع التعليم العالي في ليبيا.

The singular ambition means the pursuit of glories and higher ranks (Pioneer's Dictionary). As for its procedural meaning according to the research tracks, it means the desires that should be achieved, the hopes to be reached, and how to turn them into clear goals, which should be achieved, in order to improve the level of performance of the higher education sector in Libya.

Development (التطوير)

يُعرف التطوير في أحد معاجم اللغة العربية على انه تطوير الشيء أي عدَّله وحسَّنه وحوله من طورٍ الى طورٍ ويقال تطوير الصناعة: تعديلها وتحسينها الى الأفضل. (المعجم الجامع)

اما المعنى الاجرائي على مقتضيات البحث ومساراته فيعني:

تنمية قدرات ومهارات الافراد العاملين في قطاع التعليم العالي في جميع المستويات الإدارية والتنظيمية بالشكل الذي يضمن الوصول الى تحقيق الأهداف التي تقود الى نجاح هذا القطاع الحيوي الهام.

Development is defined in one of the dictionaries of the Arabic language as the development of the thing, adjust it for better.

and it is said in the sense of industry development:

modify and improve it for the better.

As for the procedural meaning of the requirements of the research and its paths, it means: Developing the capabilities and skills of individuals working in the higher education sector at all administrative and organizational levels in a way that ensures access to achieving the goals that lead to the success of this important vital sector.

الإطار العام للدراسة.

مقدمة.

يُمثل التعليم العالي أحد الركائز الأساسية التي تُبنى عليها الخطط الاستراتيجية لبرامج ومشاريع التنمية، اذ ينظر اليه باعتباره أحد الموارد الاستراتيجية الأساسية للموارد البشرية ذات الكفاءة والقادرة على تنفيذ عمليات التحول الاقتصادي التي تعمل على إعادة الاعمار وتطوير البلاد.

يعتبر التعليم العالي المرحلة الأخيرة في مسار التعليم، اذ يتضمن كافة المراحل التعليمية التي تتم بعد الانتهاء من المرحلة الثانوية، سواء كان على مستوى التصنيف الجامعي او الأكاديمي او المستويات العلمية الفنية

او التقنية لما بعد الثانوية مثل كليات البوليتكنيك، وغيرها من المسميات التي قد تختلف باختلاف الاستراتيجيات والسياسات التعليمية لكل بلد.

وتعد الجامعة القطب الأبرز في مجال التعليم العالي، فهي تتميز باتساع مداها التعليمي وتنوع تخصصاتها وشمولية فروعها. كما ان الطالب او الطالبة عند إتمام الشهادة الثانوية، عند توفر الرغبة في اكمال مسيرة التعليم، فان الهدف المعلن لهما - في العموم - هو الذهاب الى (الجامعة) وليس الى (التعليم العالي).

ويرى الباحث ان مفهوم التعليم العالي هو تصنيف لمرحلة تعليمية مُتقدمة. قياساً على ما سبقها من مراحل تعليمية، مثل التعليم الأساسي والتعليم الالزامي والتعليم الثانوي.

ويعد التعليم العالي المرحلة الأخيرة من مراحل التعليم المنهجي المُنظم الذي يتم في إطار الكليات الجامعية والمعاهد العليا وتتفاوت مدة الدراسة فيه – بعد الحصول على الشهادة الثانوية – من سنتين الى أربع سنوات.

ويرى البعض ان التعليم العالي هو مجال رحب ويتسع ليشمل كل الأنشطة التعليمية سواء داخل رحاب الجامعات ام في غيرها من المؤسسات التعليمية لما بعد المستوى الثانوي. وتدخل من ضمنها التعليم عن بعد والجامعات المفتوحة عبر فضاء الانترنت.

ويتضمن الأنشطة والمسارات التعليمية التي تمكن الفرد من الحصول على المعرفة والمهارات المطلوبة في واقع الحياة ومقتضياتها. والتي تتعلق بسوق العمل وضرورات التحول الاقتصادي وبرامج التنمية.

مشكلة البحث.

لقد تعرض التعليم العالي في ليبيا الى العديد من المشاكل وواجه الكثير من الازمات، كانت بدايتها الحقيقية منذ منتصف سبعينات القرن الماضي والتي استمرت تداعياتها الى ما بعد ثورة فبراير ٢٠١١ , والتي افرزت بدورها مشاكل وازمات أخرى.

تستعرض مشكلة البحث واقع التعليم العالي في ليبيا، وتبين اهم التحديات التي تواجهه، وتوضح الطموحات والآمال المعقودة على هذا القطاع الاستراتيجي الحيوي، وكيفية الإفلات من المأزق الراهن للارتقاء بهذا القطاع الحيوي للوصول به الى مصاف المؤسسات التعليمية في الدول المتقدمة وتحقيق اهداف مشاريع التنمية والتطوير في ليبيا.

ويمكن تلخيص مشكلة البحث في الاسئلة التالية:

- ما هو واقع التعليم العالي في ليبيا؟
- ماهي التحديات التي تواجه التعليم العالي في ليبيا؟
- ماهي الطموحات ومتطلبات التطوير التي يسعى المسؤولون في التعليم العالي لتحقيقها؟

ب. فرضية الدراسة

يواجه التعليم العالي في ليبيا مشاكل كثيرة، وتحديات عديدة، الامر الذي يعرقل الوصول الى طموحاته وتحقيق أهدافه وتطويره.

اهداف البحث.

يطمح البحث الى تحقيق عدة اهداف تتعلق بالمسائل والمواضيع التي ترتبط بواقع التعليم العالي والتي يعرضها البحث ويسعى لمُعالجتها وتقديم الحلول لها، وهذه الأهداف هي:

١ – تسليط الضوء على واقع التعليم العالي في ليبيا

٢ – التعرف على اهم الصعوبات والتحديات التي تواجه التعليم العالي

٣ – تبيين الطموحات والاهداف التطويرية التي تسعى خطط التعليم العالي للوصول اليها

٤ – تقديم المقترحات والتوصيات التي يرى الباحث انها ستساهم في زيادة التعريف بواقع التعليم العالي في ليبيا، وتقديم الحلول الممكنة التي تساعد في تحقيق الأهداف والوصول الى المعايير الدولية المقبولة لتقييم مستوى التعليم العالي في ليبيا.

أهمية البحث.

يستمد البحث أهميته من طبيعة الموضوع الذي يعرضه والذي يتعلق بقطاع التعليم العالي في ليبيا، والذي يعتبر من اهم القطاعات في مؤسسات الدولة الليبية. والذي يواجه اليوم مشاكل عديدة وعقبات كثيرة.

كما تبرز أهمية البحث في كونه أحد الوسائل العلمية التي تتناول هذا الموضوع المهم، الذي يجهد الباحث في محاولة عرضه بأدوات علمية ومنهجية موضوعية مُحللة ناقدة.

فرضيات البحث:

- **الفرضية الاولي:** هناك تحديات تواجه تطوير قطاع التعليم العالي في ليبيا.
- **الفرضية الثانية:** توجد صعوبة في الوصول بقطاع التعليم العالي في ليبيا الى مصاف المؤسسات التعليمية في الدول المتقدمة.

منهجية البحث.

اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي في عرضه لهذا البحث، اذ يراه الباحث المنهج المناسب لمثل هذا النوع من البحوث الذي يسعى الى عرض الظاهرة محل البحث وتفصيل المقاربات حولها بأليات الشرح والنقد والتحليل.

خطة البحث.

لتحقيق اهداف البحث تم تقسيم الدراسات كما يلي:

المبحث الأول: التعليم العالي في ليبيا بين الواقع والتحديات.

المطلب الأول: نبذة تاريخية عن التعليم العالي في ليبيا.

المطلب الثاني: التحديات والمعوقات.

المبحث الثاني: التعليم العالي في ليبيا ومتطلبات التطوير.

المطلب الأول: طبيعة واشكال التحديات.

المطلب الثاني: متطلبات وسبل التطوير.

الأدوات المُستخدمة.

لكي تتحقق أغراض البحث وظهوره بشكل يطابق المعايير المطلوبة للبحوث العلمية والأكاديمية فقد استعان الباحث بالعديد من المصادر والمرجعيات والادبيات والأبحاث والدراسات ـ التي تسنى له الاطلاع عليها – التي تناولت موضوع واقع التعليم العالي وفي الجامعات بشكل عام، بالإضافة الى التي تناولت الموضوع – بشكل خاص ـ ك (تيمة) مباشرة تكاد تتشابه من حيث العنوان، او تقاربه من ناحية المضامين. مع الاختلاف بطبيعة الحال في طرح الباحث للموضوع والاسهامات التي قدمها البحث، والتي يرى الباحث انها تضيف وتثري هذا الموضوع المهم.

الدراسات السابقة.

لقد صار من البديهيات العلمية الاستعانة بالدراسات السابقة لتعزيز قيمة البحث ومنحه درجة كبيرة من الموثوقية، كذلك تفيد الدراسات السابقة الباحث في توسيع دائرة الضوء المسلطة على موضوع بحثه، وتمنحه الكثير من المُقاربات والتحليلات التي تساعده على فهم أعمق وأدق لموضوع البحث، مما يضيف الكثير من المصداقية الى مضامين البحث ونتائجه.

١ – دراسة فرج المبروك بعنوان "التعليم العالي في ليبيا الواقع والافاق"، واستعرضت الدراسة واقع التعليم العالي وناقشت اهم التحديات والصعوبات والعراقيل التي تواجهه، ومن اهم الاستنتاجات التي توصلت اليها:

- ان المعايير الدولية المقبولة لنسبة أعضاء هيئة التدريس الى الطلبة لا وجود لها، فالمعايير المقبولة دوليا هي ٢٥ طالب لكل عضو هيئة تدريس، فيما تصل في الجامعات الليبية الى ١٠٠ طالب لكل عضو هيئة تدريس.
- ان الكثافة الطلابية في الجامعات والمعاهد العليا لا تُناسبها الأدوات والمعدات والتجهيزات.
- انخفاض نسبة الفنيين الى عدد المعامل.

كما اشارت الدراسة الى اهم الصعوبات والمشاكل التي تواجه التعليم العالي في ليبيا ومنها:

- الواقع البيروقراطي والضعف الإداري وعدم كفاءة الاطقم الإدارية والمالية.

- انعدام المقدرة على تنفيذ اللوائح الإدارية.
- عدم جاهزية المعامل العلمية.
- القصور في المستلزمات التعليمية.
- عدم توفر الكفاءة المطلوبة لعدد كبير من أعضاء هيئة التدريس والافراد المساعدين.
- افتقار بعض المناهج الدراسية للمحتوى المطلوب المواكب لمتطلبات الجودة واحتياجات السوق والتطورات العلمية.
- انتشار ظاهرة الغش في امتحانات الثانوية الامر الذي يفرز أفواج من الطلبة الغير قادرين على إتمام المواد التمهيدية.
- الوضع الأمني الغير مستقر وحالة عدم الاستقرار السياسي.

وتضع الدراسة مجموعة من المقترحات لتحسين أداء التعليم العالي من اهم هذه التوصيات والمُقترحات ما يلي:

اولاً: الاهتمام بالتعليم الثانوي، لضمان وصول دفعات من الطلبة قادرة على الارتقاء بجودة التعليم العالي.

ثانياً: اعداد برامج وخطط تطويرية تعنى بنوعية المناهج وأعضاء هيئة التدريس ووسائل التعليم.

ثالثاً: الربط بين التعليم العالي واحتياجات سوق العمل.

هذه خلاصة للكثير من المقترحات والحلول، التي يرى الباحث انها مهمة لكونها صادرة من أحد أعضاء هيئة التدريس في جامعة قاريونس ولديه احتكاك مباشر بواقع التعليم العالي.

٢ – دراسة نصر ادريس عبد الكريم سرير وسالم صالح العريبي بعنوان "واقع التعليم الجامعي في ليبيا ومتطلبات تطويره في ضوء منهجية جيمبا كايزن"، وهدفت الدراسة الى معرفة واقع التعليم الجامعي في ليبيا وما هي مقتضيات ومتطلبات تطويره وذلك من خلال عرض منهجية جيمبا كايزن اليابانية وكيفية توظيفها لإحداث التحسين المستمر في أنظمة التعليم الجامعي.

وتوصلت الدراسة الى العديد من النتائج، منها:

- ان اعتماد منهجية كايزن يُعد خيار استراتيجي لإصلاح التعليم الجامعي في ليبيا.
- ان التعليم الجامعي يُني من الكثير من اختلالات والمشاكل التي تتطلب اتخاذ قرارات بالإصلاح والتطوير.
- ان اعتماد منهجية كايزن سيقود الى الاقلال من الهدر في الإمكانات والموارد وبالتالي يسهم في التحسين المستمر وتحقيق الأهداف بأقل التكاليف ويجنب تكرار الأخطاء مُستقبلاً.

٣ – دراسة عبد الفتاح أبوبكر سالم المالطي بعنوان المشاكل والصعوبات التي تواجه التعليم الجامعي في ليبيا وتلخصت مشكلة البحث في هذه الدراسة في البحث عن ماهي الطرق والوسائل للتغلب على المعوقات التي تواجه التعليم الجامعي في ليبيا، ووضعت الدراسة هدفين اساسين للوصول اليهما وهما:

- معرفة طبيعة وواقع المشاكل التي تواجه الجامعات الليبية.
- توضيح وتبيان أثر المعوقات التي تواجهها الجامعات الليبية على الوصول الى اهداف التنمية في المجتمع الليبي.

واستعرضت الدراسة واقع التعليم الجامعي في ليبيا من حيث المفاهيم والمكونات والمستفيدين من العملية التعليمية، كما قدمت الدراسة لمحة تاريخية عن التعليم الجامعي في ليبيا ومسيرة تطوره مبينة أهدافه ووظائفه وأشارت الى اهم المعوقات التي تُعاني منها الجامعات الليبية والتي من بينها كثافة الطلاب الى عدد الكليات، وضعف وقلة التجهيزات الخاصة بالمعامل والأدوات والمستلزمات التعليمية وكذلك ضعف المناهج الدراسية وعدم مواكبتها لمعايير جودة التعليم الجامعي، واوصت الدراسة ببعض التوصيات المُهمة، ومن بينها:

- ان تعمل كل جامعة بأبحاث لحل الإشكاليات والعراقيل المتعلقة بتعدد الكليات والاقسام ذات التخصصات المتماثلة والعمل على تطويرها لتحين وتطوير العملية التعليمية.
- التركيز على المجالات التي يتطلبها سوق العمل.
- النظر في وضعية الجامعات من حيث منح الاستقلالية والاصلاحيات الكافية بالقدر الذي يُعزز من مكانة الجامعة العلمية وتأدية دورها الاجتماعي المُناط بها.

٤ـ دراسة زكريا سالم سليمان إبراهيم بعنوان "دراسة تقويمية لسياسات ضمان الجودة والاعتماد بالجامعات العربية على ضوء التوجهات العالمية"، وعالجت هذه الدراسة ما تواجهه مؤسسات التعليم العالي العربية من مخاطر تتعلق بكون مخرجاتها لا توافق المعايير المقبولة للتسويق اقليمياً ومحلياً، وتعرضت الدراسة لمعايير ضمان الجودة والاعتماد للجامعات العربية، واختصت الدراسة الجامعات العربية التالية بالدراسة: (الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ـ جامعة عين شمس بجمهورية مصر العربية – جامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان – جامعة مؤتة بالمملكة الأردنية الهاشمية)، كما لم تغفل الدراسة ان تعرض بشكل عام سياسات ضمان الجودة وتطبيقاتها في العديد من الدول العربية ومن ضمنها ليبيا، ومن المقاييس التي تطرقت اليها الدراسة لسياسات ضمان الجودة في التعليم العالي:

- استقلالية إدارة مُراقبة الجودة
- ضمان جودة المنافسة.
- اقتران (الحرية – المسؤولية).
- الاهتمام بالمقاييس الكمية للجودة.

- تلبية مطالب عُملاء الخارج.
- الحرص على تنمية المساعدين الفنيين.
- الإدارة الذاتية من خلال الفريق.
- دينامية [حركية] سياسات الجودة.

وقد استخدمت الدراسة المنهج الوصفي في استعراض وتحليل مشكلة الدراسة، وعرضت الدراسة الكثير من المشاكل التي تعاني منها الجامعات العربية ومنها:

- تدني الكفاءة النوعية والداخلية لمؤسسات التعليم العالي.
- تخريج أفواج من الخريجيين في الكثير من المجالات والتخصصات التي لا يحتاجها سوق العمل.
- تكرار الاخطاء السابقة بسبب التشابه والنمطية في أنظمة الهياكل والمناهج والبرامج الدراسية.
- عدم كفاءة التنسيق بين مؤسسات التعليم العالي من جانب البرامج وسياسات القبول والتخطيط والتخصصات من اجل المساهمة في التنمية المجتمعية.

وقد قدمت الدراسة مجموعة من المُقترحات الإجرائية والتوصيات، منها:

١ – منح الحرية لكل عضو تدريس او موظف وذلك لكي تتحقق الجودة.

٢ – معرفة مواصفات ورغبات عملاء الخارج.

٣ـ وضع سياسة تخصصية ذات طابع مُتميز للجودة بالشكل الذي يتماشى مع إمكانات المؤسسة وطبيعة عملها.

تعليق على الدراسات السابقة.

تناولت الدراسات السابقة التي أوردها البحث موضوع التعليم العالي واحوال الجامعات في ليبيا، عدا دراسة إبراهيم التي تعرضت لسياسات ضمان تطبيق الجودة وفق المعايير الدولية في عدد من الجامعات العربية من بينها مصر والسعودية.

وتتفق الدراسات السابقة مع البحث في تبيان واقع التعليم العالي في ليبيا والمشاكل والتحديات التي تواجهه وكذلك دراسة إبراهيم – رغم تناولها لواقع التعليم العالي لدول عربية أخرى - في عرضها لوقائع ومشاكل وتحديات مُشابهة.

كما اتفقت دراسة (سليم، العريبي)، ودراسة (إبراهيم) مع البحث في استخدام المنهج الوصفي لعرض وتحليل مشكلة الدراسة.

ويرى الباحث انه قد استفاد من هذه الدراسات والمقاربات والتحليلات، وغيرها من الدراسات التي كانت على صلة قريبة بموضوع البحث، وقد ساهمت هذه الدراسات في دفع الباحث للتركيز في دراسته هذه على واقع التعليم العالي في ليبيا وبيان وكشف ماهي التحديات التي تواجهه وكذلك معرفة طرق ووسائل وسبل

تطويره كما ساهمت هذه الدراسة في زيادة اثراء هذا الموضوع المهم، وتوسيع مساحة الضوء لزيادة توضيح الكثير من المفاهيم المتعلقة بموضوع التعليم العالي.

المبحث الأول: التعليم العالي في ليبيا بين الواقع والتحديات.

المطلب الأول: نبذة تاريخية عن التعليم العالي في ليبيا.

ان القراءة التاريخية لنشاءة التعليم العالي في ليبيا تفيد بانه لم يكن له وجود حقيقي الا بعد ظهور دولة الاستقلال وذلك في بداية الخمسينيات من القرن الماضي وبعد انقشاع غبار وادخنة ورماد الحرب العالمية الثانية، التي دارت الكثير من معاركها فوق التراب الليبي، ومرور ثلاثة حُقب زمنية بدأت من الحكم العثماني وصولاً الى حكم الإدارة الإنجليزية بينهما فترة استعمارية تحت حكم المُستعمر الإيطالي، ولم يرتق التعليم طيلة هذه الفترة الزمنية المديدة ١٥٥١-١٩٥١ الى مستوى التعليم العالي، وصل في اعلى مستوياته الى ما يمكن تسميته بالتعليم الثانوي (المدارس الرشدية) في العهد العثماني، ومدارس الجاليات الخاصة في العهد الإيطالي، كما شكل التعليم العالي منذ نشأته أحد القطاعات المهمة التي بنت عليه الدولة الليبية أحلام تطورها وتطلعات ازدهارها وضمان مُستقبلها.

" ومن هنا يكتسب التعليم العالي أهميته حيث يساهم في رسم ملامح القوة الاقتصادية والتطور الاجتماعي للدولة "[١] ، وبدأت اول لبنة تأسيسية للتعليم العالي في ليبيا بإنشاء الجامعة الليبية في عهد المملكة الليبية ١٩٥٤ بمدينة بنغازي، كانت تسميتها بكلية الآداب وفي الفترة التي أعقبت استقلال ليبيا والتي لم يتجاوز عدد من يحمل شهادات جامعية ١٤ ليبيا، معظمهم من الذين تحصلوا على شهاداتهم الجامعية من كليات الازهر ودار العلوم بدولة مصر.[٢]

وقد بدأت الدراسة بشكل فعلي في كلية الآداب ببنغازي يوم ١٩٥٦/١/٢٢،[٣] وتوالت بعدها برامج ومشاريع انشاء الجامعات والمعاهد العليا على امتداد ما يقارب الخمسة عقود،" يضم قطاع التعليم العالي في ليبيا ٢٢ جامعة إضافة الى ١٠٠ معهد في مختلف انحاء البلاد، بالإضافة الى الاكاديمية الليبية للدراسات العليا حسب تقرير ديوان المحاسبة لسنة ٢٠١٣ حول قطاع التعليم العالي. كما استحدثت حديثاً أكاديمية الدراسات العليا بالمنطقة الشرقية وفروعها في مدينة بنغازي واجدابيا وطبرق. "[٤]

---

[١] فرج بوبكر المبروك، التعليم العالي في ليبيا الواقع والافاق، ورقة بحثية , ٢٠١٧ , ص٣٦

[٢] مصطفى عمر التير، نصف قرن من التعليم الجامعي المحلي: ملاحظات وخواطر، مجلة عراجين، كتاب غير دوري – العدد الرابع – يناير ٢٠٠٦ ص٩٧

٣ محمد فرج دغيم، الجامعة الليبية في عيدها الخمسين، صفحة مُشرقة في تاريخ ليبيا، مجلة عراجين، ص١١٢ مصدر سابق

[٤] المبروك، ص٣٧, مصدر سابق

ولقد توسعت بشكل الكبير ميزانيات الانفاق على التعليم العالي وازداد عدد الجامعات والمعاهد العليا والذي شمل المدن الليبية على امتداد الوطن. والملاحظ ازدياد وتوسع برامج الدراسات العليا في داخل ليبيا منذ سنة ١٩٧٧ منها انشاء اكاديمية الدراسات العليا في طرابلس كما تأسست جامعة سبها وبلغ عدد طلبة الدراسات العليا في ليبيا للعام الدراسي ٢٠٠٢-٢٠٠٣ المسجلين ٨٠١٣، واستحدث برنامج شهادة الدكتوراه حيث بلغ عدد الطلبة الذين تحصلوا على شهادة الدكتوراه في جامعتي طرابلس وبنغازي لسنة ١٩٩٩ خمسة عشر طالباً يتضمن تخصصات القانون والرياضيات والتاريخ واللغة العربية.[١]

يبلغ عدد الجامعات حتى سنة ٢٠١٦ أربعة وعشرون جامعة فيما وصل العدد الإجمالي للكليات الى مائة وستين كلية، اما المعاهد المهنية والتقنية العليا فقد بلغت مائة وأربع عشرة معهدا، ولقد حقق الانفاق الهائل على التعليم العالي تقدماً كمياً (افقياً) واضحاً، ظهر في تكاثر عدد الجامعات وازياد ارقام الطلبة المنتسبين للجامعات والمعاهد العليا وايضاً في تضخم اعداد الطلبة الموفدين للدراسات العليا بالخارج.

المطلب الثاني: التحديات والمعوقات.

بيد ان كل ما أنفق على التعليم العالي وما رصد له من إمكانات مادية في خطط التنمية المُتعاقبة، لم يحقق (رأسياً) القفزة المعرفية المُستهدفة والجودة العلمية المطلوبة، وتشير الدراسات والأبحاث التي تناولت الموضوع، الى العديد من الأسباب والأوضاع والظروف التي أدت الى هذه المعُضلة العلمية التعليمية، ففي دراسة[٢] عن تاريخ التعليم في ليبيا اشارت الى عدة مشكلات، منها:

- ازدحام الامكنة بالمنتسبين للتخصصات السلوكية والاجتماعية، رغم ارتفاع عدد الخريجين من نفس الأقسام الباحثين عن عمل.
- النسبة الغير متوازنة بين نسبة الملتحقين بالجامعات الى نسبة عدد السكان.
- التركيز على الجانب النظري في محتوى المناهج، وضعف الجانب العملي التطبيقي

ويعرض الفاضلي[٣] ما تعرض له التعليم من تقلبات عنيفة:

- ان نظرة المُجتمع الليبي للمُعلم لم تزل نظرة قاصرة، اذ لا تقدر المعلم ووظيفته ودوره واهميته حق قدره.
- لقد تعرضت المناهج الى تغييرات وتبديلات كثيرة دونما خطة واضحة ولم تكن تلك الاختيارات للمناهج التعليمية تأخذ في حسبانها ثقافة وواقع المجتمع الليبي.

---

١ حميد فرج الصغير، تاريخ التعليم في ليبيا من ١٥٥١حتى٢٠١١م، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، الطبعة الأولى ٢٠١٢

٢ حميد فرج الصغير، الطبعة الأولى ٢٠١٢ , مصدر سابق

٣ فتحي علي الفاضلي، اصلاح التعليم في ليبيا: رؤية من قلب الحدث، دار الكتب الوطنية، الطبعة الثانية ,٢٠٢٢

- جرى تغيير المناهج بواسطة افراد لا يملكون الكفاءة اللازمة، كما انهم غير مُتخصصين في مجال اعداد المناهج.
- تم تجربة مناهج من ثقافات مجتمعات أخرى نجحت في مجال التعليم، دون ان تأخذ في اعتبارها اختلاف الواقع الثقافي والسياسي والأمني والاجتماعي.
- تعرض التعليم الجامعي الى تدخلات من قبل جهات وافراد لا علاقة لهم بالعلم ولا بالتعلم.
- غابت الاليات والمرجعيات الدقيقة للتقويم والاختيار للمعلمين وأعضاء هيئة التدريس.
- تشوه وتردي العلاقة بين الطالب والمُعلم.

ويشير الحوات [١] الى واقع التعليم من زاوية نظرة المجتمع الليبي لمفهوم المعلم والمدرس الي تدني المكانة الاجتماعية للمُعلم، اذ غالباً مل يتم إعطاء المكانة والتقدير للمهن التي تُدر دخلاً كبيراً على صاحبها، كما يُخصص كلية التربية بالنقد، كونها من اهم الكليات التي تُخرج معلمين وأساتذة وهو دورها الأساسي:

- غياب الأساليب والأدوات الحديثة المساعدة على التعليم والتعلم في كليات التربية.
- عدم ارسال طلبة كليات التربية الى كليات التربية في العالم المتحضر للاستفادة والاطلاع على المناهج

ويلفت النظر الى دائرة العلاقة التعليمية بين المُعلم والتفتيش التربوي، وكذلك دور التوجيه للطالب:

- تدني مستوى برامج التفاعل والتوجيه بين المسؤولين في التفتيش التربوي وبين المُعلمين
- عدم وجود المشرف الطلابي الذي يطبق المفهوم المُعاصر لإرشاد وتوجيه الطالب

كما يُسلط الضوء على واقع وتأثير الاسرة على الطالب وأداء وتحصيله العلمي انه لا تساعد الظروف الاسرية الصعبة الطلبة على تقديم أفضل ما لديهم من إمكانات، وذلك في غياب الدور التوجيهي والتربوي الاجتماعي للمؤسسات التعليمية.

ويربط الثلثي [٢] بين تأثير الاقتصاد والثقافة على منظومة القيم والتحولات نحو التطور، بما في ذلك النظرة الى التعليم والتعلم، وقد استشهد بما ذكره مايكل بورتر أستاذ الاقتصاد بجامعة هارفرد حين اجرى دراسة على وضع الاقتصاد الليبي , يمكن تلخيص الوضع آنذاك في سنة ٢٠٠٧ , بانه مَصمم بحيث ان كل الأدوات تتعطل , وانها وضعت من اجل الا تنتج شيئاً , وان عملية اتخاذ القرار وصنعه " معطوبة "، كما يعقد مقارنة بين القيم التي تحلى بها جيل الاستقلال وارتفاع الروح الوطنية عندهم وبين ما الت اليه الأوضاع من غياب الروح الوطنية وتدني الرغبة في الإصلاح والتطور.

[١] علي الحوات، تطور التعليم في ليبيا من القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين الميلاديين، منشورات الجامعة المغاربية باتحاد المغرب العربي، طرابلس. ليبيا الطبعة الأولى

[٢] نور الدين السيد الثلثي، التعليم في ليبيا قراءة في سياقه التاريخي. النخبة للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة. مصر، الطبعة الأولى ٢٠٢٢

لقد كانت قيم الايثار والرغبة في التطوير والحرص على العمل والجدية والمسارعة الى العمل التطوعي هي التي شكلت الثقافة الجمعية للمجتمع الليبي في جيل ما بعد الاستقلال , وتلك كانت الرابطة التي شكلت سلوك ذلك الجيل وآرائهم في أهمية التعليم , ورغبتهم في العمل واخلاصهم فيه ولقد برزت قيم الإخلاص والنزاهة والاحترام لقيم العمل والجدية تأدية المهام , في قطاع واسع من الشيوخ والشباب والمثقفين كما أدى الليبيون العائدون من المهجر دوراً وطنياً ملحوظاً في هذه النهضة التنموية وظهرت روح الانتماء والإخلاص للوطن بشكل لافت.

ولكن للأسف الشديد حدثت الانتكاسة في منظومة القيم وتراجع أداء قطاعات الدولة بشكل عام بما في ذلك تردي أوضاع المؤسسة التعليمية ومنظومتها القيمية، بسبب عدة عوامل من أهمها:

١ـ سبَّب ظهور النفط في الانتقال السكاني من الأرياف الى المدن مما نجم عنه ضعف في منظومة الترابط الاجتماعية والعائلية.

٢ـ دفعت الايرادات الكبيرة لبيع النفط الى التوسع الباذخ في الانفاق على خطط وبرامج التنمية ومنها تحول الاقتصاد الوطني الى اقتصاد ريعي – تنفق الدولة على اغلب المشاريع والمؤسسات – ولا اعتبار لحركة الاقتصاد الحر وقوانينه والياته

٣ـ تلاشى نظام المُحاسبة والمِسالة وترجع دور المعايير الرقابية الصارمة مما أدى الى تراجع قيم العمل والتعلم

٤ـ فوضى شعبية وتقلبات إدارية وسن قوانين (ثورية) وملاحقات لمعارضين وتضييق على النشطاء المدنيين

٥ـ غدا التعليم مجرد شكلاً للوجاهة، ومحض وظيفة للتكسب وانتظار مرتبات السلطة

٦ـ اخماد لروح المبادرة بفعل تغول دور السلطة وامساكها بمقدرات الدولة.

٧ـ أصبحت مؤسسات الدولة مجرد هياكل إدارية تمنح المواطن الحد الأدنى من الحاجات الضرورية من الصحة والتعليم وغيرها من المتطلبات الأساسية.

٨ـ انتكست المنظومة الإدارية للدولة وغرقت في مستنقعات الفساد والرشوة، الامر الذي قاد الى ان تحولت سلوكيات الافراد الى البحث عن تحقيق المصلحة الشخصية الانية، والتحايل لدفع الاضرار وزيادة التكسب الغير مشروع، بدعاوى ومبررات واعذار لا تستقيم مع قيم الشرع ولا مع قيم الرقي والتحضر الإنساني، "اعذار تبيح المحرمات وتشرع الأبواب امام المحظورات".

٩ـ ظهور الانفصام بين القول والعمل، بين الادعاء والسلوك، كما بينه المسح الذي اجراه مركز البحوث والاستشارات بجامعة بنغازي سنة ٢٠١٤ , وهو مسح شامل لآراء الليبيين في القيم، اذ تظهر أهمية القيم

الدينية عند الاغلبية العظمى من المستجوبين، فيما يظهر وهن فاضح لقيم الدين عند التطبيق في الكثير من المسائل.

يخلص الباحث من كل ما تقدم من توصيف وتحليل لواقع التعليم في ليبيا الى القول بأن الواقع التعليمي بشكل عام والتعليم العالي بشكل خاص يمران بأزمات واختناقات متراكبة امتدت في سلاسل زمنية متعاقبة، وتعرضا لتأثيرات سلبية مُتعددة، كانت من ضمن نتائج هذه الازمات والاختناقات:

- عطب في منظومة القيم والأخلاق المجتمعية وغلبة مفاهيم مثل (المنصب الغنيمة)، (الوظيفة الوجاهة).
- تدني الرغبة في العمل والإخلاص فيه.
- غياب الصدق والموضوعية في مواجهة المشكلات التعليمية.
- الافتقار الى الجدية في مواجهة المعضلات الاجتماعية والثقافية، وعدم وجود مبادرات للبحث عن حلول.
- ضمور مبادئ واخلاقيات مهنة التعليم، وفقدان الاحترام لدور المُعلم
- وجود هياكل لمؤسسات تعليمية عليا تعاني خلالاً في تركيبتها، ووهناً في أدائها، وقصوراً في كفأتها، أفقدها الكثير من قدرتها على أداء دورها العلمي والتعليمي والمعرفي والابداعي والتنموي.
- سيطرة مناهج التعليم التقليدية – التلقين، الحفظ، الاستظهار - التي لم تعد تتماشى مع روح العصر.
- اتساع الهوة بين مخرجات التعليم العالي وبين ما يتطلبه سوق العمل وما تفرضه برامج التطوير والتنمية
- الضعف الواضح في سياسات التوجيه نحو البحث العلمي، وغياب دور المراكز البحثية العلمية.

كما تضاف نقطتان مهمتان الى ما سبق ذكره[١], نقلاً عن المركز الوطني لضمان جودة واعتماد المؤسسات التعليمية والتدريبية عن الجامعات الحكومية في ليبيا عام ٢٠١٣ , وهي:

- معاناة الجامعات الليبية من عدم الاستقلالية وبالتالي عدم القدرة على اتخاذ القرار.

- تعميم صورة نمطية واحدة للقوانين واللوائح والممارسات والإجراءات الامر الذي أفقد الجامعات شخصيتها الاعتبارية ومرونتها وبالتالي عدم قدرتها على خوض غمار المنافسات الاكاديمية العلمية

[١] نصر ادريس عبد الكريم سرير. سالم صالح العريبي، واقع التعليم الجامعي في ليبيا ومتطلبات تطويره في ضوء منهجية جيمبا كايزن، المؤتمر الدولي: مخرجات التعليم العالي ومتطلبات سوق العمل الليبي " رهانات الحاضر وافاق المستقبل، جامعة مصراته، مجلة دراسات الاقتصاد والاعمال، اصدار خاص بالمؤتمر الدولي لمخرجات التعليم العالي ومتطلبات سوق العمل الليبي، ص ٦٩١. النص موجود على الرابط:Misurata.edu.ly

المبحث الثاني: التعليم العالي في ليبيا ومتطلبات التطوير.

المطلب الأول: طبيعة واشكال التحديات.

لقد شكلت الظروف والمعوقات – سياسية، اجتماعية، امنية، ثقافية، سلوكية - التي يعاني منها قطاع التعليم العالي عقبة كأداء وتحدياً كبيراً امام الخطط والبرامج الداعية الى اصلاح وتطوير التعليم العالي. ان هذا الواقع التعليمي والتربوي المتأزم يقتضي النظر اليه باعتباره قضية وطنية، تتطلب وضعها على سلم أولويات صناع القرار في الدولة الليبية، وبذل الجهود وتوفير كافة السبل والإمكانات للنهوض بهذا القطاع الحيوي الاستراتيجي، ولقد أسهم الكثير من البُحاث والدارسين والمُتخصصين في مجال التعليم بالعديد من الدراسات والأوراق البحثية والآراء العلمية، التي تساعد في النهوض بالتعليم العالي والرفع من مستواه، وجعله يرتقي الى مستوى التعليم العالي في الدول المتقدمة.

وبالعودة الى الأسس والمنطلقات والسياسات التي قامت عليها نهضة التعليم العالي في منتصف الخمسينات، باعتبارها الدعائم الأساسية التي يجب عدم اغفالها، واتخاذها مرجعيات ومعالم بنيوية دالة، عند التخطيط لمستقبل التعليم العالي لإخراجه من عثرته، والدفع به نحو افاق المستقبل المرتكز على معايير الجودة التعليمية الحديثة، بدعامات واسس تربوية وثقافية واجتماعية ذات قيم أخلاقية إسلامية وإنسانية راقية، وتجب الإشارة الى عدد من الأسس والسياسات[١] التي دعمت العملية التعليمية في ليبيا في عقد الخمسينات من القرن الماضي:

اولاً: توفر الرغبة والمطلب الشعبي بضرورة وجود مؤسسات تعليم عالي وجامعات على معايير العصر الحديث.

ثانياً: امداد المجتمع بالأعداد اللازمة من المؤهلين بشهادات جامعية ومعارف تقنية وفنية عليا.

ثالثاً: اعتبار التعليم هو المُرتكز الأساسي والاداة المُثلى لتطوير المواطن الليبي واكتمال شخصيته.

رابعاً: ان رفع مستوى التعليم وتحقيق أهدافه هو المخرج من حالات التخلف والجهل والتبعية.

خامساً: ابراز الدور الثقافي والحضاري الليبي ومساهمته في الحضارة الإنسانية.

سادساً: إيجاد روابط وقنوات اتصال وتواصل بين الجامعات والمعاهد العليا وبين ما يماثلها من مؤسسات وهيئات سواء في الداخل الليبي او في الخارج.

١ مرعي علي الرمحي، واقع التعليم الجامعي والعالي في ليبيا وتأثيره على سوق العمل الليبي , ٢٠٢٠-٢٠٢١ , الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.

ان تلك الأسس والسياسات التي كانت لبنة في مسار سليم نحو نهضة تعليمية مواكبة لمتطلبات روح العصر حينها، تعرضت طيلة أكثر من أربعة عقود لموجات مُتتالية من السياسيات والممارسات والقوانيين التي كان من نتائجها انها اجهزت على الهياكل والاليات التعليمية الوليدة الطموحة.

يود الباحث التأكيد على ان تلك الأسس والسياسات التي أسهمت في وضع المسار التعليمي على الطريق الصحيح في حقبة الخمسينات لا تكفي لوحدها ان تُبنى عليا برامج وخطط تعليمية حديثة.

إذا ان حقبة الخمسينات وظروفها وواقعها ليست هي فترة القرن الواحد والعشرين وما رافقه من تحولات وتحديات وتطورات كتأثيرات التطور التكنولوجي والتغيرات الاقتصادية والدخول في معترك العولمة وما صاحبها من تلاشي وانحسار للحدود القومية والوطنية وظهور أسواق ما وراء الحدود والتعليم الالكتروني والدراسات المتقدمة عن بعد.

تبرز العديد من التحديات[١] انطلاقاً من واقع تعليمي مُتخم بالعديد من المشاكل، من أبرز هذه التحديات التي تواجه التعليم العالي:

١ – الضعف الواضح في أداء المستويات التعليمية ما قبل الجامعي، بدءا من رياض الأطفال.

٢ – عدم وجود استراتيجية واضحة لتحديد مستقبل التعليم العالي.

٣ – سببت مجانية التعليم المفتوحة تراكماً كمياً هائلاً في اعداد الطلبة الداخلين الى مجال التعليم العالي.

٤ – الانتشار العشوائي لمؤسسات التعليم العالي دونما تخطيط للاماكن التي تقام فيها ومدى الحاجة اليها.

٥ – غلبة حسابات الكسب المادي لأعضاء هيئة التدريس حين يعملون على التعاون مع جهات بعيدة عن اعمال ووظائف مؤسساتهم التي من المفترض ان تتركز أعمالهم فيها.

٦ – شح موارد التمويل والدعم والموارد التي تساهم في رفع مستوى أداء التعليم العالي وجودة مخرجاته واقتصار التمويل فقط من مصادر الدولة، التي لم تعد تتناسب مع الاعداد الهائلة لتدفقات الطلاب نحو الجامعات.

المطلب الثاني: متطلبات وسبل التطوير.

والحال هذه من تراكم المشاكل وانحدار في مستوى الأداء والكفاءة التعليمية ـ كما سبق الإشارة اليها ـ,فان متطلبات التغلب على هذه التحديات وتجاوز المعوقات والخروج من عنق زجاجة الازمة التعليمية يقتضي اتخاذ عدة خطوات وبرامج تتضمن اهداف استراتيجية تعتمدها اعلى القيادات السياسية ويشارك فيها المتنفذين وأصحاب المصلحة في العملية التعليمية.

[١] مصطفى محمد الفاخري. سالمة بوخطوة. واقع التعليم العالي في ليبيا (مشكلاته الرئيسية، الأسباب وسبل العلاج، مجلة البحوث الجغرافية, ٢٠١٧).

من هذه الخطوات والاهداف التي يرى الباحث وضعها على سلم الأولويات:

اولاً: تحليل وتشريح للبنية التعليمية ورصد لكل العوائق ومعرقلات العملية التعليمية

ثانياً: تحليل وتشريح للواقع الثقافي ومعرفة جوانب تأثيره في قطاع التعليم

ثالثاً: معرفة ابعاد التأثيرات الأمنية والسياسية والحد من اثارها السلبية على قطاع التعليم

رابعاً: تنفيذ حملات توعية بأهمية التعليم ونشر قيم احترام العلم وتقدير المُعلم، عبر قنوات ومنابر وصحف واندية ومحاضرات ومؤتمرات باتساع القطر الليبي

خامساً: التذكير بالموروث الأخلاقي الإسلامي والإنساني المرتكز على ثوابت الامة واعتدال منهجها المبني على قيم (الحق – الخير – العدل – الاحسان)

سادساً: اعداد مشروع وطني لنهضة تعليمية تربوية يقع على عاتق هذه التشكيلة من النخب، خبراء واداريين وعلماء تربية واجتماع واستشاريين وبحاث ذوي كفاءة، ومصممي مناهج، وأصحاب تجارب ناجحة في مجال التعليم والتربية.

سابعاً: الربط والتنسيق مع جامعات متطورة ناجحة ومراكز بحثية ذات معايير تعليمية متطورة، وأجهزة وهيئات مراقبة لضمان الجودة، وذلك لكي تتحقق عمليات المُراقبة والمراجعة الحيادية والموضوعية. على الدولة ان تتحمل مسؤولياتها لنجاح اصلاح التعليم:

" ولكي تنجح الدولة في الاسهام في اصلاح التعليم، بما في ذلك اعداد المعلم الرائد الناجح المميز الفعال، يجب على الدولة في البداية اختيار قادة القطاع التعليمي أو صناع القرار فيه، من وزراء ووكلاء ومدراء ومستشارين وغيرهم من صناع القرار، بدقة ومهنية وأمانة، حسب معايير علمية، ومنها – على سبيل المثال "أن يكونوا من أبناء أو من ذوي الانتماء لهذا القطاع الحيوي الحساس (التعليم)، بالإضافة الى امتلاكهم المهارات ورؤى ومعايير أخرى عديدة. فقد رأينا عبر سردنا لازمات التعليم بأن أحد أسباب دمار القطاع التعليمي هو تنصيب من لا كفاءة ولا خبرة ولا انتماء له للقطاع التعليمي "[١]

ولكي يتحقق كل ما سبق ذكره من أولويات للنهوض بمؤسسات التعليم العالي وتطويرها بشكل واقعي وفعلي يجدر الإشارة الى وجوب توفر الإرادة والرغبة على مستوى القيادة السياسية العليا، وقناعتها التامة بأهمية قطاع التعليم، واعتباره أحد الدعائم الأساسية التي تقام عليها برامج وخطط التحول والتنمية والتطوير.

بالإضافة الى دور الدولة المحوري في النهوض بالتعليم فقد وضعت اليونسكو عدة جهات أخرى يقع على عاتقها عبء تحقيق اهداف تطوير التعليم تنفيذا لخطة هدف التعليم لعام (٢٠٣٠)[٢] ، الجهات هي:

- منظمات المعلمين والمربين

---

[١] فتحي علي الفاضلي، الطبعة الثانية ٢٠٢٢, ص٣٣٧ , مصدر سابق.

[٢] وثيقة، اليونسكو، التعليم في ليبيا للعشرين سنة القادمة: سبل تحقيق الهدف الرابع من اهداف التنمية المستدامة لعام ٢٠٣٠ , " نحو التعليم الجيد والمنصف والشامل للجميع والتعلم مدى الحياة للجميع ". مجلة شؤون ليبية، مصدر سابق، ص١٣٦ , ١٣٧ , ١٣٨

- اليات ووسائل زيادة الوعي وتعزيز الأدوار الاجتماعية
- منظمات المجتمع المدني
- المؤسسات الخيرية ومراكز الأبحاث
- منظمات الطلبة ومؤسسات الشباب

يضاف الى كل هؤلاء لجنة توجيهية وضمان تنسيق فعَّال ومخصصات مالية كافية، مع توفير البيانات المطلوبة للمتابعة والرصد والعرض والشروحات، والمهمة الأخيرة من اختصاص معهد اليونسكو للإحصاء.

خاتمة:

ناقش البحث واقع قطاع التعليم العالي في ليبيا والتحديات والطموحات ومتطلبات التطوير وافاق المُستقبل، وتطرق البحث في ثناياه الى العراقيل والمشاكل التي تواجه التعليم العالي في ليبيا مستخدماً المنهج الوصفي التحليلي، كما عرض البحث عدد من الدراسات السابقة التي ناقشت وبحثت في موضوع التعليم العالي، واستفاد الباحث منها في زيادة مداركه ومعلوماته حول هذا الموضوع الشديد الأهمية.

ويرى الباحث ان تناوله للبحث قد القى مزيد من الضوء على هذا الموضوع وانه قد يزيد من مستوى إدراك المسؤولين عن هذا القطاع وكذلك أصحاب القرار في ليبيا بأهمية هذا القطاع وضرورة ايلائه الأولوية ومنحه مزيد من الدعم والاهتمام والمتابعة حتى تتحقق اهداف الليبيين في الرقي والتطور والتنمية والازدهار.

التوصيات والمقترحات:

- توسيع دائرة الاهتمام بقطاع التعليم بشكل عام وللتعليم العالي بشكل خاص.
- مواكبة ومتابعة اخر الإصدارات والأبحاث التي تصدرها الجامعات والمراكز البحثية وهيئات البحث العلمي في الدول المتقدمة.
- اشراك مؤسسات المجتمع المدني ومؤسسات الشباب الفاعلة والمشهود لها بالكفاء والالتزام الوطني في بناء رؤية استشرافية لمستقبل التعليم العالي في ليبيا
- توفير البيئة البحثية الملائمة للباحثين والدارسين والمتخصصين في مجال التعليم
- تشجيع القائمين والعاملين على برامج وانشطة التعليم وامدادهم بالمعدات والأدوات التعليمية والتربوية المتطورة
- اجراء مزيد من البحوث والدراسات حول التعليم العالي في ليبيا
- وضع خطط استراتيجية لبناء علاقات وروابط التوأمة مع الجامعات ومؤسسات التعليم العالي في الدول المتقدمة، (فنلندا) وكلك الجامعات التي نجحت في تطوير قدراتها وامكاناتها العلمية والبحثية (ماليزيا)

المراجع:

الكتب.

١ـ على الفاضلي، فتحي، اصلاح التعليم في ليبيا: رؤية من قلب الحدث، بنغازي ـ ليبيا، دار الكتب الوطنية، الطبعة الثانية ٢٠٢٢.

٢ـ السيد الثلثي، نور الدين، التعليم في ليبيا: قراءة في سياقه التاريخي، النخبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٢٢.

٣ـ فرج الصغير، حميد، تاريخ التعليم في ليبيا من ١٥٥١حتى ٢٠١١م، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، طرابلس – ليبيا الطبعة الأولى ٢٠١١.

٤ـ محمد التومي الشيباني، عمر، تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا، إدارة المطبوعات والنشر جامعة الفاتح، الطبعة الأولى ٢٠٠١.

٥ـ الحوات، علي، تطور التعليم في ليبيا من القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين الميلاديين، طرابلس ـ ليبيا، منشورات الجامعة المغاربية باتحاد المغرب العربي، الطبعة الأولى ٢٠٢٢.

الدوريات والمجلات.

١ـ مجلة عراجين، أوراق في الثقافة الليبية، كتاب غير دوري، العدد الرابع، يناير ٢٠٠٦.

٢ـ بوبكر المبروك، فرج، التعليم العالي في ليبيا الواقع والافاق، مجلة شؤون ليبية، العدد السادس -سبتمبر- ٢٠١٧.

٣ـ أبوبكر سالم المالطي، عبد الفتاح، المشاكل والصعوبات التي تواجه التعليم الجامعي في ليبيا، مجلة شؤون ليبية، مصدر سابق.

٤ـ بشير الدويبي، عبد السلام، التعليم العالي والتنمية البشرية في عصر المعرفة الرقمية، مجلة شؤون ليبية، مصدر سابق.

٥ـ وثيقة، اليونسكو، التعليم في ليبيا للعشرين سنة القادمة: سبل تحقيق الهدف الرابع من اهداف التنمية المستدامة لعام ٢٠٣٠ , " نحو التعليم الجيد والمنصف والشامل للجميع والتعلم مدى الحياة للجميع ". مجلة شؤون ليبية، مصدر سابق، ص١٣٦ , ١٣٧ , ١٣٨.

مواقع شبكة الانترنت.

١ـ ادريس عبد الكريم سرير، نصر. صالح العريبي، سالم. واقع التعليم الجامعي في ليبيا ومتطلبات تطويره في ضوء منهجية جيمبا كايزن، مجلة دراسات الاقتصاد والاعمال، اصدار خاص بالمؤتمر الدولي

لمخرجات التعليم العالي ومتطلبات سوق العمل الليبي " رهانات الحاضر وافاق المستقبل ". النص متاح على الرابط التالي: Misuratau.edu.ly

٢ـ (أبوبكر سالم المالطي، عبد الفتاح، المشاكل والصعوبات التي تواجه التعليم الجامعي في ليبيا، مجلة شؤون ليبية، العدد السادس، سبتمبر ٢٠١٧. النص متاح على الرابط التالي: Researchgate.net

٣ـ سالم سليمان إبراهيم، زكريا، دراسة تقويمية لسياسات ضمان الجودة والاعتماد بالجامعات العربية على ضوء التوجهات العالمية، مجلة كلية التربية – جامعة الإسكندرية، المجلد الثلاثون (العدد الأول) ٢٠٢٠، النص متاح على الرابط التالي: JEALEX- volume30-Issue1-page321-365)

٤ـ على الرمحي، مرعي، واقع التعليم الجامعي والعالي في ليبيا وتأثيره على سوق العمل الليبي , ٢٠٢٠-٢٠٢١، الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية، النص متاح على الرابط التالي: Politics-dz.com

٥ـ محمد الفاخري، مصطفى. بوخطوة، سالمة، واقع التعليم العالي في ليبيا (مشكلاته الرئيسية، الأسباب وسبل العلاج، مجلة البحوث الجغرافية , ٢٠١٧. النص متاح على الرابط التالي: (Swideg-geography.blogspot.com

المراجع الأجنبية.

Books.

1-Teemu Moilanen and Seppo Rainisto ; how to brand nations, cities and destination, a planning book for place branding. first published 2009 by Palgrave Macmillan)

2-Micheal Armestrong; Strategic Human Resource Management a guide to action. Kogan Page, London and Philadelphia ,3rd Edition.

Mim.ac.mw).

Periodicals.

1- Alansary Refat Elkhouly. Oqbah JummahMasoud. Husen A. Shafsha.Higher Education in Libya, challenges and problems: a descriptive study.

American Research Journal of Humanities &Social Science (ARJHSS).2021 Volume -04, Issue-12, p-52-61.).